

المؤرخ المصرى



دراسات وبحوث فى التاريخ والحضارة

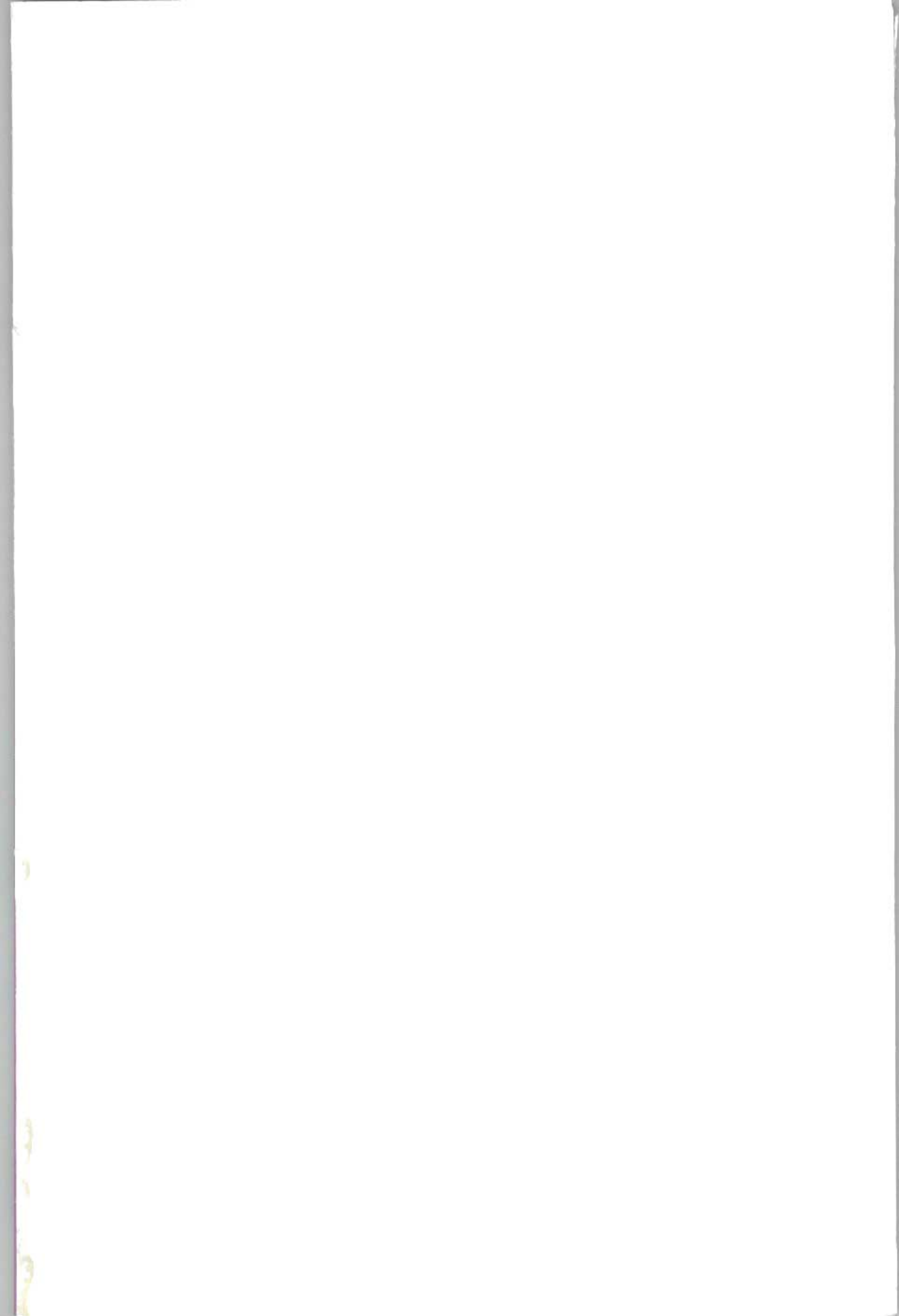
(مجلة علمية محكمة نصف سنوية)

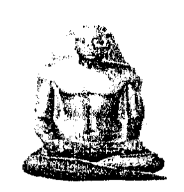


يصدرها قسم التاريخ

كلية الآداب - جامعة القاهرة

العدد الأربعون الجزء الثانى يناير ٢٠١٢







المؤرخ المصرى

دراسات وبحوث فى التاريخ والحضارة

(مجلة علمية محكمة نصف سنوية)

يصدرها قسم التاريخ

كلية الآداب ـ جامعة القاهرة

العدد الأربعون

الجزء الثانى

يناير ٢٠١٢م

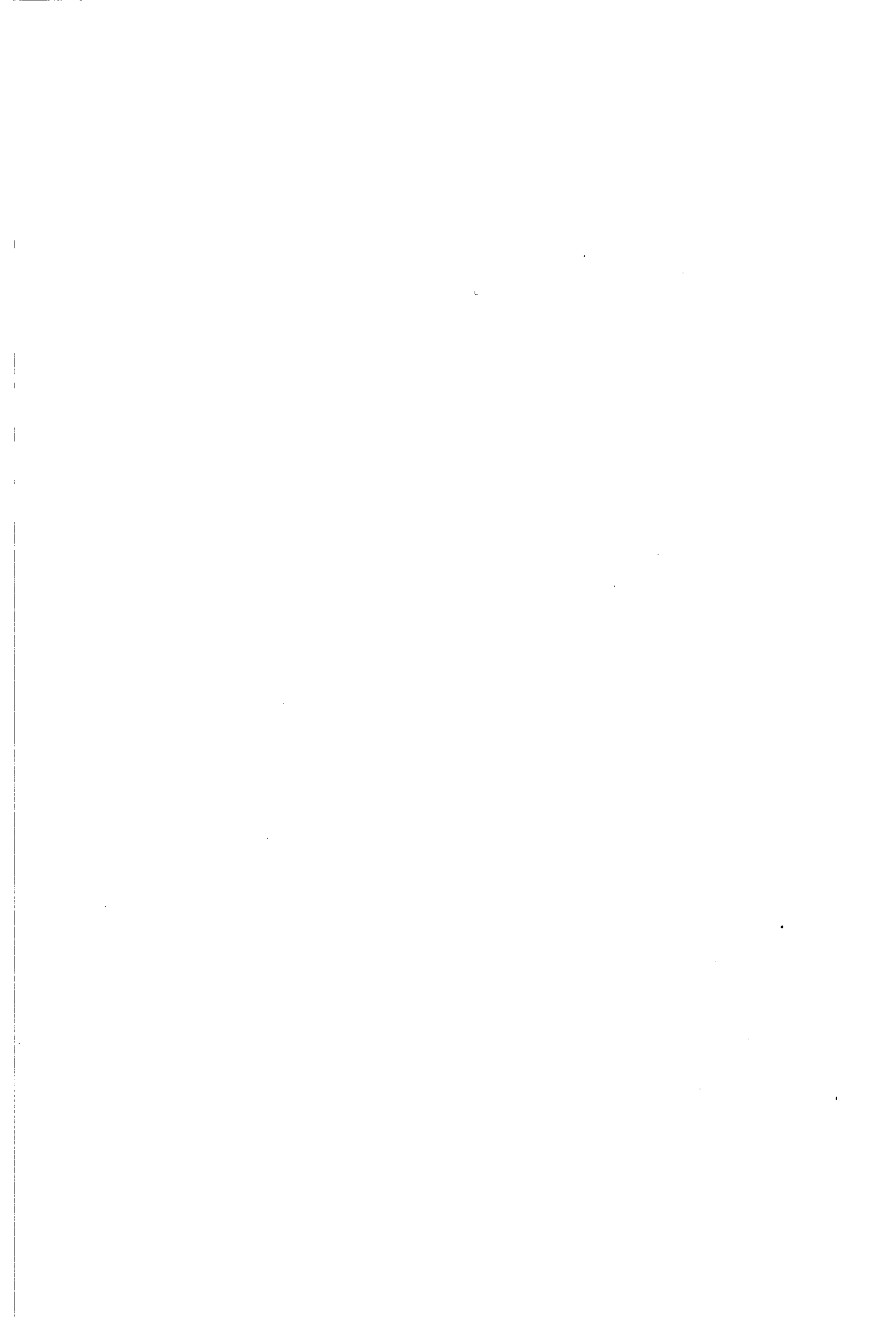
المراسلات : ترسل البحوث والمقالات باسم أ.د. محمد عفيفى رئيس التحرير على العنوان التالى : (قسم التاريخ) كلية الآداب ــ جامعة القاهرة ــ بريد الأورمان ــ الجيزة.

All correspondence to be directed to : Editor- in chief- Prof. Mohamed Afify, Cairo University, Faculty of Arts, Orman, Giza, A.R.E.

المؤرخ المصرى

دراسات وبحوث فى التاريخ والحضارة

(مجلة علمية محكمة نصف سنوية)

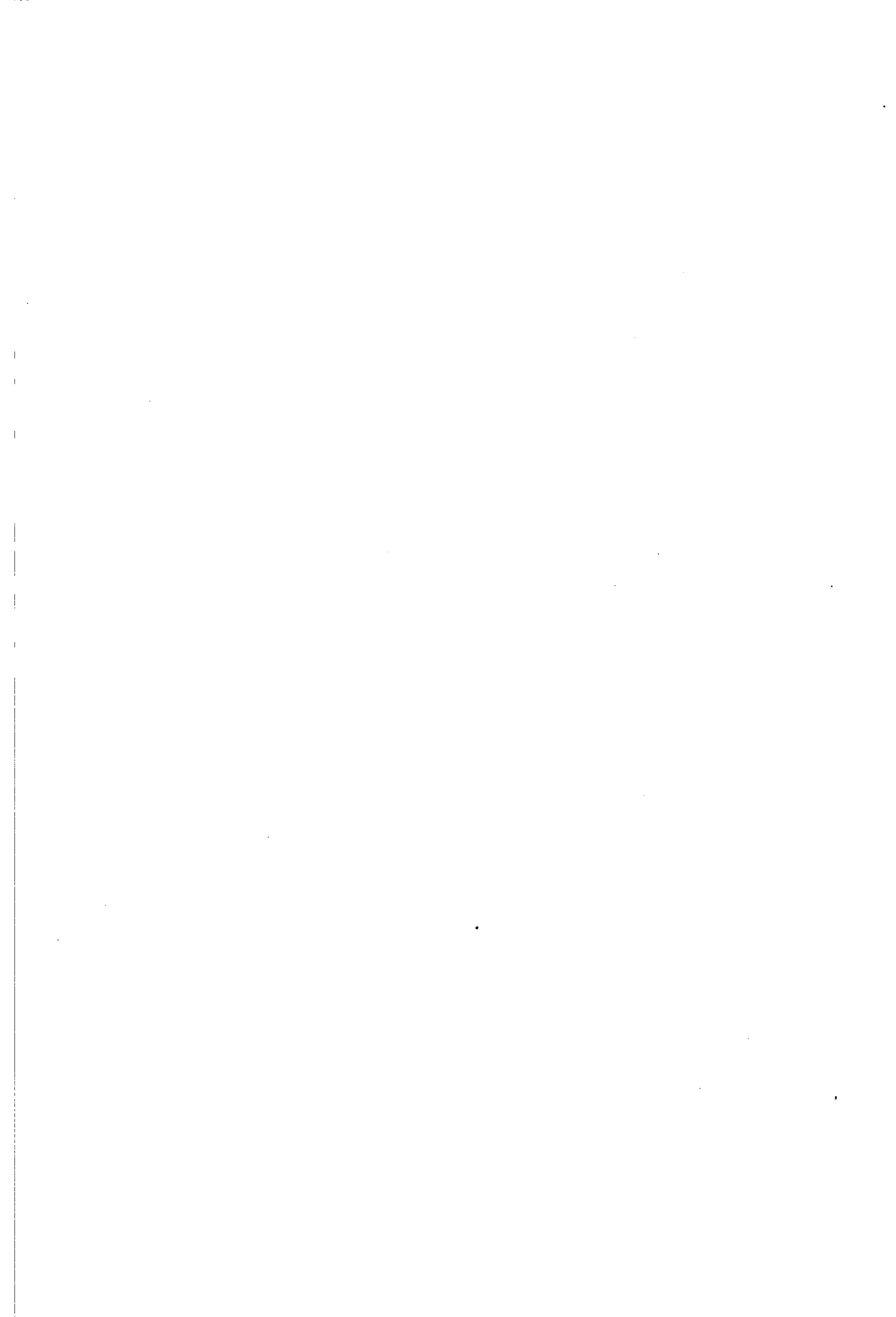


قواعد النشر

- ترحب مجلة المؤرخ المصرى بنشر الأبحاث والدراسات الأصلية ذات المستوى الجاد بعد التحكيم، فضلا عن مراجعات وعرض الكتب الجديدة.
- تقبل المؤرخ المصرى للنشر الأبحاث التاريخية والحضارية المكتوبة باللغتين العربية والإنجليزية على ألا يزيد عدد الصفحات عن ٣٠ صفحة مسجلة على ديسك كمبيوتر وفق برنامج (word) مع نسخة مطبوعة على ورق حجم A4 بما فى ذلك الهوامش والجداول وقائمة المراجع، على أن تكتب الهوامش فى نهاية البحث.
- المؤرخ المصرى لا تنشر بحوثا سبق أن نشرت أو معروضة للنشر فى مكان آخر، وتقوم رئاسة التحرير بإخطار المؤلفين بإجازة بحوثهم للنشر بعد عرضها على هيئة التحكيم.
- تحتفظ المؤرخ المصرى لنفسها بحق قبول أو رفض الأبحاث أياً كان قرار هيئة التحكيم.
- النشر فى المؤرخ المصرى متاح لأعضاء هيئة التدريس بالجامعات المصرية والعربية والأجنبية وسائر المهتمين بالدراسات التاريخية.
- الآراء الواردة بالمؤرخ المصرى تعبر عن وجهة نظر أصحابها.

المراسلات : **ترسل البحوث والمقالات باسم أ.د. محمد عفيفى رئيس التحرير على العنوان التالى :** (قسم التاريخ) **كلية الآداب – جامعة القاهرة – بريد الأورمان – الجيزة.**

All correspondence to be directed to : Editor- in chief- Prof. Mohamed Afify, Cairo University, Faculty of Arts, Orman, Giza, A.R.E.



محتويات العدد (الجزء الثانى)

الصفحة

بسم الله الرحمن الرحيم

الافتتاحية

يسعدنى أن أقدم للقارئ الكريم العدد الجديد رقم ٤٠ (الجزء الثانى) من مجلة المؤرخ المصرى، هذه المجلة التى ساهمت فى إثراء الدراسات التاريخية ليس فقط على المستوى المصرى، وإنما امتد تأثيرها أيضا إلى المجال العربى.

ونتمنى التواصل مع المجلة بأخبار الفاعليات الثقافية لجامعتكم، فضلا عن عروض الكتب لإحدث الإصدارات التاريخية ، حتى تعم الفائدة على وطننا الحبيب.

والله ولى التوفيق

رئيس التحرير
محمد عفيفى

كريم الدين الكبير ناظر الخاص
بين الإحسان و الإساءة
(٧١٠- ٧٢٤ هـ)

د. نجلاء مصطفى شيحة

هو إكرام بن هبة الله بن السديد القبطي وتَسمى بعد إسلامه كريم الدين أو عبد الكريم وكان يُكنى بأبى الفضائل[١] وكان أبوه يكنى بالعلم [٢]، اختلفت حوله المصادر فمنها ما نسب إليه كل فضيلة ومنها – النويرى – ما ألحق به كل نقيصة حتى ليخيل لمتتبع سيرته أنه أمام رجلين لا رابط بينهما [٣].

مرحلة الصعود :

بدأ كريم الدين العمل لدى الدولة بالكتابة لدى قراقوش والي قوص ثم جاور حي الأشرفي ليعمل بعد ذلك في استيفاء البيوت حتى طلبه بيبرس الجاشنكير[٤] بعد عودته من واقعة شقحب عام ٧٠٢هـ / ١٣٠٢م [٥] فعرض عليه الإسلام حتى إذا أسلم قرره في مباشرة ديوانه وأحدث إسلامه لغطاً لدى المؤرخين حول ما إذا كان نتيجة إيمان صادق أم رغبة في الترقي في مناصب الدولة والقرب من الحكام والولاة خاصة مع انتشار تلك الظاهرة بين نصارى مصر في العصر المملوكي [٦].

جاء إسلام كريم الدين فاتحة خير له ليدخل من باب القلعة إلى قلوب السلاطين في الولاية الثانية للناصر محمد بن قلاوون[٧] (٦٩٨هـ – ٧٠٨هـ / ١٢٩٨م – ١٣٠٨م) الذي أستهل حكمه بتعيين الأميرين سيف الدين سلار[٨]

نائباً للسلطنة وركن الدين بيبرس الجاشنكير استادارا [٩] ليستغل الاثنان صغر سن السلطان ليستبدا بالحكم ويضيقا الخناق عليه من كل جانب حتى أصبح غير قادر على التصرف في أمواله وصار كالمحجور عليه وفي سبيل تحقيق هذا المأرب استخدم بيبرس الجاشنكير مباشر ديوانه كريم الدين الكبير الذي أصبح نتيجة ذلك المخطط من أهم الشخصيات داخل القلعة فأصبح قائماً على صرف ما يحتاجه السلطان فى مأكله ومشربه فلا يصرف منها شيئاً إلا بموافقة كريم الدين الكبير وتوقيع قلمه[١٠]، حتى روي أنه ذات مرة طلب السلطان أن يأكل أوزة وحلوى بلوز وسكر ولم يكن كريم الدين حاضراً فلم يصرف له[١١]. فلما تولى المظفر بيبرس الجاشنكير السلطنة (٧٠٨هـ - ٧٠٩هـ / ١٣٠٨م - ١٣٠٩م) أصبح كريم الدين كاتبه الخاص، فلما توفي خاله "التاج بن سعيد الدولة"[١٢] دانت له كافة وظائفه ومهامه ليصبح هو الصاحب والصديق والكاتب لبيبرس الجاشنكير فكتب على ما يعرف وما لا يعرف[١٣]، وظل الحال كذلك حتى استعاد السلطان محمد بن قلاوون عرش السلطنة (٧٠٩هـ - ٧٤١هـ / ١٣٠٩م - ١٣٤١م) و عمره آنذاك خمسة وعشرون عاماً وعقد العزم على الانتقام من كل من تآمر عليه في الماضى و آذوه [١٤] وكان في مقدمتهم المظفر بيبرس الجاشنكير إلاَّ أن هذا الأخير استطاع الفرار ومعه بعض مماليكه وكاتبه القاضي كريم الدين الكبير إلى غزة لكنه عجز عن الابتعاد عن قبضة السلطان فأرسل كاتبه كريم الدين الكبير إلى السلطان محمد بن قلاوون محملاً بجزء من ثروة بيبرس الجاشنكير، وما أن دخل إلى القصر حتى قبض عليه وصودرت أمواله وكانت كثيرة وصلت إلى مائة ألف دينار[١٥].

لم يلبث كريم الدين الكبير بعد الإفراج عنه أن حاول استعادة مكانته الرفيعة في بلاط الحكم فبذل الجهد للتقرب إلى الناصر محمد بن قلاوون واعتمد في ذلك على خبرته السابقة وما أشتهر عنه من ذكاء وإخلاص ثم السلاح الأقوى وهو المال، فبدأ بالتقرب إلى المقربين من السلطان إذ لجأ أولاً إلى

الأمير علم الدين الجاولى[١٦] فأشار عليه بأن السبيل إلى السلطان هو الأمير طغاى الكبير[١٧] الذي استطاع بالفعل أن يدخل كريم الدين على السلطان بعد أن بذل هو والأمير فخر الدين ناظر الجيش دوراً كبيراً في تحسين العلاقة لدى السلطان بعد إقناعه بأهمية دور كريم الدين الكبير في استعادة ثروة بيبرس الجاشنكير إذ كان هو المطلع على ما خفى من تلك الثروة فاستجاب السلطان لتلك المساعى ووعد كريم الدين بالخير الكثير إن هو نجح فى ذلك، و بالفعل استطاع كريم الدين الكبير أن يعيد للسلطان تلك الثروة بعد أن ضيق الخناق على زوجة بيبرس حتى سلمته الجواهر والذخائر النفيسة واستولى على كافة متعلقاته وباعها ليحمل الجزء الأكبر من تلك الثروة إلى السلطان محمد بن قلاوون، كما منح جزء منها لمن وقف إلى جواره من الأمراء واحتفظ بجزء منها لنفسه[١٨] ليبدأ بذلك مرحلة الوئام والمحبة مع الناصر محمد بن قلاوون.

مرحلة الإحسان و العلو:

عاد ما أنجزه كريم الدين الكبير عليه بالشكر والثناء من الأمراء في مجلس السلطان ومذكرين له بوعده الخير الكثير لكريم الدين فما كان من السلطان إلا أن ولاه نظر الخاص بالوجه القبلى ثم نظر ديوان الملك المنصور "علاء الدين على ابن السلطان[١٩] ثم وكيل السلطان بعد وفاة شهاب الدين أحمد بن عبادة عام ٧١٠هـ / ١٣١٠م [٢٠] ورتب السلطان متحصلات ثغر الإسكندرية لصالح خاصة فاستقل كريم الدين بإدارته بعيدًا عن الوزارة وأخذ المال من السلطان للتجارة فحقق أرباحًا جمة زادت من مكانته لدى السلطان[٢١] ليجمع بين وكيل السلطان وناظر الخاص[٢٢] بعد أن أبطل الناصر الوزارة [٢٣] ليصبح كريم الدين أول من تَسمىَ "بناظر الخاص" و منذ تلك اللحظة أصبح كريم الدين الكبير أحد أركان السلطنة يتجمع الكل من حوله بعد أن صار نجماً في قلعة الناصر محمد بن قلاوون وذو مكانة عظيمة في قلبه بعد أن اكتملت

على مَرِّ الأيام والشهور علاقات الود والمحبة والوئام بينهما، وحرص كريم الدين الكبير خلال ذلك على تقديم كل الإخلاص والتفاني في العمل لينال رضا السلطان خلال عمله كناظر للخواص الشريفة.

مهامه :

تنوعت مهام كريم الدين الكبير واتسعت ما بين استقبال الملوك والأمراء والنواب بما يليق بهم من حسن الاستقبال وتقديم الهدايا لهم فكان أن استقبل الملك المؤيد [٢٤] صاحب حماة وقدم له كل ما يحتاج إليه بناء على رغبة السلطان [٢٥]، كما استقبل الأمير تنكز[٢٦] نائب الشام عدة مرات وقدم له في إحداها عشرة آلاف دينار[٢٧]. وكان من مهامه أن أسند إليه السلطان الناصر مراقبة أحوال بلاد الشام خاصة دمشق والقدس [٢٨] فوجد طريقة إلى قلوب أهل الشام لتعدد زيارته. وكان من صلب عمله الإشراف على الحواصل والحوائج السلطانية [٢٩] والمحافظة على الحوائج خاناه في داره وذلك لأهميتها وثقة السلطان فيه ولإنجاز ما يحتاجه السلطان والأمراء والمماليك في أسرع وقت، حتى كان عام ٧٢١هـ / ١٣٢١م إذ شَبَّ حريق هائل في القاهرة بالقرب من داره بحارة الديلم[٣٠] هرع معه الأمراء والمماليك لنقل الحواصل السلطانية من داره إلى دار والده علم الدين بن عبد الله بدرب الرصاص [٣١] ، وتولى كريم الدين الكبير تسيير أمور السلطنة عند سفر السلطان أو انشغاله فكان يعمل على إنهاء المشاكل والقلاقل ومن ذلك نزوله إلى الناس حين استبد بهم الغضب وارتفعت أصواتهم ضد انتشار النقود المزيفة وقد وعدهم بعرض الأمر على السلطان وأنه سوف يسعى معه على حل تلك المسألة [٣٢].

وكثيراً ما اعتمد عليه السلطان الناصر محمد في تدبير الأموال وإقالة العثرات المادية فحدث أن اشترى الناصر بعض الأغراض من تجار الفرنج بمبلغ ستة عشر ألف دينار وليس لديه مالاً يدفعه لهم ففوض كريم الدين الكبير في ذلك الذى بدوره لم يكن لديه في الحاصل ما يدفعه لهم [٣٣] وهنا ظهرت

براعة كريم الدين وقدرته على تجاوز تلك المواقف فأرسل إلى تجار الكارم[٣٤] ليقترض منهم وبينما هم لديه حضر تجار الفرنج وكانت بينهما معاملات فطلب الكارمية ديونهم لدى الفرنج وطلب الفرنج دين السلطان لسداد ديـن الكارميـة فكتب كريم الدين إشهاداً للكارمية بدين السلطان وألزم تجارّ الفرنج بتكملة مـا عليهم للكارم وخرج الجميع من عنده شاكرين وقد سدد دين السلطان، فـازدادت بتلك الأعمال مكانته لدى السلطان حتى أشهد القضاة على نفسه بأنه ولى كـريم الدين الكبير جميع ما ولاه الله من الأمور[٣٥].

دوره فى العمارة والإنشاءات:

ومع شغف الناصر محمد بن قلاوون بإنشاء العمائر المختلفة الدينية والمدنية والحربية [٣٦] – حتى صار عهده هو العصر الذهبي في تاريخ المنشآت العمرانية – كان لكريم الدين الكبير شرف الإشراف على إقامة بعضها ومنها أحواش الخيول والجمال وميدان منطقة بركة الفيل[٣٧] ؛ وتولى الإشراف على إنشاء دار البقر[٣٨] فيما بين قلعة الجبل وبركة الفيل[٣٩] – وغرس بينهما عدة أشجار حتى بلغ جملة ما أنفق على عمارتها ألف ألف درهم فضة.

وما كان كريم الدين الكبير ليستخدم رجاحة عقله في جمع المال فقط وإنما لتذليل ما يعترض طريق السلطان من عقبات إذ حدث عند التوسع في منشآت بركة الفيل أن رفض قاضى القضاة شمس الدين الحريرى[٤٠] حصول السلطان الناصر محمد على جزء من أوقاف الملك الظاهر بيبرس لأجل إنشاء قصر له على أن يعوض الوقف بجزء من أملاكه في مكان آخر وأنكر القاضى شرعية ذلك الفعل، وهنا جاء الحل من كريم الدين الذى أشار على السلطان بتولية القاضى سراج الدين الحنفى قضاء مصر منفرداً عن القاهرة ثم يعرض عليه مسألة الاستبدال فجاء حكمه باستبدال السلطان لأرض الوقف [٤١] . إلا أن كثرة ما أنفقه كريم الدين الكبير على المنشآت السلطانية أدى إلى ثورة المماليك أمام

قلعة السلطان بعد أن تأخر عن صرف جوامكهم لمدة شهرين[٤٢].

وبني لمسجد بن طولون طاحون [٤٣] و أنشأ منارتين على طرفى جداره الشرقى – بنيتا بالطوب على شكل أسطوانة [٤٤]، وعمّر جامع القبيبات بدمشق باسمه[٤٥] وجامع القابون وأوقف عليهما وقفا [٤٦] وأجرى الماء الوافر إلى جامع القبيبات وفي ذلك يذكر ابن كثير "جرى الماء بالنهر الكريمى الذى اشتراه كريم الدين بخمسة وأربعين ألفاً وأجراه في جدول إلى جامعه بالقبيبات فعاش به الناس وجعل به أنس إلى أهل تلك الناحية، ونُصِبتَ عليه الأشجار والبساتين، وعمل حوض كبيرة وعمل مطهرة وحصل بذلك نفع كبير ورفق زائد" [٤٧]، كما أنشأ المدرسة الكريمية بالقدس الشريف بباب حطة وأوقفها ليلة الثامن من شهر ذي الحجة سنة ثماني عشرة وسبعمائة [٤٨] أما في مصر فقد أنشأ جامعاً بالجزيرة الوسطى خلف ميدان "الميدان الناصرى" [٤٩] وقد ذكره المقريزى "بجامع كريم الدين بخط الزريبة" [٥٠] – وهو يقع في نفس موضع جامع عمر مكرم الحالي[٥١] – كما أقام خانقاه بالقرافة الصغرى وأوقف عليها عدة جهات[٥٢] كما بنى خانا ومسجدا ومئذنة وعمل ساقية بناحية تسمى القصير بعد الصالحية فى الطريق من القاهرة إلى دمياط وفى الطريق إلى غزة عمل ساقية سبيل وبنى خان حصين يأوي إليه من الجاه المساء، وينام فيه آمنا من طوارق الفرنج [٥٣].

دوره فى الحياة الاجتماعية وخصاله :

ساهم القاضى كريم الدين الكبير بدور في الحياة الاجتماعية ومظاهرها المختلفة فكان يناط به تجهيز مراسم الاحتفالات الرسمية من زواج وترقية الأمراء إلى رتبة أمير، ومراسم الجنازات للأمراء أو أفراد أسرهم [٥٤]. ونتيجة لتلك المهام فقد قاد كريم الدين الكبير الاستعدادات اللازمة لتجهيز عرس السلطان قلاوون من الخاتون طلنباي – دلنبية أو طولونية – عام ٧٢٠هـ / ١٣٢٠م بدءاً من استقبالها بالإسكندرية حتى إتمام عقد الزواج على يد القاضى

علاء الدين بن الأثير[٥٥] والاحتفالات المصاحبة لهذا الزواج[٥٦] ؛ أما عن احتفالات ترقية الأمراء فقد أشار المقريزي أنه في عام ٧٢٠هـ أنعم السلطان على جماعة من المماليك بإمريات، وقد أشعلت لهم القاهرة وجلس المغاني بالحوانيت في عدة أماكن وعمل لهم كريم الدين سماطاً جليلاً وفواكه ومشارب بالمدرسة فكان يوماً مشهوداً [٥٧].

إلى جانب ذلك تولى كريم الدين الكبير نظر البيمارستان المنصورى[٥٨]، كما تولى النظر على حال مسجد ابن طولون – بعد الشكوى من ناظره ابن جماعه [٥٩] – واستطاع بحسن تدبيره أن يوفر من المال الخاص بالجامع ضعف ما كان يصرف، على أن أسمى ما تولى كان الإشراف على كسوة الكعبة الشريفة وإعداد موكب السلطان الناصر محمد للحج، فبدأ في التجهيز منذ عام ٧١٩هـ / ١٣١٩ – ١٣٢٠م بالمكاتبات بينه وبين نواب السلطان في بلاد الشام وغزة لإحضار ما يحتاجه السلطان ثم تولى بنفسه التجهيزات فعمل عدة قدور من ذهب وفضة ونحاس تحمل على اليخاتي ويُطبخ فيها، وجهز من الأوز ألف طائر ومن الدجاج ثلاثة ألاف طائر[٦٠] وحرص خلال رحلة الحج ذاتها أن يبذل الجهد الجهيد لمرضاة السلطان الناصر فحصل على ما أراد إذ كان من أمارات ذلك الرضا أن ولاه السلطان شرف الإشراف على حج إحدى زوجاته بل وأقربهم إلى قلبه الخوند طغاي[٦١] التي خرجت للحج عام ٧٢١هـ / ١٣٢١م في صحبة القاضي كريم الدين الكبير قائماً عليها متعهداً لها بالرعاية حتى أنه كان يتلمس الأطعمة التي تشتهيها مثل أصناف البقول الطرية والجبن المقلي الساخن، ولم لا وكان قد اصطحب معه الأبقار الحلابة والخضر في مزارعها بالطين على ظهور الجمال[٦٢].

عضدت تلك الأفعال من مكانة القاضى كريم الدين الكبير لدى السلطان محمد بن قلاوون إذ خلع [٦٣]عليه أكثر من مرة منذ عام ٧٢٠هـ / ١٣٢٠م إذ

ألبسه أطلسية وهو الأمر الذي لم يحدث من قبل لشخص كان ذات يوم موضع اتهام [٦٤]– لقيامه على راحة السلطان في رحلة حجه، ثم خلع عليه أخرى بذات العام لحسن استقباله لخوند دُلَينيه زوجة السلطان[٦٥]، أما أخر خلع السلطان فكانت أطلس بطرز زركشي وكلفتاه زركشي وحياصة [٦٦] ذهب وكانت تلك الخلعة سبباً في حقد الأمراء عليه[٦٧] ؛ كما تنوعت هبات السلطان لكريم الدين الكبير فأمر له بدار ببركة الفيل[٦٨] حتى يكون قريباً منه وتقديراً لدوره في إنهاء المشكلة القضائية حول الأرض الموقوفة ببركة الفيل وكذا إسهامه في إقامة العديد من المنشآت المعمارية في تلك الفترة.

وتجلت مظاهر رضا السلطان أن سمح للقاضى كريم الدين الكبير بالدخول إلى قاعة حريمه وذلك أن خوند طغاي أرسلت إلى كريم الدين الكبير في طلب لها ولما لم تستطع خزندارة خوند شرح ما تريد قال له السلطان "يا قاض أدخل إليها أبصر ما تريده – افعله" فقام ودخل إليها، ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل طلب السلطان من الخوند طغاى ان تجهز الطعام لهما وقام السلطان بنفسه وقطع العنب وأزال عنه الغبار قائلاً لكريم "يا قاض كل من عنب دورنا"[٦٩].

وتجلت تلك المنزلة حين فوضه السلطان الناصر فى احد الأيام بأن يخلع هو على الأمراء نيابة عنه فيذكر الصفدى " إِن السُّلْطَان نزل يَوْمًا من الصَّيْد فَقَالَ لَهُ يَا قَاضِي إعرض أَنْت صيود الْأُمَرَاء فَإِن لي ضَرُورَة وَدخل الدهليز ووقف القَاضِي كريم الدّين على بَاب الدهليز وَكَانَ الْأُمَرَاء يحْضرُون صيودهم على طبقاتهم بَين يَدَيْهِ وَهُوَ يخلع عَلَيْهِم على طبقاتهم وَاحِدًا بعد وَاحِد " وتلك الحادثة تشير إلى الثقة الكبيرة والعلاقة الوطيدة بين السلطان والقاضى كريم الدين [٧٠].

ومع كل تلك الثقة التي أولاها السلطان للقاضى كريم الدين الكبير أصبح هو ضمير السلطنة اليقظ حتى روي أن السلطان إذا أراد فعل شىء من السوء ثم حضر القاضى كريم الدين الكبير تراجع السلطان وهو يقول "جاء القاضى وما

يدعنا نعمل ما نريد" ولذا قيل أن مدة حياته لم يقع من السلطان إلا خيراً [٧١]، وهو ما حدا بالسلطان أن يسلمه مفتاح بيت المال والخزائن فإذا أراد السلطان منها شيئاً كان يرسل مملوكاً ليحضر له ما يحتاج إليه [٧٢] .

علاقة كريم الدين بالأمراء والعامة :

بلغ من مكانة كريم الدين في تلك الفترة أن الأمراء كانت تركب في خدمته بالإضافة إلى سبعين مملوكاً[٧٣]، وسعى الجميع إلى كسب وده من أمراء ومماليك ومصريين (سواء المسلمين أو النصارى) وحيث ينظر إليه باعتباره الصاحب للسلطان والساعد الأيمن له [٧٤].

وأصبح من كان كريم الدين يقف على بابهم بالأمس – مثل القاضى فخر الدين – ليمشى في ركبهم ويطلع إلى القلعة تبدل بهم الحال ليقفوا هم على بابه يطلبون وده ورضاه بل والوقوف على خدمته[٧٥]، وانقسم الأمراء على كريم الدين بسبب تلك المكانة فكان منهم من يقف إلى جواره يؤيده ويشد من أزره وفي مقدمتهم الأمير يكتمر الساقى[٧٦]. أما القسم الأخر فهم من عملوا على إزاحة كريم الدين الكبير عن مكانته التى بلغها بالقصر وكان على رأسهم الأمير قطلوبغا[٧٧] أما أبرزهم فكان الوزير ابن الغنام – إذ كان لكريم الدين الكبير دوراً في خروجه من الوزارة بل وإيقاع الحوطة عليه وفيما بعد ضربه ستين عصا عام ٧١٣هـ / ١٣١٣م وحدث ذلك بسبب أن ابن الغنام حَصل بدمشق أموالاً من المصادرين ولم يحمل منها إلى السلطان إلا ما قل وبعد أن أفرج عنه عاد إلى نظر الدواوين فلم يستقر فيها وقتا وظل بدون منصب فصار يتحين الفرصة للإيقاع بين السلطان وكريم الدين الكبير، و حاول إيغار صدور قواده ضده بأن أشاع أن كريم الدين يستولى على الأموال السلطانية ويقوم بتوزيعها على مماليك السلطان ليقترب منهم ومن السلطان، إلا أن تلك المحاولة جاءت في وقت كانت فيه العلاقة بين السلطان وكريم الدين كأفضل ما يكون وهو الذى

يستأنس برأيه فيما عظم أو صغر – فعرض السلطان على كريم الدين مقولة ابن الغنام فيه ليتبدى في تلك الحادثة ذكاء كريم الدين الكبير إذ حدث السلطان "هو يا خوند معذور فإنه قد بطل ولابد له من شغل يأكل فيه صدقة السلطان" لتجد النصيحة طريقها إلى عقل السلطان ليرسم بتولية ابن الغنام ناظرا على طرابلس"(٧٨) وما ذاك إلا دليل على رجاحة عقل كريم الدين الكبير ورأيه السديد محل قبول السلطان، ولم تكن الحادثة الوحيدة بين الإثنين إذ قام السلطان عام ٧٢٠هـ / ١٣٢٠م بعزل ابن الغنام من منصبه فبعث له كريم الدين الكبير بهدية حسنة(٧٩) كدليل على التقدير واتصال الود.

ولم يسلم كريم الدين الكبير من محاولات بعض الأمراء الآخرين تأليب السلطان عليه والإيقاع بينهما إذ حدث أثناء تعرض البلاد لإحدى الأزمات الاجتماعية بين المسلمين والنصارى عام ٧٢٠هـ وكانت الوزارة في العصر المملوكي تعرف باسم وزارة الأقباط (٨٠) – واحتدم الصراع وتدهورت الأحوال بين الطرفين، وفي إحدى الجلسات التي عقدها السلطان الناصر محمد بن قلاوون مع الأمراء للوقوف على حل للأزمة أشار عليه الأمير أقوش نائب الكرك (٨١) أن يعزل الكتاب النصارى لأن المسلمين قد أبغضوهم(٨٢) ولعل في ذلك إلماح إلى القاضى كريم الدين الكبير في المقام الأول لاسيما مع الدور الذى لعبه في تلك الأحداث بيد أن السلطان ما كان ليقبل مثل هذا الاقتراح فجاء الرفض تأكيداً على مكانة كريم الدين الكبير.

أما عن علاقة القاضى كريم الدين الكبير بعامة الشعب من المصريين سواء المسلمين أو النصارى فكانت علاقة متناقضة تجمع بين الود والمحبة تارة والكراهية تارة آخرى، فمن ناحية الود فإن المصادر العربية تشير إلى ما كان ينفقه كريم الدين الكبير من الصدقات على العامة ليس في مصر وحدها بل والشام أيضاً وأية ذلك أن امرأة رفعت إليه شكوى وتطلب إزاراً فمنحها ثمانمائة درهم لكن الصراف أنكر عليها هذا المبلغ الكبير وعرض الأمر على كريم الدين

الكبير مرة آخري وأوضح له أن ثمن هذا الإزار ثمانين درهم فقط فما كان رده إلا أن قال ما أردت إلا ثمانين ولكن أراد الله الثمانمائة [٨٣]، ومن مكارمه مع العامة أنه اكتشف أثناء مراجعة الأموال مع صرافه إيصالات للصرف ليست بخط يده فأجتهد حتى أوقع بمن زور توقيعه على تلك الوصولات فلما عرف منه أن الحاجة هي التي دفعته لذلك لم يزد إلا أن طلب منه أن يرفق به في المال الذي يحتاجه قائلاً "أرفق فإن علينا كلفاً كثيرة" [٨٤]

وإذا كانت تلك المكارم قد صرفت تلقاء العامة ففي ذات الوقت يذكر له الشيوخ والقضاة فضله وكرمه سواء ببذل المال أو الجهد وفي ذلك ما كان بينه وبين الشيخ صدر الدين الوكيل الذى أتاه ليلة عيد إلى داره فقيراً بطلب مسألة ولم يكن الشيخ يملك إلا القليل من المال فمنحه لذلك الفقير ثم أرسل غلامه إلى كريم الدين الكبير ليهنئه بالعيد فأغدق عليه كريم الدين بألفي درهم للشيخ وثلاثمائة درهم للغلام [٨٥]، ويُذكر لكريم الدين الكبير كثرة تردده على مجالس الشيوخ للاستزادة من علمهم وقيل أنه سمع صحيح البخارى لدى الشيخ ابن الشحنة[٨٦] كما سمع للشيخ ابن سيد الناس[٨٧] وكان يقضى أشغال الناس في مجلسه[٨٨].

فقال فيه الشيخ جمال الدين بن نباتة المصرى[٨٩] :

يا كريما قد وافق الاسم بالفعل ...و أنس فى الفضل كل قديم

لاتخف نبوة الحوادث فالله ... كريم يحب كـــل كـــريم

وكان القاضى كريم الدين الكبير كأحرص ما يكون على قضاء مصالح العامة ودفع الظلم عنهم حتى أنه اتخذ موقفاً ضد ابن أخته كريم الدين الصغير ناظر الدواوين[٩٠] حين أراد المبالغة في مصادرات المصريين و الأمراء ومنعه عن ذلك وهو ما أستاء منه كريم الدين الصغير وشكاه عدة مرات للأمير أرغون النائب بأنه يمنعه من تحصيل مال السلطان[٩١]، وكانت تلك الأحداث وغيرها

كافية لينال كريم الدين الكبير حب العامة فإذا ما شاع عام ٧١٧هـ / ١٣١٧م خبر كاذب بوفاته عمت الأحزان بالقاهرة وجزع الناس لسماعهم ذلك الخبر ولكن سرعان ما تبدلت تلك المشاعر إلى الفرح بخروجه على الناس نافياً الخبر فزينت القاهرة وأوقدت الشموع(٩٢).

وفي عام ٧٢٣هـ / ١٣٢٣م ألمت به وعكة صحية فكأن القاهرة بأمرائها ومماليكها وشعبها قد حضروا لزيارته حتى قيل أنه "جمع كل ورد القاهرة وحمل إلى داره عم القاعة وعم الدهاليز، حتى فرش منه على ملاقى بيت الخلاء وأخذ منه الناس ما قدروا عليه، ثم إن العبيد أخذوا ما بقي من ذلك الورد فباعوا بعشرة دنانير" (٩٣) ولعل في هذا الوصف ما يدل على مشاعر الحب والوفاء لهذا الشخص حتى ولو كان هناك سبب آخر لذلك الاهتمام بكونه أحد أهم رجال السلطان، فلقد كان يوم خروجه إلى الناس بعد تمام شفائه يوماً مشهوداً للقاهرة إذ أُشعل ما يزيد عن ألف وستمائة شمعة وزُينت له المدينة وخرج الناس في الطرقات واجتمع الكثير منهم بالمدرسة المنصورية لأخذ الصدقات التي وزعها شكراً لله على نعمة الشفاء حتى مات بعضهم من شدة الزحام(٩٤)، وخلع على الأطباء وأخرج أهل السجون وتصدق بأموال جزيلة(٩٥)، ونظم فيه أحد الشعراء قوله

أمط بالدواء ثياب الأذى ٠٠٠٠ وطب فى الرواح به والغدو

وكرر أحاديث بيت الخلا ٠٠٠٠ ولكن على رغم أنف العدو

بيد أنه مع كل مشاعر الحب والود تلك من العامة كان هناك ما يؤرق حياة كريم الدين الكبير في بعض الأحيان إذ لم ينس بعض العوام له أنه كان يوماً على دين النصارى وأنهم أهله إذ كانت تظهر تلك المشاعر مع تجدد أي نزاعات بين المسلمين والنصارى فكانت البداية مع سماح كريم الدين الكبير للنصارى باستعارة بعض مصابيح المساجد لأحياء أحد الأعياد الدينية بالكنيسة المعلقة(٩٦)، فعمد البعض إلى إشعال نار الفتنة لهذه الواقعة وذهب بعض المشايخ

ليستردوا المصابيح من النصارى وما أن عرفوا أن الاستعارة تمت بموافقة كريم الدين الكبير حتى ازداد حنقهم عليه فاجتمع نفر منهم بقيادة الشيخ نور الدين بن علي البكرى[٩٧] قاصدين السلطان الناصر للشكوى من تلك الواقعة ودار بينهما حوار طويل كانت خاتمته صعبة على الطرفين إذ نعت الشيخ نور الدين السلطان بأنه "سلطان جائر لأنه ولي القبط المال"، وكان من طبيعة السلطان الناصر أنه لا يقبل أن يتجاوز أحد في النقاش بين يديه إلى هذا الحد، كما أنه لا يسمح بقول ما يمس صاحبه كريم الدين فعاقب الشيخ على تلك الواقعة أشد عقاب وانتهى الحال بعد مفاوضات إلى خروجه من مصر[٩٨].

وكان النصارى بمصر قد وجدوا في كريم الدين الكبير بالفعل ملجأ فيما يعترضهم إذ رفعوا إليه الشكوى مما رأوا أنه سوء معاملة من الشيخ القاضى ابن الحريرى وما استتبعه من قسوة عليهم – وهو الذى استطاع كريم الدين إزاحته عن القضاء أثناء مشكلة أرض الوقف ببركة الفيل – واستنجدوا به مرة أخرى عام ٧١٨ه / ١٣١٨م أثناء قيامهم بتجديد كنيسة بربارة [٩٩] بحارة الروم بموافقة السلطان لكنهم زادوا عليه ترميم مبنى بجوار الكنيسة وهو ما أثار غضب المسلمين فعمدوا إلى ذلك المبنى فهدموه وبنوا محراباً باعتبار أن ذلك المبنى لا يخص النصارى، وهو ما أثار غضبهم ولجئوا إلى كريم الدين الكبير خاصة بعد اتخاذ المسلمون من المحراب مكاناً للصلاة بجوار الكنيسة ولم يخذلهم كريم الدين إذ رفع الأمر للسلطان فأمر بهدم المحراب[١٠٠].

وببلوغ الأحداث والوقائع بين المسلمين والنصارى ذروتها عام ٧٢٠هـ / ١٣٢٠م إذ اندلعت بالقاهرة حرائق عدة وتصايح الناس باتهام النصارى بتدبيرها كرد فعل للأحداث السابقة ثم ما لبس أن قبض على اثنين منهم واعترفوا بإشعال النار، هنا برز دور كريم الدين للعمل على وضع حد لتلك الأحداث فأشار على السلطان بالتحاور مع البطريرك كبير النصارى لحل الأزمة فأقره السلطان على

ذلك فأرسل في استدعائه وحضر البطريرك حنا التاسع (١٠١) إلى كريم الدين الكبير وقدم اعتذاره وشرح له أن من قام بتلك الأفعال ما هم إلا مجرد سفهاء وأنهم فعلوا كما فعل سفهاء من المسلمين من قبل، بيد أن حُسن استقبال كريم الدين الكبير للبطريرك وخروجه بنفسه لتوديعه أثار حفيظة بعض العوام من المسلمين حتى صاحوا في وجهه "ما يحل لك يا قاضى تحامى النصارى وقد أخربوا بيوت المسلمين وتركبهم البغال"، ونتيجة لهذا الغضب أوقع السلطان بالجناة من النصارى أشد عقوبة، إلا أن العامة لم تهدأ ووصل الحال أن قام بعضهم بقذف كريم الدين الكبير بالحجارة ولما بلغ السلطان تلك الواقعة استشاط غضباً لما وقع بصاحبه وأقسم بضرورة حضور من ارتكب هذا الجرم فقبض في تلك الحادثة على أناس كثر أمر السلطان بقتلهم جميعاً، لكن كريم الدين الكبير سأله العفو عنهم حتى أنه قَبّل قدم السلطان والأرض تحت قدميه استرضاء له بعد كل الذى فعله السلطان لأجله، وما زال به ألا تقطع أيديهم ولا يصلبوا حتى عفا عنهم، فلم يكتف كريم الدين الكبير بالشفاعة وإنما أعطى لكل واحد منهم عشرة دراهم وعشرة فلوس وقميصاً (١٠٢) محاولاً بذلك استرضاء العامة الذين ما برحوا يذكرون له أصله القبطى وحسُن معاملته للنصارى في ظل تأجيج بعض الأمراء لمشاعر العامة ضد كريم الدين(١٠٣).

وقد ألقت تلك الحادثة بظلالها على حياة القاضى كريم الدين الكبير إذ يقول أيبك الداوادارى معلقاً على أثارها "كان أول بدو خمول القاضى كريم الدين الكبير" إذ بدأ الأمراء في العمل على إفساد العلاقة بينه وبين السلطان فقد استغل الأمير أقوش تلك الأحداث ليشير على السلطان بعزل الكتاب النصارى ولعله كان يلمح في ذلك إلى كريم الدين ذاته – إلا أن هذا الأخير بدهائه السياسي استطاع أن يقنع السلطان أن هذا الأمر من الصعب تحقيقه في ذلك الوقت لأنه سيؤدى إلى فساد الأموال وتعطل المصالح لما لكُتاب النصارى من خبرة في شئون الدواوين (١٠٤). رغم ذلك حافظ كريم الدين الكبير على قربه من السلطان

وفي ذات الوقت ازدادت ثروته وجمع مالاً عظيماً حتى قيل عن داره أنها عبارة عن بيوت الأموال(١٠٥) ؛ وأن إحدى السفن قد غرقت في طريقها إلى اليمن عام ٧١٨هـ / ١٣١٨م وهي تحمل تجارة لكريم الدين وصلت قيمتها إلى مائة ألف دينار(١٠٦) وساعدته أمواله في إظهار الكرم إذ كلما دخل البيمارستان المنصورى تصدق بعشرة ألاف درهم(١٠٧) وسعى إلى إنشاء وتعمير المساجد فيما بين مصر والقدس ودمشق ومن مساعيه في الخير أن عَمر في طرق الرمل والبيارات وأصلح الطرق وإحترم العلماء (١٠٨).

وروى عن مروءته انه كان كل عام فى اشهر رجب وشعبان ورمضان يخرج من كان محبوسا فى السجون وإن كان أحد عليه دين أوفاه عنه ومن كان عليه قضية بغرم موجع أحضر الغريم ليسترضيه بكافة السبل حتى يتوصل إلى الإفراج عن المحبوس (١٠٩)

الإ ان ذلك الفعل نظر إليه النويرى على انه من شرور كريم الدين إذ ذكر أنه يرسم بأن يصالح أرباب الديون على مالهم فى ذمة من اعتقلوه، ويفرج عنهم، فيطلب المعتقل ومن اعتقله، ويسأل رب الدين عن دينه، ويلزم بإحضار وثيقته، فإن اعتذر عن إحضارها رسم عليه حتى يحضرها، فإذا أحضرها أخذت منه، وأمر أن يصرف له عشر مبلغها، أو أقل منه، أو أكثر بيسير، فإن رضى بذلك وإلا قطعت وثيقته، وأفرج عن المعتقل، ويرسم فى بعض الأوقات على بعض أرباب الديون حتى يشهدوا عليهم ببراءة غرمائهم فإذا تكامل ذلك أمر كريم الدين أن تغلق أبواب السجون الحكمية، ويمنع نواب الحكام من سماع الدعاوى فى الديون الشرعية، فتعطلت الأحكام الشرعية، وتضرر الناس، وكان هذا الفعل من أشد ما فعله، ولا يتجاسر أحد أن يذكر ذلك له، ولا يعيبه عليه، حتى صار المنكر لذلك ينكره بقلبه، وهو أضعف الإيمان(١١٠).

وكان يهب لنجدة ومساعدة من يطلبه حتى أصبح حاضراً في أحاديث

العوام والشيوخ والأمراء إلا أن البعض ممن لم يعجبهم إتصافهم بتلك الصفات الحسنة أشاعوا "أنه لا يساعد إلا من يخشى منه" فلما وصلت المقولة إلى مسامعه فإختزنها في نفسه حتى إذا دارت الأيام دورتها قال بعد أن قدم لأحدهم المساعدة "أنا لا أرجوك ولا أخافك"(١١١) .

مرحلة الإنكسار والإساءة :

كانت تلك الخصال والكرم سبباً آخر للأمراء للإيقاع بين كريم الدين الكبير والسلطان بعد أن ظل يقف بقربه من السلطان حائلاً بينه وبينهم فإستغلوا ما عرفوا من شخصية الناصر محمد بن قلاوون من أنه لا يثق بأحد وخاصة من إزداد شأنه وماله وجمع معه حب الناس – ولعل تلك الصفات قد إكتسبها السلطان مما مرَّ به من توليه السلطنة عدة مرات والغدر به وخلعه فكان دائم التوجس والريبة وأكسبه الخبرة في التخلص من الأمراء بإتباع سياسة الإنتقام الهادىء البطىء(١١٢)، فكان يغدق على من يريد أن يتخلص منه المال الوفير والهبات والخلع حتى إذا ما شعر بالأمان الكامل تجاه السلطان أخذه على حين غرة، وهو ما كان يعلمه كريم الدين الكبير ذاته إذ كان يرسل للأمير المنح والخلع مع كريم الدين في الصباح ثم يلقى القبض عليهم بالمساء ويصادر أموالهم (١١٣) ؛ فلذلك قيل عن العلاقة بين السلطان ومن يرضى عنهم ويغضب عليهم "كالشمس على بقاع الأرض حيث طلعت عليه أينع وأزهر وأنور وأقمر وحيث غابت عنه دثر ولم يكن له أثر"(١١٤) .

بدأ الأمراء في إيغار صدر السلطان الناصر محمد بن قلاوون ناحية كريم الدين الكبير بأنه استخدم سلطانه في جمع المال ثم يغدق به على المماليك لإستمالتهم إليه وكسب ودهم ويصرفه على الناس فيظهر في صورة الرجل الكريم (١١٥)، وفي الوقت الذى يجمع فيه الأموال لنفسه فإنه يقف حجر عثرة في جباية أموال السلطان وأية ذلك وقوفه لكريم الدين الصغير في جمعه لمال السلطان بالمصادرة، وتصادف أن شاهد السلطان بعض الأمراء يرتدون الملابس

الفاخرة المزركشة فكلما سأل أحداً منهم عن مصدر تلك الملابس يأتيه الردُّ بأنها خلع من كريم الدين الكبير – وذلك لكثرة ما خلعه عليهم كريم الدين الكبير أثناء زيارتهم له في مرضه.

وزاد الأمر صعوبة أن أحضر بعض من عرب البحرين خيولاً للسلطان وكانت باهظة الثمن وظن السلطان أن كريم الدين الكبير لن يدفع ذلك المبلغ دفعة واحدة إلا أنه بهت عندما سألهم عما إذا كان كريم الدين قد أبقى لهم شيئاً فكان ردهم "أن كريم الدين عنده مال في خزائنه إذا أخرج منه مدة شهر ما يفرغ" واستثار ذلك الرد غضب السلطان وأفضى بذلك لبكتمر الساقي وشاكياً من أنه كلما طلب من كريم الدين الكبير مالاً رد عليه بقوله "ما تَمَّ حاصل"(١١٦).

فلما مضت الأيام بدأ السلطان يكشف عن الفصل الأخير من علاقته بالقاضي كريم الدين الكبير بل وفي حياة كريم الدين كلها فأصدر مرسوماً بالقبض عليه عام ٧٢٣هـ / ١٣٢٣م (١١٧) ومصادرة أمواله وكان قد تحدث عن هذا الأمر مع أرغون النائب قبل تلك الواقعة بأربع سنوات(١١٨)، وربما يعزو ذلك إلى ما بدأ السلطان يستشعره من قلق تجاه كريم الدين الكبير على سلطانه إذ أصبح يملك المال ودان له المماليك والأمراء بالطاعة وأظهر له الناس الحب حسب ما ظهر في شدة مرضه وشفائه إذ عاده الكثير وتزينت له القاهرة بالشموع ونثر عليه التجار الذهب والفضة (١١٩) كعادتهم مع السلاطين.

وكان من دليل ما بلغه لدى الناس أن نظم فيه بعض الشعراء قصائدهم فكتب إليه شرف الدين القدسي(١٢٠):

إذا ما بار فضلك عند قوم ... قصدتهم ولم تظفر بطائل

فخلهم خلالك الذم واقصد ... كريم الدين فهو أبو الفضائل

وجرى القبض على كريم الدين الكبير وابنه علم الدين وظلا يُنقلا من مكان لأخر حتى استقر به الحال بسجن خاص بالمصادرين بباب القرافة (١٢١) ثم

أفرج عنه بعد ذلك ولكن ألزم بالإقامة في بيته بالقرافة ثم نقل إلى الشوبك ثم إلى القدس ومنها أعيد إلى مصر في عام ٧٢٤ه / ١٣٢٤م إلا أن الناس اجتمعوا حوله فأُرسل إلى أسوان ولما استقرّ كريم الدين بثغر أسوان أمر السلطان أن يرتّب له ولولده فى اليوم السابع والعشرين من كل شهر ستمائة درهم وستة أرادب لنفسه، ولولده عبد الله مائة درهم وإردبان [١٢٢] ليجده الناس مشنوقاً بعمامته في ذات العام [١٢٣].

وفاته :

إختلفت الأراء حول موته هل انتحر أم أنه قتل ولكن الشعور الذي ساد بأنه قد قُتل على عادة أنها إحدى الوسائل المعروفة للتخلص من الشخصيات المهمة في العصر المملوكى بالإضافة إلى ذلك فإنه قد مات مرتدياً عمامته وختم حياته بالصلاة ركعتين قال بعدها "هاتوا عشنا سعداء ومتنا شهداء" [١٢٤] وفى تلك المقولة الدليل على أنه قُتل ولم ينتحر.

ومما يُذكر عن كريم الدين الكبير أنه على الرغم مما حاق به من أذى فإنه لم يتخل عن صفاته الكريمة فيروى أن أحد مماليك الأمير بكتمر الساقى فقد منه حياصة ذهب وهدده بكتمر أنه إن لم يحضرها سيرفع الأمر للوالى لقطع يده بتهمة السرقة، فلجأ هذا المملوك إلى كريم الدين الكبير فوعده بالتدخل لحل المشكلة ومساعدته ولكن في اليوم التالى قبض على كريم الدين وبعد الإفراج عنه ذهب إليه المملوك فمنحه حياصة ذهب ووهبه مالاً كثيراً فلما بلغ ذلك الأمير بكتمر الساقى لطم على وجهه وقال "يا مسلمين مثل هذا يُمسك؟"[١٢٥]، ذكرته العامة بعد موته بقولها "ما عمل أحد مع أحد ما عمله السلطان مع كريم الدين أعطاه الدنيا والأخرة".

وقد أفاضت المصادر في وصف الثروة التى خلفها كريم الدين الكبير وراءه إذ نُقلت أمواله. روي أن أمواله نُقلت إلى باب القلعة على البغال فكان أولها بباب بيته وأخر بباب القلعة وحمل على الأقفاص ملء مائة وثمانين قفصاً

في ثلاثة أيام، وفي كل يوم ثلاث دفعات أو دفعتين بخلاف الأشياء الفاخرة التي لا يؤمن نقلها إلا مع الخدام، ومن النقود صودر ثمانون ألف قنطاراً ومن صناديق العطر والمسك واحد وأربعون صندوقاً[١٢٦].

وبعد وفاة كريم الدين الكبير ضيق السلطان الخناق على ولده علم الدين واعتقله حتى إعترف بمخبأ باقى الأموال والذهب وكانت مخبأة بدهاليز في بيته ووجدوا من الذهب مئتين ألف دينار ومن الفصوص ما لا يحصى[١٢٧].

ولعل في حفظ كريم الدين الكبير لماله على هذه الصورة ما يدل على إحتياطه من غدر السلطان به لاسيما وأنه يعلم طباعه مع المقربين منه – وفي سبيل مصادرة كافة أموال كريم الدين الكبير أرسل السلطان فى طلب ابن الغنام من دمشق – وهو معروف بعدائه الشديد لكريم الدين كي يتولى أمر تلك المصادرة وإعادة الأموال إلى بيت المال وخزائن السلطان وقال له "ما تركتك في القدس مدة سبع سنين إلاَّ ذخيرة، خبأتك لهذا اليوم"[١٢٨].

وقيل انه لما تحقق الناس من موته، وعلموا طلب السلطان لولده خشى من كان عنده وديعة له أن يعترف عليهم ولده حين وصوله، فظهر من ودائعه جملة عظيمة منها ما أحضره الأمير علاء الدين على بن هلال الدولة[١٢٩] ذهب مصكوك بثمانية عشر ألف دينار، ومصوغ، وزركش وجوهر قيمته اثنا عشر ألف دينار، أحضر صارم الدين أستاذ دار كريم الدين– وهو الذى كان استاذ دار الأمير علم الدين سنجر الجاولى– صندوقا كبيرا ضمنه من الجواهر والحوايص المجوهرة والفصوص وغير ذلك ما قيمته– فيما قيل– مائة ألف دينار، وقيل أكثر من ذلك[١٣٠]، وقد اعترف ابنه علم الدين – بعد وفاة والده – بأن له مال عند شمس الدين غربيال ناظر الشام يبلغ مقداره حوالى أربعين ألف دينار يتجر له فيها[١٣١] فمن المعلوم أن كريم الدين الكبير كانت له تجارته الخاصة في مصر واليمن وبلاد الشام

وقد برر البعض ثراء كريم الدين الكبير بأنه تحصل عليه بأساليب غير مشروعة وأنه اعترف أن ساير الأملاك التى أنشأها وابتاعها وما وقفه كان قد اشتراها وعمرها من مال السلطان دون ماله ؛ وروى أنه استغل منصبه فى التجارة حتى منع التجار أن يتجروا فى الاصناف التى يحتكرها ثم صار يفرض عليهم السعر فيما يحتكره من تلك الاصناف ويبعهم الردئ بسعر الجيد ؛ وأنه كان يأخذ الفلفل من تجار الكارم بأقل من قيمته بميناء عدن ثم يجبرهم على حمله لصالحه الى الاسكندرية (١٣٢).

وأشيع عنه قبوله الرشوة و الهدايا إلا أننا نجد بعض الإشارات التي تدل على أنه كان يرفض قبول الهدايا(١٣٣) خاصة من الأمراء والنواب ففي عام ٧١٨هـ / ١٣١٨م قدم الأمير تنكز نائب دمشق هدايا عديدة لكريم الدين الكبير أثناء زيارته لدمشق إلا أنه لم يقبل منها إلا فرساً واحداً ورد باقيها، كما عاود ذلك المشهد مرة أخرى عام ٧٢١هـ / ١٣٢١م برفضه الهدايا منه ومن بعض الناس بل منحهم هو الصدقات(١٣٤)، فيما شهد له عبدالله بن أيبك الدواداري قائلاً بأن "كان فيه عفة عن الأموال السلطانية، وكان صاحب متجر وزرع وغيره"(١٣٥) وقال عنه الصفدى ما سمعت عنه بالديار المصرية إلا كل مكرمة غير الأخرى يبتدع فعلها ولم نسمعها من غيره حتى أنه شبه بالبرامكة (١٣٦).

وعلى الرغم من إختلاف المصادر حول شخصية كريم الدين الكبير إلا أنها اجتمعت على أنه صاحب شخصية قوية ورأى ثابت لا يتزعزع فإن قال نعم فهي نعم وإن قال لا فهي لا (١٣٧)، وكان لا يتكلف في ملبس ولا زي وكان عاقلاً وقوراً بعيد الغور يتصف بالسماحة والجود ذو أدب جم (١٣٨) يوقر رجال الأديان وعلمائها(١٣٩) وأصبح مضرب الأمثال في الصفات الحسنة والكرم حتى شبه بكرمه ناظر الشام شمس الدين غربيال (١٤٠) .

لكن تلك الصفات لم تمنع البعض من أن يرفضه شكاً في صدق إسلامه إذ قيل عنه

اللعب بالدينين يقبح الفتى والرأي صدق القلب والتسليم

هذا كريم الدين لولا نصره دين النصارى مات وهو كريم

وذلك لما عُرف عنه وقوفه إلى جانب النصارى في دفع ما يقع عليهم – وقد أنكر ابن الوردي في تاريخه هذا الوصف على كريم الدين الكبير بقوله "لعمرى ما أُنصف كريم الدين" (١٤١) – وقيل كذلك "راح كريم الدين من الدنيا على أقبح وجه وأخرب الله دياره" (١٤٢).

كما أشاع البعض عنه الكبر والإستعلاء مرددين ما حدث له بالبيت الحرام عندما حج مع السلطان الناصر محمد بن قلاوون عام ٧١٩ هـ إذ بعد أن صلى ركعتين داخل الكعبة صعد إلى أعلاه ينظر إلى الخياطين أثناء عمل الكسوة فرأى الناس في ذلك إستعلاء على الطائفين وبينما هو كذلك غلبه النوم فسقط من أعلى الكعبة على رأسه ولولا أن من بالبيت الحرام أنقذه لكانت نهايته في ذلك وإرتفعت أصوات الناس بإظهار قدرة الله في إذلال المتكبرين وقد أُصيب كريم الدين إذ إنقطع ظفره، ولكن ابن تغرى بردى والمقريزى أرادا في تلك الواقعة بذكر أن كريم الدين علم بذنبه وتصدق بمال جزيل وهو ما يدل على أن الاستعلاء ليس صفة فيه(١٤٣).

وفي النهاية فإن ما نُسب إلى القاضى كريم الدين الكبير من نقائص يظل بحثاً في الضمائر وتفتيشاً عن النوايا التى هي ملك لله وحده إذ ليس للناس إلا ما ظهر من أعمال والباطن أمره موكول إلى الله سبحانه وتعالى إذ للناس الظاهر والله يتولى السرائر وكان ظاهر كريم الدين الكبير لامعا بالفضائل و الصفات الحسنة والموت على دين الإسلام أجرى الصدقات وعمر المساجد ونصر المظلوم وأخذ على يد الظالم سواء كان مسلماً أو نصرانياً إذ كانت غايته الاحسان إلى الرعية.

و رثاه الشيخ شهاب الدين أحمد بن غانم بقصيدة مطلعها(١٤٤):

كريم الدين عشت بكل خير ... ومت ممات كل فتى كريم

شهيداً قد درجت بغير ذنب ... ولا إثم يؤثـم للأثـيم

الهوامش :

(١) ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، تحقيق محمد سيد جاد، القاهرة، ١٩٦٦، الجزء الأول، ص ٤٠١

(٢) ذكر بعض المؤرخين أن أباه هو السديد هبة الله بن السديد المعروف بالماعز مستوفى الصحبة بالديار المصرية وخدم الملك العادل الكبير ابن أيوب وأن أخاه هو الأسعد جرجس الذى تولى منصب أبيه بعد وفاته وقد أسلم كهلا .

لويس شيخو : وزراء النصرانية وكنتابه في الاسلام ٦٢٢ – ١٥١٧، حققه وزاد عليه كميل حشيمة اليسوعى، ط لبنان ١٩٨٧، ص ٧٠-٧١ .

ولمزيد من التفاصيل عن هذه الشخصية انظر:

الصفدى : الوافى بالوفيات، تحقيق أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، بيروت ٢٠٠٠م ٢٩ جزء ؛ الجزء ٢٧، ص ١٩٤.

اليونينى : ذيل مرآة الزمان، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٤١٣ هـ – ١٩٩٢ م عدد الأجزاء: ٤، الجزء الرابع، ص ١٧٨، ١٧٩.

(3) -Little (Donald .P): " Notes on The Early Nazer al-khāss," in The Mamluks in Egyptian Politics and Society, pp235-253 Cambridge 1998.

(٤) بيبرس معناها الأمير الفهد، و الجاشنكير: إسم فارسى مركب من لفظين أحدهما "جاشنا" أو "جاش" ومعناه الذوق والثاني "كير" بمعنى المتعاطى أو المتناول ومعناه الذي يتذوق الطعام؛ وهو ركن الدّين، [بيبرس] بن عبد الله المنصوري الجاشنكير. أصله من مماليك الملك المنصور قلاوون وعتقائه، وتنقل في الخدم حتى صار من جملة الأمراء بالديار المصرية. وتولى الأستادارية للملك الناصر محمد بن قلاوون و تسلطن بعد خلع الْملك النَّاصِر فِي عصر يَوْم السبت ثَالِث عشْرين شَوَّال سنة ثَمَان وَسَبْعمائة. وَقيل: فِي ذِي الْقعدَة فِي بَيت سلار، توفى فِي شَوَّال سنة تسع وَسَبْعمائة.

القلقشندى: صبح الأعشى في صناعة الإنشاء – ١٤ جزء – القاهرة – الجزء ٥ – ص ٤٦٠.

حسن الباشا: الفنون والوظائف، ٣ أجزاء، القاهرة، ١٩٦٥ – ١٩٦٦، جزء ١، ص ٣٤٤.

محمد أحمد دهمان : معجم الألفاظ التاريخية فى العصر المملوكى، بيروت ودمشق ١٩٩٠، ص ٤٠.

ابو المحاسن : المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي، تحقيق دكتور محمد محمد أمين ، القاهرة ؛ ج ٣ ص ٤٦٧-٤٦٩

أبو المحاسن : مورد اللطافة في من ولي السلطنة والخلافة ، تحقيق: نبيل محمد عبد

العزيز أحمد، القاهرة، جزءان، ج ٢ ص ٥٨، ٦٢.

(٥) وقعة شقحب (مرج الصفر) بين المسلمين والتتار فى ر مضان عام ٧٠٢ هـ بالقرب من دمشق وانتصر فيها المسلمون انتصارا عظيما وكانت من اعظم المعارك بين الطرفين بعد عين جالوت ، ولمزيد من التفاصيل انظر :

ابن سباط : صدق الأخبار " تاريخ ابن سباط "، تحقيق عمر عبد السلام تدمرى، طـرابلس " لبنان، ج ٢ ص ٥٧٧ – ٥٨٠ .

(٦) لمزيد من التفاصيل حول دخول النصارى في الإسلام في دولة المماليك إنظر:

محمد جمال الدين سرور: دولة بنى قلاوون في مصر "الحياة السياسية والإقتصادية في عهدها بوجه خاص"، القاهرة ١٩٤٧، ص ١١١.

على إبراهيم حسن: دراسات في مصر في عصر المماليك، القاهرة ١٩٦٧، ص ٣٥٠.

(٧) ولى السلطان محمد بن قلاوون السلطنة الأولى في المحرم سنة (٦٩٣هـ – ٦٩٤هـ / ١٢٩٣م –١٢٩٤م) ثم عزل بعد سنة واحدة من حكمه، ثم عاد وتولى السلطنة مرة أخرى في (٦٩٨هـ – ٧٠٨هـ / ١٢٩٨م –١٣٠٨م) ليعتزل ويستقر في الكرك، ثم تولى السلطنة الثالثة (٧٠٩هـ – ٧٤١هـ / ١٣٠٩م –١٣٤٠م)، وكان ملكاً عظيماً مهاباً كريماً أطاعته العباد ودانت له البلاد، عمر قصر الأبلق بقلعة الجبل وأجرى النيل إلى القلعة، وعَمر الجامع والسواقي والمدارس والقناطر وأبطل الكثيرين من المكوس والرسوم، وحج مرتين، وكانت وفاته ٧٤١ه وعمره أنذاك سبع وخمسون سنة ليدفن بمدرسة الناصرية بين القصرين بمصر.

القرماني: أخبار الدول وآثار الأول في التاريخ، تحقيق أحمد حطيط، بيروت ١٩٩٢، المجلد الثاني، ص ٢٨١ –٢٨٢.

السحماوي: الثغر الباسم في صناعة الكاتب والكاتم، المعروف بإسم المقصد الرفيع المنشأ الهادي لديوان الإنشاء للخالدي، تحقيق أشرف محمد أنس، القاهرة ٢٠٠٩م، الجزء الأول ص ٢٣٣ – ٢٤٦.

(٨) هو سيف الدين التترى المنصورى الصالحى كان من مماليك الصالح علاء الدين على بن المنصور قلاوون فلما توفى صار من خاصة المنصور وتولى نيابة السلطنة احدى عشر سنة ثم اعتقله السلطان الناصر حتى توفى سنة ٧١٠ وكان اسمر آدم لطيف أسيل الخد.

الصفدى : الوافى بالوفيات، ج ١٦ ص ٣٣-٣٤

(٩) لقب يطلق على من يتولى قبض المال السلطانى وصرفه وتمثيل أوامر السلطان فيه وهو مركب من لفظين فارسيين : استذ ومعناه الأخذ و دار ومعناه الممسك وقد ادغمت الذال فى الأولى مع الدال فى كلمة دار فصارت استدار و المعنى المتولى للأخذ و ترد فى الكتب احيانا استاذالدار .

محمد أحمد دهمان : معجم الألفاظ التاريخية، ص ١٥.

(١٠) ابن شاكر: فوات الوفيات والذيل عليها، تحقيق إحسان عباس، بيروت ؛ الطبعة: الأولى ٤أجزاء، الجزء: ١ – ١٩٧٣ ؛ الجزء: ٢، ٣، ٤- ١٩٧٤؛ المجلد الثاني، ص ٣٧٧.

(١١) ربما كان ذلك بناء على رغبة الأميران بيبرس الجاشنكير وسلار لأنهما عند سماعهما تلك الطلبات قال بيبرس "أوز مشوي ما يعمل به" ومنع طلبه لحلوى بلوز السكر، وقال سلار "أيش يعمل السلطان بالأوز؟ هو الأكل عشرون مرة في اليوم".

المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، أربعة أجزاء ج١، ٢ تحقيق محمد مصطفى زيادة، ج ٣، ٤ سعيد عبد الفتاح عاشور، القاهرة ١٩٣٩، ١٩٧٦.، جـ ٢، ص ٨١.

ابن شاكر: : فوات الوفيات والذيل عليها، تحقيق إحسان عباس، بيروت، جـ ٢، ص ٣٧٧.

(١٢) هو تاج الدين أبو الفرج بن سعيد الدولة القبطي، كان يقال له أحمد الكاتب، وكان مقدماً عند المظفر بيبرس، عرض عليه الوزارة فإمتنع فجعله مشيراً ولا يصرف شيء إلا بخطة ولا يفعل أمراً إلا بحكمه وكتب لله توقيع لم يكتب لمتعمم قبله، وكانت صحبته لنصر المنجي شيخ الجاشنكير سبب الخير له والمكانة العالية التي حازها عنده، ولم يكن يخالط أحداً أو يقبل هدية، توفي في أوائل رجب سنة ٧٠٩هـ.

ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، جزء القاهرة، جـ ١، ص ٥١٦.

ابن كثير: البداية والنهاية، ١٤ جزء ، القاهرة، جـ ١٤، ص ٥٤.

(١٣) المقريزي: السلوك، جـ ٢، ص ٦١.

(١٤) ليلى عبدالجواد: تاريخ الأيوبيين والمماليك في مصر والشام، القاهرة، ٢٠٠٧، ص ٢٦٣.

(١٥) ابن حجر العسقلاني: الدور الكامنة، جـ ١، ص ٤٠١.

(١٦) سنجر بن عبد الله الأمير الكبير الجاولي ولد سنة ثلاث وخمسين وستمئة بآمد ثُمَّ صار لأمير من الظاهرية يسمى جاولي وانتقل بعد موته إلى بيت المنصور، وتنقلت بهِ الأحوال إلى أن صار مقدماً بالشام ثُمَّ ولي نيابة غزة، ثُمَّ قبض عليهِ في شعبان سنة عشرين اتهم بأنَّهُ يريد الدخول إلى اليمن وسجن بالإسكندرية، وأحبط على أمواله، ثُمَّ أفرج عَنهُ آخر سنة ثمان وعشرين، ثُمَّ استقر أميراً مقدماً بمصر واستقر منهُ أمراء المشورة، ثُمَّ ولي حماة بعد موت الناصر مدة يسيرة، ثُمَّ ولي نيابة غزة فأقام بها أربعة شهور ثُمَّ عاد إلى مصر وقد روى مسند الشافِعي عَن قاضي الشوبك دانيال و توفى عام خمس واربعين و سبعمائة و دفن بتربة الكبش ببركة الفيل وكان على علاقة قوية بكريم الدين . ولمزيد من التفاصيل انظر :

ابن حجر العسقلانى، الدرر الكامنة، ج ٢ ص ١٧٠-١٧٢.

الصفدى : الوافى بالوفيات، ج ١٥، ص ٢٩٢ – ٢٩٣ .

يذكر ابن شاكر نقلا عن الشيخ صلاح الدين الصفدي، حكى لي فتح الدين بن سيد الناس قال: جاء كريم الدين إلى الأمير علم الدين الجاولي وقال: قد جيت إليك فقال: ما في يدي لك فرج، ولكن للسلطان مملوك يقال له طغاي الكبير، وهو لا يخالفه، فأريد أجتمع به وأعرفك ما يكون، ثم اجتمع به فقال: أحضره، وقام دخل على السلطان وهو يضحك وقال له: إن حضر كريم الدين إيش تعطيني؟ ففرح وقال: عندك هو؟ أحضره، فخرج وقال للأمير علم الدين: أحضره، فأحضره، فقال له: مهما قال لك السلطان قول نعم، ودعني أنا أدبر أمرك، ودخل به عليه، فلما رآه استشاط غيظاً وقال له: احمل الساعة ألف ألف دينار فقال: نعم، وخرج، فقال: لا، كثير، احمل خمسمائة ألف دينار، فقال: السمع والطاعة، فقال: لا، كثير، احمل ثلثمائة ألف دينار، فقال: السمع والطاعة، وخرج، فقال له سيف الدين طغاي: لا تسقع دقنك وتحضر الجميع، ولكن هات الآن منها عشرة آلاف دينار، فأتى بها ودخل بها على السلطان، فسكن غضبه، وبقي كل يومين وثلاثة يحمل ثلاثة آلاف دينار ومرة ألفين ومرة ألفاً.

ابن شاكر : فوات الوفيات، ج ٢ ص ٣٧٨.

(١٧) طغاي بن عبد الله الناصري، الأمير سيف الدين (الأمير الكبير الناصري ت ٧١٨ ه

/ ١٣١٨ م). يعرف بطغاي الكبير، كان من أعظم أمراء الملك الناصر محمد بن قلاوون، لم يكن أحد في محله ولا رتبته وكان له مهابة في قلوب الخاصكية ثم انقلب علية الناصر وأخرجه إلى صفد نائباً ثم امر له بنيابة الكرك وكان قد كتب من الباطن بالامساك به فأمسك به عسكر صفد وتوفي بالقاهرة معتقلا أو قتيلاً سنة ثمان عشرة وسبعمائة، وهو الذي عمر الخان المليح بالقصر العيني.

ابن تغرى بردى : المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي، تحقيق دكتور محمد محمد أمين ، القاهرة ، ج ٦ ص ٤٠٨- ٤١٠ .

(١٨) المقريزي: السلوك، جـ ٢، ص٨١ – ٨٢.

(١٩) النويرى : نهاية الأرب في فنون الأدب، ٣٣ جزء تحقيق ، القاهرة ج ٣٣ ص ٣٧.

(٢٠) السيوطى: حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، تحقيق محمد أبو الفضل، القاهرة ١٩٩٨ – ١٤١٨هـ، جـ ٢، ص ١٩٥.

(٢١) النويرى : نهاية الأرب ؛ ج ٣٣ ص ٣٧.

(٢٢) يذكر الخالدى عن ناظر الخواص الشريف بأنها "هي من أجّل الوظائف وأسماها، حدثت في أيام الناصر محمد بن قلاوون حين إنحطت الوزارة عن موضوعها بالنيابة، ولمسئوليها التحدث على جهات القاهرة وثغر الإسكندرية وخمس دمياط وبحيرتها وثغرى تستراوه والبرلس وبحيرتها ومدينة فوه وموجب الكارم، ودواليب الخاص وغير ذلك من حمامات ومستأجرات وقرع منفلوط، ويصرف من متحصل ذلك في ثمن أنواع الخلع والأطرزة والسروج الذهب والكنابيش "ما يستر به مؤخر ظهر الفرس وهو من الذهب المزركش"، وكسوة الحريم والمماليك والضحايا وغير ذلك.

السحماوي: الثغر الباسم في صناعة الكاتب والكاتم، المعروف بالمقصد الرفيع، جزء١ ص ٤١٧ -٤١٨.

ولمزيد من التفاصيل إنظر:

القلقشندى: صبح الأعشى، جـ ٥، ص ٤٦٤.

ابن شاهين: زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، تحقيق بولس داريس، بيروت ١٩٨٨ ص ١٠٧ – ١٠٨.

(٢٣) السيوطى: حسن المحاضرة جـ ٢، ص ١٩٥.

ـ ربما يعزى الغاء السلطان الناصر محمد بن قلاوون للوزارة إلى رغبته الاستئثار بالسلطة والاستبداد بالنفوذ دون تدخل اى من الوزراء فى ذلك واحتمال التآمر عليه

لخلعه وخاصة بعد دور الوزير علم الدين سنجر الشجاعى فى خلعه من السلطنة الأولى عام ٦٩٤هـ/١٢٩٤م .

ولمزيد من التفاصيل عن الغاء الوزارة انظر :

منال محمد السيد : الوزارة فى مصر خلال العصرين الأيوبى والمملوكى، رسالة دكتوراة غير منشورة، جامعة بنى سويف، س ٢٠٠٧، ص ٧٣-٧٤ .

(٢٤) هو إسماعيل بن على " الملك المؤيد عماد الدين أبو الفداء بن الأفضل بن الملك المظفر بن الملك المنصور صاحب حماة تقى الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب أيوب بن شاذى، كان أميرا بدمشق وخدم السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون عندما كام بالكرك فوعده بحماه ووفى له الوعد وجعله صاحبها سلطانا وكان كريما جوادا عالما ، توفى سنة ٧٣٢ هـ و لم يكمل الستين من عمره .

الصفدى : أعيان العصر، ج ١، ص ٥٠٣، ٥١٢ .

(٢٥) ابن شاكر: فوات الوفيات، جـ ١، ص ١٨٣ – ١٨٤.

(٢٦) تنكز: لفظ تركى بمعنى البحر وهو الأمير الكبير المعظم المهيب أبو سعيد سيف الدين تنكز جلب إلى مصر وهو صغير وكان من مماليك حسام الدين لاجين ثم صار من خاصكية الملك الناصر محمد بن قلاوون وأصبح ذومكانة لديه .

ابن شاكر : فوات الوفيات، ج ١ ص ٢٥١.

محمد أحمد دهمان : معجم الألفاظ التاريخية، ص ٤٨

(٢٧) المقريزي: السلوك، جـ ٢، ص٢٣٧.

(٢٨) ابن كثير: البداية والنهاية، جـ ١٤، ص ٩٣.

(٢٩) هي أماكن يخزن بها أصناف كالبهار والأخشاب والحديد وغير ذلك، ويصل عدد الحواصل السلطانية إلى ثمانية وهى الشراب فاناه والفرش خاناه، السلاح خاناه، المركب خاناه المطبخ والطبلخانه والحوائج خاناه وهي جهة تحت يد الوزير – ناظر الخاص – ومنها يصرف اللحم والجند والمتعممين وغيرهم من أرباب الرواتب الذين تملىء أسمائهم الدفاتر.

ولمزيد من التفاصيل:

القلقشندى: صبح الأعشى، جـ ٤، ص ١٢ – ١٣.

ابن شاهين: زيدة كشف الممالیك، ص ١١٢.

البدراوي زهران: في علم اللغة التاريخي، القاهرة، ص ٣٠٣ - ٣٠٤.

(٣٠) ذكرها المقريزى حارة الدليم: وتسمى الدليم والأتراك وهى المعروفة بدرب الأتراك، والوراقون القدماء تارة يردفونها من حارة الدليم وتارة يضيفونها إليها ويجعلونها من حقوقها فيقولون تارة حارة الدليم والأتراك وتارة يقولون حارتين الدليم والأتراك.
المقريزى: مسودة كتاب المواعظ والإعتبار بذكر الخطط والأثار، تحقيق أيمن فؤاد سيد، لندن ١٩٩٥م، ص ٣٣١.

(٣١) درب الرصاص بحارة الدليم: كان يُعرف بحكر الأمير سيف الدين حسين ابن أبى الهجياء صهر بنى زريك من وزراء الدولة الفاطمية، ثم عُرف بحكر تاج الملك بدران بن الأمير سيف الدين المذكور، ثم عُرف بالأمير أيبك الرصاصى.
المقريزى: المواعظ والإعتبار بذكر الخطط والأثار، القاهرة، جـ ٢، ص ٣٦٠.

(٣٢) المقريزي: السلوك، جـ ٢، ص٢٢٩.

(٣٣) ابن حجر العسقلانى: الدرر الكامنة، جـ ١، ص ٤٠٢.
عطية القوصى: المتجر السلطانى في العصر المملوكى - بحث منشور في كتاب المجتمع المصرى في العصرين المملوكى والعثمانى ١٧٥ - ٢١٢ القاهرة، ص ١٩١ - ١٩٢.

(٣٤) يقال أن أصله الكانم "بالنون" نسبه إلى الكانم فرقة من السودان كانون بمصر شأنهم الإتجار في البهار المجلوب من اليمن فعُرف بهم
السحماوي: الثغر الباسم المعروف بإسم المقصد الرفيع، جـ ١، ص ٤١٨.

(٣٥) ابن حجر العسقلانى: الدرر الكامنة، جـ ١، ص ٤٠٢.

(٣٦) لمزيد من التفاصيل عن أهم المنشآت العمرانية في عهد الناصر محمد بن قلاوون إنظر:
مصطفى عبدالله شيحه: أضواء على العمارة الإسلامية، القاهرة ٢٠٠١، ص ١٤٥ - ١٤٨.

(٣٧) طلب السلطان من كريم الدين الكبير "ناظر الخاص" أن يعمل فيها - أي بركة الفيل - أحواش للخيل والجمال وميداناً، وللأمير بكتمر الساقى مثله فقام كريم الدين بنفسه في هذا العمل ولم يدع أحداً من جميع الصناع المحتاج إليهم يعمل في القاهرة عملاً فكان فيها نحو الألفى رجل ومائة زوج بقر حتى تمت المواضع في مدة قريبة وركب السلطان إليها وأمر بعمل ميدان لنتاج الخيل فعُمل.

ولمزيد من التفاصيل إنظر:

المقريزى: المواعظ والإعتبار، القاهرة، جـ ٢، ص ٥٨٤.

آمال العمرى: حركة الحاج خلال العصرين المملوكى والعثمانى، القاهرة.

(٣٨) كانت داراً للأبقار التى يرسم السواقى السلطانية في المكان المعروف (الآن) بجدرة البقر. فيما بين القلعة وبين بركة الفيل – أنشأها الملك الناصر محمد بن قلاوون داراً وإسطبلاً وبستاناً فتولى القاضى كريم الدين الكبير عمارتها وتأنق فيها مبلغ المصروف عليها ألف ألف درهم فضة وعرفت هذه الدار بعد عمارتها بدار الأمير طقتمر الدمشقى، ثم بدار طشتمر حمص أخضر وكان مكانها ينشر فيه زبل الخيل والبقر وعليه ساقيه.

المقريزى: مسودة المواعظ والإعتبار، ص ٤٠٨ – ٤٠٩.

(٣٩) هذه البركة فيما بين مصر والقاهرة وهي كبيرة جداً ولم يكن في القديم عليها بنيان وعمر الناس حول بركة الفيل بعد الستمائة حتى صارت مساكنها أجمل مساكن مصر كلها.

وقد إختلفت الأراء حول سبب تسميتها بهذا الإسم، فهناك رأي بنسبتها إلى رجل إسمه الفيل كان أحد أصحاب أحمد بن طولون وهناك رأى نسبها إلى دار الفيلة، التى كانت واقعة على حافة البركة والراى الثالث يفسر هذه التسمية لوجود فيل كان يسبح فيها ويخرج الناس لرؤيته. ولمزيد من التفاصيل إنظر:

القلقشندى: صبح الأعشى، جـ ٣، ص ٣٦٢.

المقريزى: الخطط، جـ ٢، ص ١٦٢.

ابن دقماق: الإنتصار لوساطة عقد الأمصار، القاهرة جـ ٥، ص ٤٥.

محمد رمزى: القاموس الجغرافى للبلاد المصرية، القاهرة جـ ٢ ق ١، ص ١٥٢، ١٥٣.

(٤٠) محمد بن عثمان بن أبى الحسن، قاضى القضاة شيخ المذهب شمس الدين بن صفى الدين الأنصارى الحنفى ابن الحريرى الدمشقى ولد سنة ٦٥٣ ه ولى القضاء بدمشق ثم القاهرة وكان صارما قائلا للحق ذو وقار وتوفى بالقاهرة سنة ٧٢٨هـ.

الصفدى : الوافى بالوفيات ج ٤، ص ٦٧.

(٤١) المقريزى: الخطط، جـ ٢، ص ٤٠٩ – ٤١٠.

(٤٢) الجوامك مفردها جاميكة وهي الراتب المربوط لشهر أو أكثر وتُصرف للمماليك والأمراء

القلقشندى: صبح الأعشى، جـ ٣ ص ٤٥٣، ٤٥٥، ٤٥٧، ٤٦٠، ٤٧٥، ٥١٩.

حياة ناصر الحجي: السلطان الناصر محمد بن قلاوون ونظام الوقف في عهده، مع تحقيق وثيقة وقف سرياقوس، الكويت ١٩٨٣، ص ٢٤٢.

(٤٣) ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة، جـ ١، ص ٤٠٣.

(٤٤) هدمت المنارة الأولى فى القرن الثالث عشر الهجرى، أما الثانية فقد ظلت باقية حتى سنة فى ١٩٣٣ وذلك لخلل بهما .

حسن عبد الوهاب : تاريخ المساجد الأثرية، القاهرة ج ١ ص ٤٥ .

(٤٥) فى وصف هذا الجامع و عمارته انظر :

وفاء بدر صارم : المساجد المملوكية البحرية – الدمشقية (٦٤٨-٧٨٤ هـ / ١٢٥٠ – ١٣٨٣م) " دراسة مقارنة"، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة دمشق، كلية الآداب والعلوم الانسانية، قسم التاريخ ٢٠٠٤-٢٠٠٥، ص ١٥٨- ١٧٤.

(٤٦) أبو المحاسن: المنهل الصافى، جـ ٧، ص ٣٤٩.

(٤٧) ابن كثير: البداية والنهاية، جـ ١٤، ص ٨٢، ٩٢.

الدمشقى: الدارس في تاريخ المدارس، بيروت، جـ ٢، ص ٣٢١.

(٤٨) مجير الدين الحنبلي :الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل تحقيق : عدنان يونس عبد المجيد نباتة عمان – ١٤٢٠هـ – ١٩٩٩م، ج ٢، ص ٣٩-٤٠

(٤٩) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، جـ ٩، ص ٢٠٠.

ابن أيبك الداوادارى: الدر الفاخر، جـ ٩، ص ٣٨٨.

(٥٠) المقريزى: الخطط والآثار، جـ ٤، ص ٣.

(٥١) وقد عُرف هذا الجامع فيما بين القرنين الحادى عشر والثانى عشر للهجرة بجامع الشيخ العّبيط الذى دُفن فيه وكان أخر تجديد لهذا الجامع على يد الخديوى إسماعيل سنة ١٢٨٥ه ثم هدمته وزارة الأوقاف لتبنى مسجداً مكانه سُمى عمر مكرم تخليداً لذكراه ولمزيد من التفاصيل إنظر:

سعاد ماهر: مساجد مصر وأولياؤها الصالحون – جـ ٣، القاهرة ١٩٧٩، ص ١٠٩ – ١١١.

(٥٢) ابن إياس: بدائع الزهور، جـ ١، ص ٤٥٤.

محمد حمزة : قرافة القاهرة فى عصر سلاطين المماليك، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة القاهرة، كلية الآثار، ١٩٨٦، ص ٨٠.

(٥٣) القلقشندى : صبح الأعشى، ج ١٤، ص ٣٧٧- ٣٧٨.

(٥٤) قام كريم الدين الكبير بعمل مهام عظيمة في جنازة أوجه الأمير سيف الدين طغاى.
المقريزي: السلوك، جـ ٢، ص١٦٥ – ١٧٨.

(٥٥) القاضى علاء الدين الأنير كاتب السهر، ولد عام ٦٨٠ه، وكان من أئمة عصره، كثير البر والمعروف، وعندما عزل الناصر محمد توجه علاء الدين بصحبته إلى الكرك وهناك وعده السلطان الناصر بكتابة السر عند عودته، وقد قام علاء الدين بعقد سلطان الناصر محمد من حفيده جنكيز خان، ثم خلع عليه السلطان بعد ذلك.
ولمزيد من التفاصيل عن دوره في القضاء في العصر المملوكى إنظر:
منى عبدالغنى: القضاء في العصر المملوكى، دكتوراه غير منشورة، كلية الدراسات الإنسانية، جامعة الأزهر، ص ٢٥٩.

(٥٦) عُرف هذا الزواج بالزواج السياسى وذلك لأجل إقامة علاقات ودية بين المماليك ومغول القفجاق – القبيلة الذهبية – وكان ملكهم – أزيك – له شروط مبالغ فيها لإتمام الزواج من الناصر قلاوون، ومع رفض السلطان لهذه المبالغة توقف الحديث في هذا الأمر لكن سرعان ما تغير موقف الملك أزيك وأرسل ابنة أخيه دلنبية عروساً في عام ٧٢٠هـ / ١٣٢٠م للسلطان الناصر محمد لكن الزيجة لم تستمر طويلاً لأسباب متعددة كان أهمها إختلاف عادات الزوجين إلى أن الناصر محمد لم يستطيع الإنفصال عنها بسهولة حتى لا تفسد العلاقات بين الدولتين ولكنه لجأ إلى الحيلة والخدعة حتى أعلن خبر وفاتها ولكن في حقيقة الأمر كان قد طلقها، وظلت في مصر حتى وفاتها عام ٧٤١هـ، ودُفنت بجوار زوجة السلطان خوند طغاى.
ولمزيد من التفاصيل إنظر:
ابن أيبك الداوادارى: الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر، تحقيق هانس روبرت، القاهرة، جـ ٩، ص ٣٠٢.
النويرى: نهاية الأرب جـ ٣٢، ص ٢٥٦ – ٢٥٧، ٢٦٤، ٣٣٥ – ٣٣٨.
المقريزي: السلوك، جـ ٢، ص٢٠٤ – ٢٠٥، ٢٩٨.

(٥٧) المقريزي: السلوك، جـ ٢، ص٢٣٠.

(٥٨) ابن شاكر: فوات الوفيات، جـ ٢، ص ٢٨٣.
أما عن البيمارستان المنصورى فهو أقدم نموذج باق لنظام المجمعات المعمارية التي تضم أكثر من كتلة معمارية تؤدى وظائف تعود بالنفع على من يمتلك المنشأة، حيث يشمل على مارستانا وفيه مدرسة قد قام على إنشاء هذه المجموعة الأمير علم الدين سنجر الشجاعى وذلك في عاك ٦٨٣هـ / ١٢٨٤م بأمر من السلطان منصور قلاوون وهذه المجموعة تقع في شارع المعز لدين الله، وقد ظل هذا البيمارستان يؤدى وظيفته حتى عام ١٨٥٦م حيث تلفت مبانيه وتم نقل ما بقى فيه من مرضى العقول إلى مستشفى العباسية في عام ١٨٨٠م وأصبح قاصراً على معالجة العيون منذ عام ١٩١٥م. ولمزيد من التفاصيل إنظر:
محمد حمزة: السلطان منصور قلاوون، القاهرة، ص ١٢١ – ١٣٩.
محمد أمين: وثائق وقف السلطان قلاوون على البيمارستان المنصورى (ملحق كتاب تذكرة النبية لابن حبيب)، جزء ١، ص ١٩٧٦.
حياة ناصر الحجى: البيمارستان المنصورى منذ تأسيسه حتى نهاية القرن الثامن الهجرى – الرابع عشر الميلادى "المجلة العربية للعلوم الإنسانية" – جامعة الكويت، المجلد ٨، العدد ٢٩، ١٩٨٨.
مصطفى شيحه: أضواء على العمارة الإسلامية.
(٥٩) هو قاضى القضاة بدر الدين محمد بن ابراهيم عماد الدين إسماعيل بن ابراهيم كان قاضى الشافعية في مصر وإستمر في القضاء مدة طويلة إلى أن كف بصره ومات.
الصفدى : أعيان العصر، ج ٢، ص ١٦٠ .
ابن إياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور، خمسة أجزاء، تحقيق محمد مصطفي زيادة،القاهرة ١٩٧٢ -١٩٨٣ م، جـ ١، ص ٤٣٩.
(٦٠) لمزيد من التفاصيل عن رحلة حج الناصرْ محمد وكريم الدين الكبير إنظر:
النويرى: نهاية الأرب، جـ ٣٢، ص ٣٠١.
المقريزى: السلوك، جـ ٢، ص ٩٥ – ٩٨.
أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، جـ ٩، ص ٨٥٠.
مصباح أحمد مصباح: رحلة الحج في العصر المملوكى، رسالة غير منشورة، جامعة الأزهر.
(٦١) هي الزوجة الثانية للسلطان الناصر محمد وكانت جارية فائقة الجمال فلما شاهدها

الناصر أحبها حباً شديداً وإشتراها وأعتقها وكانت أقرب زوجاته إلى قلبه وأنجبت له ابنه آنوك وعُرفت بالخوند الكبرى، حجت عام ٧٢١هـ وتوفيت عام ٧٤٩هـ / ١٢٤٩م، أما لفظ الخوند فهو لفظ معروف من الفارسية بمعنى السيدة أو السيد وهو لقب يخاطب به الذكور والإناث والجماع خوندات وإُستعمل في عصر المماليك للدلالة على السلاطين وبناتهم، وللمزيد من التفاصيل عن الخوند طغاى ومعنى كلمة خوند إنظر:

الصفدى: أعيان العصر وأعوان النصر، جـ ٢، ص ٥٩٩ – ٦٠١.

بن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة، جـ ٢، ص ٢٢١.

السحماوي: الثغر الباسم، جـ ٢، ص ٦٩٣.

حسن الباشا: الألقاب الإسلامية، ص ٢٨١.

آدى شبر: الألفاظ الفارسية المعربة، القاهرة ١٩٨٨، ص ٥٨.

(٦٢) وعن حج الخوند طغاى ودور كريم الدين معها وإستقبال السلطان الناصر لها إنظر:

النويرى: نهاية الأرب، جـ ٣٣، ص ٢٩.

الصفدى: أعيان العصر، ص ٦٠٠ –٦٠١.

ابن إياس: بدائع الزهور، جـ ١، ص ٤٥٢.

ابن دقماق: النفخة المسكية في الدولة التركية من كتاب "الجوهر الثمين في سير الخلفاء والملوك والسلاطين" بيروت، ١٩٩٩م، ص ١٢٧.

ابن شاكر: فوات الوفيات، جـ ٢، ص ٣٧٩.

أبو المحاسن: المنهل الصافى، جـ ٧، ص ٣٤٧.

(٦٣) الخلعة هى ما يخلعه الخليفة أو الأمير أو الملك على أحد من الناس وقد تكون مالا او عينا وهى فى أغلب الأحوال من الثياب الفاخرة عبارة عن جبة مطرزة و عمامة وطيلسان و سيف إضافة إلى البدر والدنانير .

مصطفى عبد الكريم الخطيب : معجم المصطلحات والالفاظ التاريخية،، بيروت ١٩٩٦، ص ١٦٥

(٦٤) المقريزي: السلوك، جـ ٢، ص ٢٠٢.

(٦٥) ابن كثير: البداية والنهاية، جـ ١٤، ص ٩١.

(٦٦) الحياصة هى حزام كان يتقلده العسكريون فى العصرين الأيوبى و المملوكى أو

نطاق يشد به الوسط كان يتخذ إما من الذهب أو الفضة المطلية بالذهب

– مصطفى الخطيب : معجم المصطلحات، ص ١٥٣ .

(٦٧) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، جـ ٩، ص ٧٥.

(٦٨) ابن العسقلاني: الدرر الكامنة، جـ ١، ص ٤٠٣.

(٦٩) أبو المحاسن: المنهل الصافى، جـ ٧، ص ٣٤٨.

(٧٠) الصفدى : الوافى بالوفيات، ج ١٩، ٦٧ .

(٧١) ابن شاكر: فوات الوفيات، جـ ٢، ص ٣٨٠.

(٧٢) الشوكانى: البدر الطالع جـ ١، ص ٣٧٣.

(٧٣) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، جـ ٩، ص ٧٦، ٧٧.

(٧٤) السيوطى: حسن المحاضرة، جـ ٢، ص ١٩٥.

(٧٥) ابن شاكر: فوات الوفيات، جـ ٢، ص ٣٧٩.

(٧٦) هو بكتمر بن عبدالله الساقى الناصرى، كان من مماليك المظفر بيبرس الجاشنكير ... ثم أخذه الناصر محمد وحظى عنه بمكانة وصار ذو أمر عظيم، توفى وهو عائد من الحجاز صحبة أستاذه عام ٧٣٣ه / ١٣٣٢م.

أبو المحاسن: المنهل الصافى، جـ ١، ص ١٩٤.

(٧٧) الأمير قطلوبغا بن عبد الله الفخرى الناصرى الساقى، الأمير سف الدين، كان أميرا شجاعا مقداما ذا هيئة جميلة، حليما جوادا عنده معرفة وتدبير ومكر وحدس صائب، قتل لإى أول المحرم سنة ثلاث وأربعين وسبعمائة.

ابن تغرى بردى : المنهل الصافى، ص ٨١-٨٦

(٧٨) المقريزى: المقفى الكبير، تحقيق محمد اليعلاوى ط الأولى ١٩٩١ بيروت، جـ 4، ص ٤٥٨.

(٧٩) المقريزي: السلوك، جـ ٢، ص ١٨١، ٢٠٣.

(٨٠) عبدالمنعم ماجد: نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم في مصر، القاهرة ١٩٧٩م، جـ ١، ص ٤٧.

وهذا لا يعنى أن الوزارة في العصر المملوكى كانت من النصارى فقط ولكن هذا العصر شهد دخول الكثير من النصارى في الإسلام ومنهم من تظاهر بالإسلام حتى يترقى في المناصب العليا للدولة لاسيما في عصر الناصر محمد بن قلاوون الذى إستخدم كثيراً منهم في وظائف الدولة العامة لأنهم كانوا رجال عمل بارزين ولأنهم

كانوا أقل خطر على عرشه من المسلمين، وكان كريم الدين الكبير أحد من تحولـــوا من النصرانية إلى الإسلام وبلغ مكانة عظيمة في الدولة.

علي إبراهيم حسن: دراسات في تاريخ المماليك البحرية، القاهرة ١٩٤٨، ص ٣٥٠.

Lane, Poole (s): History of Egypt in the Middle Ages, London 1912, P.310.

(٨١) آقوش بن عبد الله الأشرفي، الأمير جمال الدين نائب الكرك، أصله من مماليك الملك الأشرف خليل بن قلاوون، وترقى إلى أن صار من جملة أمراء الديار المصرية، ثم ولى نيابة الكرك، ثم نقله الملك الناصر محمد ابن قلاوون إلى نيابة دمشق بعد الأمير كراي بحكم القبض عليه، فأقام آقوش هذا في نيابة دمشق مدة، وعزل بالأمير تنكـز وطلب إلى القاهرة، وصار يجلس رأس الميمنة، ويقوم له السلطان إذا دخـل عليـه، وكان أميراً عارفاً عاقلاً، ذا رأي وتدبير وعظمة، وثروة زائدة، غير أنه كان ظالماً، ولما أمسك أقام بقلعة دمشق مدة يسيرة، ونقل إلى الإسكندرية. وحبس بهـا إلـى أن توفى سنة ست وثلاثين وسبعمائة، وسبب موته أنه كان برأسه سلعة، فقطعها؛ فمـات منها بعد قليل.

ابن تغرى بردى : المنهل الصافى، ج ٣، ص ٢٧ – ٣٠ .

(٨٢) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، جـ ٩، ص ٦٨.

(٨٣) ابن شاكر: فوات الوفيات، جـ ٢، ص ٢٨٠.

(٨٤) أبو المحاسن: المنهل الصافى، جـ ٧، ص ٣٤٨.

(٨٥) ابن شاكر: فوات الوفيات، جـ ٤، ص ١٥.

(٨٦) الصفدى: أعيان العصر، جـ ٥، ص ٢٠٧.

(٨٧) محمد بن محمد بن محمد بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن يحيى بن سـيد النـاس، الشيخ الإمام، الأديب فتح الدين أبو الفتح ومولده في العشر الأول من ذي الحجة سنة إحدى وسبعين وست مئة.، وتوفي رحمه الله تعالى في يوم السبت حادي عشر شـهر شعبان سنة أربع وثلاثين وسبع مئة، ودفن يوم الأحد بالقرافة وشيّعه خلقٌ كثير مـن القضاة والأمراء والفقهاء والجند والعوام، وتقدّم للصلاة عليه قاضي القـضاة جـلال الدين القزويني. وتعجّب السلطان الملك الناصر محمد من جنازته الحفلة، وسأل عنـه فعُرِّف بحاله، فقال: هذا رجل جليل القدر ما نعطي وظائفه إلا لمن يكون مثله.

الصفدى : أعيان العصر، ج ٥، ص ٢٠١ وما بعدها .

(٨٨) الصفدى: المرجع السابق، ج ٥، ص ٢٠٧ .

(٨٩) ابن اياس : بدائع الزهور، ج ١ ص ٤٤٥.

(٩٠) هو أكرم الدين بن الخطير، كاتب الحميدى، القاضى كريم الدين الصغير ؛ يُكنى بأبى المكارم وكان قبطياً فلما أسلم سُمى عبدالكريم – تولى ديوان الجيش ثم أصبح ناظراً للدواوين في عهد خاله كريم الدين الكبير وقبض عليه معه ثم عاد إلى الوزارة حتى إنقلب عليه السلطان وقُتل في ٧٢٦ه.

ولمزيد من التفاصيل إنظر:

ابن حجر العسقلانى: الدرر الكامنة، جـ ١، ص ٣٢٨.

أبو المحاسن: المنهل الصافى، جـ ٣، ص ٥٢٢.

المقريزي: السلوك، ص ٢٧١.

(٩١) المقريزى: المقفى الكبير، جـ ٢، ص ٢٦٧.

(٩٢) المقريزي: السلوك، جـ ٢، ص ١٧١.

(٩٣) ابن إياس: بدائع الزهور، جـ ١، ص ٤٥٤.

ابن شاكر: فوات الوفيات، جـ ٢، ص٣٨٣.

(٩٤) ابن كثير: البداية والنهاية، جـ ١٤، ص ٩٠.

أدم صبره: الفقر والإحسان في عصر سلاطين المماليك ١٢٥٠ – ١٥١٧م، ترجمة قاسم عبده قاسم، القاهرة ٢٠٠٣، ص ٩٥ – ٩٦.

(٩٥) المقريزي: السلوك، جـ ٢، ص ٢٤١.

(٩٦) تعرف بكنيسة السيدة العذراء،ولعل تسميتها بالمعلقة جاءت نتيجة بنائها على برجين من أبراج الحصن الرومانى، وإرتفاعها ١٣ متراً ولهذه الكنيسة أهمية دينية فقد كانت في فترات كثيرة من العصر الإسلامى يتم فيها رسامة البطاركة، كما يُعقد فيها كثير من الإحتفالات الدينية المسيحية الكبيرة ويحاكم فيها بعض الخارجين على طقوس الكنيسة.

ولمزيد من التفاصيل عن تلك الكنيسة وعمارتها إنظر:

مصطفى شيحه: دراسات في العمارة والفنون القبطية، القاهرة ١٩٨٨، ص ٩٢ – ١٠٧.

(٩٧) ولد الشيخ نور الدين بن على البكرى سنة ٦٧٣ه ويذكر له نسباً يصل إلى أبي بكر الصديق رضى الله عنه وتوفى عام ٧٢٤ه.

ولمزيد من التفاصيل عن سيرته إنظر:

الصفدى: أعيان العصر، جـ ٣، ص ٥٨٢ – ٥٨٣.

(٩٨) لمزيد من التفاصيل عن هذه الحادثة ودور الشيخ البكرى والسلطان إنظر:

المقريزى: الخطط، جـ ٢، ص ٦٨.

الصفدى: أعيان العصر، جـ ٣، ص ٥٨٣.

(٩٩) بتلر: الكنائس القبطية في مصر، ترجمة إبراهيم سلامة إبراهيم، القاهرة ١٩٩٣، جـ ١، ص ٣٣٤ – ٣٣٩.

(١٠٠)المقريزى: مسودة كتاب المواعظ، ص ٤١٠ – ٤١١.

(١٠١)البطريرك يوحنا التاسع أصله من مديرية المنوفية وأقام بطريركاً ست سنوات وستة أشهر من أول بابة ١٠٣٧ إلى ٢ برمودة ١٠٤٣ش، أى من ٢٨ سبتمبر سنة ١٣٢٠ إلى ٢٨ مارس ١٣٢٧م، ٢٣ شعبان سنة ٧٢٠ه إلى ٤ جمادى الأولى سنة ٧٢٧ه.

عمر طوسون: وادى النطرون رهبانه وأديرته، القاهرة، ص ١٣١.

(١٠٢)تعددت المصادر التى روت تلك الحادثة ولكن أهمها:

ابن الوردى: تاريخ ابن الوردى، النجف ١٩٩٦، جـ ٢، ص ٢٧١ –٢٧٢.

المقريزي: السلوك، جـ ٢، ص ٢٢٣، ٢٢٦ – ٢٢٨.

الذهبى: تاريخ الإسلام، الجزء ٥٣، ص ١٥٢.

محمد جمال سرور: دولة بن قلاوون في مصر، القاهرة ١٩٤٧، ص ١١٠ – ١١١.

نخلة روفيله: تاريخ الأمة القبطية، القاهرة ٢٠٠٠، ص ٢٢٢ – ٢٣٦.

قاسم عبده قاسم: أهل الذمة في مصر، من الفتح الإسلامى حتى نهاية المماليك دراسة وثائقية، القاهرة ٢٠٠٣م ص ١٧٧ – ١٨٢.

(١٠٣)ابن أيبك الداوادارى: الدر الفاخر، ص ٣٠٦.

(١٠٤)جمال سرور: دولة بنى قلاوون، ص ١١١.

(١٠٥)الذهبى: تاريخ الإسلام، جـ ٥٣، ص ١٨٣.

(١٠٦)المقريزي: السلوك، جـ ٢، ص ١٨٤.

(١٠٧)ابن شاكر: فوات الوفيات، جـ ٢، ص ٣٨٣.

(١٠٨)الذهبى: تاريخ الإسلام، جـ ٥٣، ص ١٨٣.

(١٠٩)الصفدى : أعيان العصر ج ٣، ص ١٥٠.

(١١٠) النويرى : نهاية الأرب، ج ٣٣، ص ٥٥.

(١١١)لمزيد من التفاصيل عن مساعدة كريم الدين لبعض الأمراء إنظر:

الصفدى : الوافى بالوفيات، ج ١٩، ص ٦٨-٦٩.

ابن شاكر: فوات الوفيات، جـ ٢، ص ٣٨١ – ٣٨٢.

(١١٢)ليلى عبدالجواد: تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص ٢٦٣.

(١١٣)ومن هؤلاء الأميران بكتمر البوبكرى والمنكوتمرى ولمزيد من التفاصيل عـن دور كريم الدين معهما إنظر:

المقريزى: المقفى الكبير، ج ٢، ص ٣٤٣، ٤٥٧.

(١١٤)أيبك الداوادارى: الدر الفاخر، جـ ٩، ص ٢١٧.

(١١٥)محمد عبدالعزيز مرزوق: الناصر محمد بن قلاوون، القاهرة، ص ٢٧٨ – ٢٧٩.

(١١٦)المقريزي: السلوك، جـ ٢، ص ٢٤٤.

(١١٧)ابن دقماق: الجوهر الثمين في سير الخلفاء والملوك، (من سنة ٦٣٧ حتى سنة ٨٠٥) – تحقيق د/ عمر عبدالسلام، بيروت ص ١٢٧.

(١١٨)الصفدى: أعيان العصر، جـ ٥، ص ٩٦.

(١١٩)الشوكانى: البدر الطالع، محاسن من بعد القرن السابع، جـ ١، ص ٣٧٣.

(١٢٠)الصفدى : أعيان العصر، ج٣، ص ١٥٢.

(١٢١)المقريزي: السلوك، جـ ٢، ص ٢٤٦.

محمد بهجت مختار: المصادرة في مصر الإسلامية من الفتح الإسلامى حتى نهاية عصر المماليك، القاهرة ١٩٩٠، ص ٧٢.

(١٢٢) (النويرى ج ٣٣ ص ٤٦)

(١٢٣)وعن موته يذكر ابن كثير أنه قد شنق نفسه داخل خزانة له قد أعلقها عليه من الداخل ثم ربط حلقه في حبل وكان تحت رجله قفص فدفعه برجليه فمات في أسوان.

ويشير ابن إياس إلأى أنه وضع فى السجن بأسوان وهو مقيد بالحديد وأقام بالـسجن مدة قصيرة ومات فيه بعد أن ضاق به الأمر.

ابن كثير: البداية والنهاية، جـ ١٤، ص ١٠٧.

ابن إياس : ج ١، ص ٤٥٣

الدمشقى: الدارس في تاريخ المدارس، بيروت، جـ ٢، ص ٣٢٢.

(١٢٤)أبو المحاسن: المنهل الصافى، جـ ٧، ص ٣٤٩.

(١٢٥)ابن شاكر: فوات الوفيات، جـ ٢، ص ٣٨١.

(١٢٦)الشوكانى: البدر الطالع، جـ ١، ص ٣٧٤.
(١٢٧)ابن إياس: بدائع الزهور، جـ ١، ص ٤٥٤.
(١٢٨)المقريزى: المقفى الكبير، جـ 4، ص ٤٥٩.
(١٢٩)علاء الدين على بن هلال الدولة، ولد بشيزر ثم قدم مصر وباشر شد العمارة بها، وتدرج فى عدة مناصب، ثم عاد إلى شيزر ومات بها فى سنة ٧٣٩ ه
ابن حجر العسقلانى : الدرر ج ٣ ص ١٣٦ .
(١٣٠)النويرى ج٣٣، ص ٤٨
(١٣١)اليوسفى: نزهة الناظر في سيرة الملك الناصر، تحقيق أحمد حطيط، جـ ١، ص ١٢٩.
(١٣٢)النويرى : نهاية الأرب، ج ٣٣ ؛ ص ٤٠ - ٤٤
(١٣٣)أحمد عبدالرزاق: البذل والبرطلة زمن سلاطين المماليك "دراسة عن الرشوة" القاهرة ١٩٧١، ص٨٧.
(١٣٤)المقريزى: السلوك، جـ٢، ص ١٨١، ٢٢٨.
(١٣٥)الدر الفاخر، جـ ٩، ص.
(١٣٦)الصفدى : الوافى بالوفيات،ج ١٩،ص ٦٩.
(١٣٧)ابن شاكر: فوات الوفيات، جـ ٢، ص ٣٨٢.
(١٣٨)الذهبى: تاريخ الإسلام، جـ ٣، ص ١٨٣.
(١٣٩)اليوسفى: نزهة الناظر، ص ٢٧٧.
الدمشقى: الدراس، جـ ٢، ص ٣٢٢.
(١٤٠)هو عبد الله بن الصنيعة المصرى " الصاحب شمس الدين غبريال كان كاتب الخزينة أيام حسام الدين لاجين ثم انتقل إلى الشام وولى نظر الجامع الأمورى والأوقاف ثم تولى نظر دووابن دمشق ثم عزل وقبض عليه وألزم بدفع ألف ألف درهم وتوفى سنة ٧٣٤ هـ .
الصفدى : أعيان العصر، ج٢ ص ٦٨٣ - ٦٩٠.
أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، جـ ٩، ص ٧٢.
(١٤١)ابن الوردى : تاريخه، ج ٢ ص ٢٦٥.
(١٤٢)ابن حبيب: تذكرة النبيه، جـ ٢، ص ١٣٣.
(١٤٣)أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، جـ ٩، ص ٥٨، ٦٠.
المقريزى: السلوك ج٢ ص ١٩٨.
(١٤٤)الصفدى : أعيان العصر، ج ٣، ص ١٥٣.

إشكالية الخلافة في حوار التحكيم (٦٥٧/٣٧)

د احمد سعود الحسن

كلية الاداب- جامعة الكويت

أثيرت الفتنة في عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه (٦٤٣/٢٣-٦٥٥/٣٥) وانتهت بمحاصرة الثوار للخليفة ثم قتله سنة (٦٥٥/٣٥)[١] واختير علي بن أبي طالب خليفة للمسلمين [٢] لكن أهل البصرة عارضوا خلافته بقيادة عائشة بنت ابي بكر وطلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام وطالبوه بالقصاص من قتله عثمان وانتهى الأمر بينهما بموقعة الجمل (٦٥٦/٣٦) التي انتصر فيها علي بن أبي طالب [٣]، وكذلك رفض بيعته أهل الشام بقيادة معاوية بن ابي سفيان و طالبوه أيضا بالقصاص من قتلة عثمان مما أدي إلي معركة صفين (٦٥٧/٣٧)[٤] التي توقفت برفع أهل الشام المصاحف ومطالبتهم علي بتحكيم القرآن الكريم في هذا الخلاف واتفق الطرفان علي أن يرشح كل طرف شخصا يمثله ثم يجتمع هذان الحكمان ويصبح ما يتفقان عليه ملزماً للجميع وقد رشح أهل الشام لهذه المهمة عمرو بن العاص بينما رشح أهل العراق ابو موسى الاشعري[٥]، والتقي الحكمان في دومة الجندل سنة (٦٥٧/٣٧) [٦].

تنقسم الآراء في طبيعة الموضوع الذي دار بين ابى موسى و عمرو ابن العاص الذي اشتهر باسم "التحكيم" إلى رأيين رئيسيين فالرأي الأول يرى أن موضوع الحوار يتعلق بالخلافة واختيار خليفة للمسلمين بينما يرى الرأي الثاني أن الحوار دار حول القصاص من قتلة عثمان لأن أصل الخلاف بين معاوية وعلي يرجع إلى هذا الموضوع . واعتمد أصحاب الرأي الأول على الروايات الشهيرة لكن

هذه الروايات ضعيفة في سندها فقد رواها رواة ليسوا بثقات خاصة تلك التي رواها ابو مخنف لوط بن يحيى ، وفي نفس الوقت جاءت منكرة في متنها حين صورت ابو موسى الأشعري بالرجل الساذج والمغفل بينما هو "رجلا تقيا ثقفيا فقيها عالما"(٧) في الوقت الذي صورت فيه عمرو بن العاص بالرجل الماكر والمخادع والغادر(٨)، وأما أصحاب الرأي الثاني فقد اعتمدوا على المنطق اذ ليس من المعقول أن لا يفهم الحكمان أصل المشكلة التي أججت الصراع وهي القصاص من القتلة ويتركا هذا الاصل ويناقشا أمر الخلافة مما يطعن في شرعية علي كأمير للمؤمنين وباعتبار أن موضوع الخلافة ليس أصل الخلاف خاصة أن معاوية وجيشه لا ينكران فضل علي واسبقيته في الإسلام و في نفس الوقت انتقدوا الروايات التي تشير إلى أن الحوار الذي دار بين أبى موسى وعمرو حول الخلافة و اعتبروها روايات ضعيفة(٩) .

أمام هذان الرأيان فقد تبنت الدراسة أن الحوار الذي دار بين الطرفين كان حول الخلافة والبحث عن بديل عن علي بن ابي طالب ولكنها اعتمدت أولاً على الروايات الصحيحة التي وللأسف تكاد تكون نادرة حيث لا يوجد بين ايدينا سوى روايتين صحيحتين من حيث السند وثانياً الاستئناس بالروايات الضعيفة التي يعضد تواترها بعضه بعضا بشكل يجعلها صالحة للاستدلال ولكن ليس أصلا على الحكم .

الرواية الأول ذكر طرفا منها البخاري في كتابه التاريخ الكبير فقد روى عن حصين بن المنذر أنه "لما عزل معاوية عمرا من مصر جاء فسطاط قريبا من معاوية وجعل يتزيع فبعثني معاوية إليه" (١٠). وذكرها بتمامها ابن عساكر في كتابه تاريخ دمشق الكبير وابن العربي في كتابه العواصم من القواصم "عن حُصَين بن المنذر قال : لما عزل معاوية عمرو بن العَاص عن مصر ضرب فسطاطه قريباً من فسطاط معاوية، ثم جعل يتربع له يقول... معاوية قال : فأرسل إليه،

فقال : إنه بلغني عن عمرو بعض ما أكره، فائته فاسأله عن الأمر الذي اجتمع هو وأبو موسى فيه، كيف صنعا قال : فأتيته، فقلت : أخبرني عن الأمر الذي اجتمعتما فيه أنت وأبو موسى كيف صنعتما فيه قال : قد قال الناس، لا والله ما كان قالوا، ولكن لمّا اجتمعتُ أنا وأبو موسى قلت له : ما ترى في هذا الأمر قال : أرى أنه في النفر الذي توفي رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وهو عنهم راض، قال : فقلت : أين تجعلني من هذا الأمر أنا ومعاوية : وقال : إن يُستعن بكما ففيكما معاوية، وإنْ يُسْتَغْنى عنكما فطال ما استغنى أمر الله عنكما...."[١١].

وبتحليل نص الرواية الصحيحة نجد أن الحوار الذى دار بين ابى موسى الاشعرى و عمرو بن العاص كان حول الخلافه فمعاويه أرسل الحصين بن المنذر ليسأل عمرو عن موضوع النقاش الذى دار بينه وبين ابى موسى وكان رد عمرو بأنه سأل أبا موسى " ما ترى في هذا الأمر " ويقصد عمرو بـ " الأمر " أي طبيعة الحل لمشكلة الخلاف بين علي ومعاوية ولكن كلمة " الأمر " غير واضح المقصود منها فهي عامة وتحتمل أمر القصاص من قتله عثمان أو أمر خلافة عليّ و اختيار من يخلفه في الخلافة ولكن جواب أبوموسى يؤكد أن قصد عمرو"بالأمر"هو خلافة علي والبحث عن بديل عنه في الخلافة وهذا الذى فهمه ابوموسى وبالدقه كان قصد عمرو " بالأمر" هو السؤال عن ترشيح اسم شخص معين لكي يتفق عليها الحكمان ويكون باتفاقهما حل لهذا الخلاف ولذا كان جواب ابوموسى واضحا في الدلالة وعلى ذلك حين قال "أرى إنه في النفر الذى توفى رسول الله صلى الله وعليه وسلم وهم عنهم راض " وجواب ابوموسى هذا عاما أيضا حيث يبدو أنه اراد وضع قاعدة على اساسها يكون اختيار هذا الشخص ، وكذلك ليس واضحا من جواب ابى موسى هل يقصد منهم طرفي النزاع وهما علي ومعاوية او شخصا آخر غيرهما وهى جميعها احتمالات واردة فالنبي صلى الله عليه وسلم عندما توفي كان راضيا عن علي بن ابى طالب وأكد ذلك عمر بن

الخطاب عندما أختاره كأحد مرشحي الشورى[١٢] وأما معاوية بن أبي سفيان فقد كان كاتبا للوحى [١٣] فالنبى صلى الله عليه وسلم استأمنه على كتابة القرآن الكريم وهذا دليل على رضاه عنه وأما الشخص "الآخر" فهم كثرة وليس بالضرورة مقتصرين فقط ممن تبقى من افراد الشورى الستة ، ولكن تكملة الحوار تبين أن معاوية –أو عمرو بن العاص– ليسا من المرشحين الاقوياء في نظر ابوموسى الأشعرى للخلافة وهذا واضح من جوابه لسؤال عمرو بن العاص حين سأله أين تجعلني من هذا الأمر أنا ومعاوية ؟ فكان رد ابى موسى " إن يُستعن بكما ففيكما معونه وإن يستغنى عنكما فطال ما استغنى امر الله عنكما " فهذا الجواب يُقصر الاحتمالات إلي احتمالين من وجهة نظر ابوموسى إما على ابن ابى طالب او شخص آخر .

وفى الحقيقة أن اباموسى لم يقصد علي بن ابي طالب وذلك لدليلين الاول ان هناك رواية صحيحة أخرى أكدت إنه قد طرح اسم عبد الله بن عمر بن الخطاب كبديل لعلي بن ابي طالب وهذا الطرح لا يؤكد فقط ان أتجاه الحوار أقتصر على موضوع الخلافة من حيث المبدأ العام ولكن أيضا يؤكد المحاولة لإختيار خليفة بديل عن علي فقد قال عمرو بن العاص لعبدالله بن عمر " ما يمنعك ان تخرج تبايعك الناس "[١٤] ، ان هذا الاتجاه في البدائل تؤكده ايضا الروايات الضعيفة فمن هذه الروايات الرواية المشهورة التى رواها ابو مخنف[١٥]

"قال أبو مخنف: حدثني أبو جناب الكلبي أن عمراً وأبا موسى حيث التقيا بدومة الجندل أخذ عمرو يقدم أبا موسى في الكلام يقول: إنك صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنت أسن مني فتكلم وأتكلم. فكان عمرو قد عود أبا موسى أن يقدمه في كل شيء اغتزى بذلك كله أن يقدمه فيبدأ بخلع علي. قال: فنظر في أمرهما وما اجتمعا عليه فأراده عمرو على معاوية فأبى وأراده على ابنه فأبى وأراد أبو موسى عمراً على عبد الله بن عمر فأبى عليه فقال له عمرو: خبرني ما رأيك

قال: رأيي أن نخلع هذين الرجلين ونجعل الأمر شورى بين المسلمين فيختار المسلمون لأنفسهم من أحبوا. فقال له عمرو: فإن الرأي ما رأيت فأقبلا إلى الناس وهم مجتمعون فقال: يا أبا موسى أعلمهم بأن رأينا قد اجتمع واتفق فتكلم أبو موسى فقال: إن رأيي ورأي عمرو قد اتفق على أمر نرجو أن يصلح الله عز وجل به أمر هذه الأمة. فقال عمرو: صدق وبر يا أبا موسى تقدم فتكلم. فتقدم أبو موسى ليتكلم فقال له ابن عباس: ويحك! والله إني لأظنه قد خدعك. إن كنتما قد اتفقتما على أمر فقدمه فليتكلم بذلك الأمر قبلك ثم تكلم أنت بعده فإن عمراً غادر ولا آمن من أن يكون قد أعطاك الرضا فيما بينك وبينه فإذا قمت في الناس خالفك - وكان أبو موسى مغفلاً - فقال له: إنا قد اتفقنا. فتقدم أبو موسى فحمد الله عز وجل وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس إنا قد نظرنا في أمر هذه الأمة فلم نر أصلح لأمرها ولا ألم لشعثها من أمرٍ قد أجمع رأيي ورأي عمرو عليه وهو أن نخلع علياً ومعاوية وتستقبل هذه الأمة هذا الأمر فيولوا منهم من أحبوا عليهم وإني قد خلعت علياً ومعاوية فاستقبلوا أمركم. وولوا عليكم من رأيتموه لهذا الأمر أهلاً ثم تنحى.

وأقبل عمرو بن العاص فقام مقامه فحمد الله وأثنى عليه وقال: إن هذا قد قال ما سمعتم وخلع صاحبه وأنا أخلع صاحبه كما خلعه. وأثبت صاحبي معاوية فإنه ولي عثمان بن عفان والطالب بدمه وأحق الناس بمقامه------"(١٦)

وروى ايضا أنه عندما التقى الحكمان قال عمرو بن العاص " يا أباموسى الا تعلم ان عثمان قتل مظلوما : قال اشهد قال : ألست تعلم ان معاوية وآل معاوية اولياؤه ؟ قال : بلى قال : فإن الله عزوجل قال " ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا فلا يسرف فى القتل إنه كان منصورا " فما يمنعك من معاوية ولي عثمان يا أباموسى وبيته فى قريش كما قد علمت .... - قال ابو موسى - واما قولك ان معاويه ولى دم عثمان فوله هذا الأمر فإنى لأوليه معاويه وادع المهاجرين الاولين ...ولكنك إن شئت احيينا اسم عمر بن الخطاب"(١٧)

وفي راويه ثالثه " قال ابوموسى : اما والله لئن استطعت لأحيين اسم عمربن الخطاب فقال عمرو : ان كنت تحب بيعة ابن عمر فما يمنعك من ابنى وانت تعرف فضله وصلاحه فقال :ان ابنك رجل صدق ولكنك غمسته في هذه الفتنه"(١٨).

وفي نفس سياق موضوع الحوار حول الخلافة روى الهيثم بن عدى بأن الحارث بن راشد الناجى – احد الخوارج – قال لعلي بن أبي طالب بعد التحكيم " هذان الحكمان قد اتفقا على خلعك ثم اختلفا فى ولاية معاويه فولاه عمرو وامتنع ابو موسى من ذلك فأنت مخلوع باتفاقهما"(١٩)

و إن هذا الاستنتاج من مجمل الروايات الواردة في التحكيم وعلاقتها بموضع الخلافة ومناقشة الحكمان للبديل عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه في حوار التحكيم توصل إليه المحققون من المؤرخين القدماء فقد قال الذهبي عن ابن عمر بأنه "ممن كان يصلح للخلافة فعين لذلك يوم الحكمين مع وجود مثل الإمام علي وفاتح العراق سعد ونحوهما" (٢٠) وكرر في موضع آخر "قلت : كاد ان تنعقد له البيعة يومئذ مع وجود مثل الإمام علي بن أبي طالب وسعد بن ابي وقاص "(٢١). وذكر ابن كثير أن أبا موسى أشار " بتولية عبد الله بن عمر بن الخطاب"(٢٢).

وإذا تقرر أن موضع الحوار كان حول الخلافة فهنا تنشأ أشكاليتان الأولى تتعلق بالسبب الذي من أجله ترك الحكمان أمر القصاص من قتلة عثمان وتوجها لمناقشة البديل عن علي بن أبي طالب ، وعلى الرغم من أنه لا يمكن الجزم بجواب لهذا التساؤل حيث لا يوجد نص صريح يوضح هذا السبب إلا إنه إذا نظرنا إلى المرجعية التي أقرها الطرفان كأساس للتحكيم نجدها مرجعية عامة سواء عندما رفع أهل الشام القرآن الكريم لتحكيمه في الخلاف أو ما تم التوقيع عليه في

وثيقة التحكيم [٢٣] فلم تحدد أو تقترح الموضوع الذي يجب أن يناقشه الحكمان مما جعل الخيارات مفتوحة للحكمين باختيار الوسيلة التي يريانها مناسبة لإنهاء الحرب .

ولذا يظهر أن الحكمان أرادا حلا جذريا ينهي الصراع الدائر باختيار خليفة مرضي عنه من جميع الأطراف المتنازعة ليعيد النظر في أمر القصاص من قتلة عثمان لا سيمت أن استمرار علي بن ابي طالب رضي الله عنه خليفة للمسلمين قد يؤدي الى تجدد الصراع خاصة بعد حروبه الداخلية مع أهل البصرة في موقعة الجمل سنة (٦٥٦/٣٦) ومع أهل الشام في معركة صفين (٦٥٧/٣٧) فالنفوس لها موقف مسبق منه بالإضافة إلى أن الشام التي تعتبر مركزا هاما له ثقله في الدولة الإسلامية لم تبايعه بالخلافة بعد [٢٤] واعتبره أهلها آويا لقتلة عثمان[٢٥].

والإشكالية الثانية تتعلق بالسبب الذي جعل الحكمان لا يتفقان على خليفة بديل عن علي بن ابي طالب .

الحقيقة أن مجمل الروايات توضح أن هناك أربعة أسماء طرحت كبدائل لشغل الخلافة فقد طرح ابوموسى الأشعري عبد الله بن عمر بن الخطاب[٢٦] بينما طرح عمرو بن العاص ابنه عبد الله بن عمر بن العاص و معاوية بن أبي سفيان[٢٧] وسعد بن أبي وقاص [٢٨].

أما عبد الله بن عمر بن الخطاب فقد عرضت عليه الخلافة لكنه رفض أن يتولاها إلا بشرط ان يرضى جميع المسلمين به فقد قال عمرو بن العاص له " -- أنت أحق الناس بهذا الأمر فقال : قد اجتمع الناس كلهم على ما تقول ؟ قال : نعم إلا نفر يسير قال : قال لو لم يبق إلا ثلاثة أعلاج بهجر لم يكن لي فيها حاجة " [٢٩] ولذا قال الذهبي " وأين مثل ابن عمر -- رجل تعرض عليه الخلافة فيأباها " [٣٠].

وأما معاوية بن ابي سفيان وعبدالله بن عمرو فقد رفضهما ابوموسى الأشعري لأنه رأى أن معاوية ليست له أسبقية في الاسلام تؤهله لمنصب الخلافة [٣١] و أن عبد الله بن عمرو احد الأشخاص الذين دخلوا في فتنة الصراعات [٣٢] و اما سعد بن ابي وقاص فلم يكن راغبا في الخلافة[٣٣] ولهذا انتهي الاجتماع دون الاتفاق على خليفة مما أعاد وضع الدولة الإسلامية إلى دائرة الصراع مرة ثانية فحاول علي بن ابي طالب مرة أخرى إخضاع بلاد الشام لخلافته لكنه لم يتمكن من تجهيز جيش يخرج به لقتال الشام حيث ضعفت همة أهل العراق للقتال خاصة بعد معركة النهروان مع الخوارج على الرغم من محاولاته المتكررة لاستنهاض هممهم ولكن دون جدوى إلى أن استشهد على يد عبدالرحمن بن ملجم الخارجي سنة ٤٠/٦٦٠ [٣٤].

نستنتج مما سبق أن الحوار في التحكيم دار حول الخلافة و للبحث عن بديل عن علي بن أبي طالب و لكن لرفض جميع البدائل لم يتوصل الى قرار ينهي الصراع الدائر بين علي بن أبي طالب و معاوية بن أبي سفيان.

الهوامش

(١) محمد بن جرير الطبري،تاريخ الأمم و الملوك(بيروت،بدون تاريخ)ج٤ ص٣١٧ و ما بعدها

(٢) نفسه ص ٤٢٧ و ما بعدها

(٣) نفسه ص ٤٤٤ و ما بعدها

(٤) نفسه ص ٤٤٢ و ما بعدها ،ج٥ ص ٥ و ما بعدها

(٥) نفسه ج٥ ص ٤٨- ٦٣

(٦) نفسه ص ٦٧-٧١

(٧) ابوبكر بن العربي المالكي ،العواصم من القواصم(القاهرة ، ١٤٠٥)ص ١٧٦

(٨) عباس محمود العقاد ،مجموعة العبقريات الاسلامية"عبقرية الامام علي"(بيروت ، بدون تاريخ)ص ٨٣-٨٥، السيد عبدالعزيز سالم ، تاريخ الدولة العربية(بيروت ، ١٩٨٦)ص ٥٩٢,٥٩١،حسن أيوب، الخلفاء الراشدون (بدون مكان ، ١٩٩٧) ص٣١١,٣١٠،الخضري محمد عفيفي الباجوري،إتمام الوفاء بسيرة الخلفاء(بيروت ، ٢٠٠٢) ص٢٠٩,٢٠٨ ،محمد السيد الوكيل ، جولة تاريخية في عصر الخلفاء الراشدين(جدة ، ١٩٩٧)ص ٥٨٦-٥٩١،أنظر هذه الروايات الضعيفة عند الطبري ،ضعيف تاريخ الطبري (الخلافة الراشدة) تحقيق محمد طاهر البرزنجي(بيروت – دمشق ، ٢٠٠٧) ص ٨١١- ٨١٥.

(٩)يحيى بن ابراهيم بن علي اليحيى ،مرويات ابي مخنف في تاريخ الطبري(الرياض ،١٤١٠)ص ٣٧٨-٤١٨،محمد أمحزون ،تحقيق مواقف الصحابة في الفتنة (الرياض، ١٩٩٤)ج٢ ص ٢٢٥,٢٢٤،علي محمد الصلابي ، أسمى المطالب في سيرة امير المؤمنين علي بن أبي طالب(القاهرة ،٢٠٠٤)ص ٥٨٩- ٦٠٠.

(١٠)محمد بن اسماعيل البخاري،التاريخ الكبير(بيروت ،بدون تاريخ)ج٥ ص٣٩٨.

(١١)علي بن الحسن بن عساكر،تاريخ دمشق الكبير(دار الكتب العلمية،بدون تاريخ)ج٤٩،ص٧٥،ابن العربي،العواصم ،ص ١٧٩ و قال رواها "الأئمة الثقات" .

(١٢)الطبري ، تاريخ ، ج٥ ، ص ٢٢٨.

(١٣) محمد بن أحمد الذهبي ،سير أعلام النبلاء(بيروت،١٩٨٢)ج٣، ص١٢٣.

(١٤)نفسه ص٢٢٨.

(١٥)أبومخنف لوط بن يحيى قال عنه احمد بن علي بن حجر"إخباري تالف لا يوثق به"لسان

الميزان (بيروت ، ١٩٨٦)ج٤،ص٤٩٢.

(١٦) الطبري ، تاريخ ،ج٥،ص ٧١,٧٠.

(١٧) نفسه ص ٦٨.

(١٨) نفسه.

(١٩) اسماعيل بن كثير،البداية و النهاية(بيروت ، بدون تاريخ)ج٧ ، ص ٣١٠.

(٢٠) الذهبي، تذكرة الحفاظ(بدون مكان ، بدون تاريخ)ج١، ص٣٧.

(٢١) الذهبي، سير،ج٣،ص٢٢٩.

(٢٢) ابن كثير،البداية،ج٧ ، ص٢٨٣.

(٢٣) نص وثيقة التحكيم "بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما تقاضى عليه علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان قاضى علي على أهل الكوفة ومن معهم من شيعتهم من المؤمنين والمسلمين وقاضى معاوية على أهل الشأم ومن كان معهم من المؤمنين والمسلمين إنا ننزل عند حكم الله عز وجل وكتابه ولا يجمع بيننا غيره وإن كتاب الله عز وجل بيننا من فاتحته إلى خاتمته نحيي ما أحيا ونميت ما أمات فما وجد الحكمان في كتاب الله عز وجل – وهما أبو موسى الأشعري عبد الله بن قيس وعمرو بن العاص القرشي – عملا به وما لم يجدا في كتاب الله عز وجل فالسنة العادلة الجامعة غير المفرقة. وأخذ الحكمان من علي ومعاوية ومن الجندين من العهود والميثاق والثقة من الناس أنهما آمنان على أنفسهما وأهلهما والأمة لهما أنصار على الذي يتقاضيان عليه وعلى المؤمنين والمسلمين من الطائفتين كلتيهما عهد الله وميثاقه أنا على ما في هذه الصحيفة وأن قد وجبت قضيتهما على المؤمنين فإن الأمن والاستقامة ووضع السلاح بينهم أينما ساروا على أنفسهم وأهليهم وأموالهم وشاهدهم وغائبهم وعلى عبد الله بن قيس وعمرو بن العاص عهد الله وميثاقه أن يحكما بين هذه الأمة ولا يرداها في حرب ولا فرقة حتى يعصيا وأجل القضاء إلى رمضان. وإن أحبا أن يؤخرا ذلك أخراه على تراضٍ منهما وإن توفي أحد الحكمين فإن أمير الشيعة يختار مكانه ولا يألو من أهل المعدلة والقسط وإن مكان قضيتهما الذي يقضيان فيه مكان عدلٌ بين أهل الكوفة وأهل الشأم وإن رضيا وأحبا فلا يحضرهما فيه إلا من أرادا ويأخذ الحكمان من أرادا من الشهود ثم يكتبان شهادتهما على ما في هذه الصحيفة وهم أنصارٌ على من ترك ما في هذه الصحيفة وأراد فيه إلحاداً وظلماً. اللهم إنا نستنصرك على من ترك ما في هذه الصحيفة."الطبري ، تاريخ، ج٥ ، ص ٥٤,٥٣.

(٢٤) ابن كثير، البداية،ج٧،ص٢٥٤.

(٢٥) نفسه ص ٢٦٠.

(٢٦) الطبري، تاريخ،ج٥،ص ٦٨.

(٢٧) نفسه ص ٧٠.

(٢٨) علي بن الحسين المسعودي، مروج الذهب و معادن الجوهر(بيروت،١٩٨٣)ج٢، ص٤٠٨.

(٢٩) الذهبي،سير،ج٣ ،ص٢٢٨.

(٣٠) نفسه ص ٢٣٥.

(٣١) الطبري، تاريخ،ج٥،ص٢٦٨.

(٣٢) نفسه.

(٣٣) نفسه ص ٦٧.

(٣٤) أنظر التفصيل الطبري، تاريخ،ج٥،ص٧٧-١٥٢.

الحلة السيفية وعلاقاتها بسلاطين السلاجقة والخلفاء العباسيين و الزنكيين والصليبيين

٤٩٥-٥٢٩هـ/١١٠١-١١٣٤م

د. أميرة مصطفى أمين يوسف

أستاذ مشارك في قسم التاريخ

جامعة الملك عبد العزيز

كلية الآداب والعلوم الانسانية

فرع الفيصلية – المملكة العربية السعودية

جدة

مثلت الحلة السيفية ثقلاً سياسياً وعسكرياً، في عهد سيف الدولة صدقة ،وابنه دبيس وهما أميرين من أمراء بني مزيد،وكان لسيف الدولة صدقة الفضل في اختطاط الحلة ورفع شأنها،وتوسيع رقعتها ومجابهة سلاطين السلاجقة للدفاع عن مبادئه وشرف إمارته،أما ابنه دبيس فدخل في صراع قوي أيضاً مع سلاطين السلاجقة وحاول تأليب بعضهم على البعض بالإنضمام إلى جانب دون الآخر لإثارة الفتن والقلاقل بين أفراد الأسرة السلجوقية، كما عمل جاهداً للوقوف في وجه الخليفة العباسي السني المذهب، لإضعاف قوته وزعزعة مكانته، وكان باعثه على ذلك هو تشيعه، ولم يتوان في محالفة الصليبيين والتمهيد لهم لإحتلال بعض المدن الإسلامية الهامة، ثم مهادنة زنكي والوقوف معه في حربهم، ثم وفاته ذليلاً مقهوراً نتيجة لعبثه وخبث طويته.

والواقع أن الحلة السيفية ومواقف حاكميها وتشعب أحداثها هو الذي دفع الباحثة لإختيارالحلة السيفية موضوعاً للدراسة لإظهار دور كل من الأميرين

تجاه القوى المحيطة بالإمارة والنتائج المترتبة عليهما وعلى الحلة السيفية ذاتها.

إمارة بني مزيد الأسدي أو" الجامعيين" ينتسب زعماؤها إلى مضر وهم بطن من بطون أسد بن خزيمة من العدنانية، وكانت أراضيهم تمتد من بغداد إلى البصرة إلى نجد[١]، وقدعلا شأن أولئك الزعماء باتساع نفوذهم لكثرة أتباعهم من بني قومهم و بما أنضم إليهم من الأكراد [٢]،حتى صار خلفاء بني بويه وسلاطينهم يخطبون ودهم[٣]، ويتقربون إليهم تفادياً من الإصطدام بهم [٤]، واعترفوا بهم أمراء رسميين، وبذلك انتقلوا من المشيخة إلى الإمارة ولعبوا دوراً مهماً في تاريخ الدولة العباسية دام نحو قرن ونصف من الزمان، وعلى الرغم من اشتراك البويهيين والمزيديين في مذهب التشيع[٥]،إلا أن بني مزيد كانوا يمثلون الإنتفاضة العربية ضد السيطرة البويهية على الخلافة العباسية[٦] .

كان أول زعيم لبني مزيد هو الأمير أبو الحسن علي بن مزيد[٧](٣٨٨-٤٠٨هـ/٩٩٨-١٠١٧م)، وكان رجلاً باسلاً جواداً قوي الشكيمة عالي الهمة كبير النفس، له منزلة عند كبراء الدولة العباسية والبويهية،وهوأول من حاز على لقب أمير من الأسرة المزيدية سنة٤٠٥هـ/١٠١٤ حينما ولاه سلطان الدولة بن فخر الدولة البويهي الجزيرة الدبيسية[٨]،وقد أدى ذلك الصعود للأمير المزيدي إلى نشوب حرب ومنافسة شديدة بينه وبين بني عمومته من بني عفيف -الأسرة الطموحة لزعامة بني أسد- الأمر الذي أدى إلى ارتحال أبو الحسن بعشائره وسائر أتباعه إلى النيل واتخذها مركزاً لإمارته[٩]، وأخذ يسعى لنشر الأمن فيها فعاش في طمأنينة حتى توفى سنة٤٠٨هـ وخلفه على الإمارة ولده أبو الأغردبيس[١٠](٤٠٨-٤٧٤هـ/١٠١٧-١٠٨١م).

خلع سلطان الدولة البويهي على دبيس وأقره في أعمال أبيه ولقبه بنور الدولة، وقد ابتلي هذا الأمير بمنافسة أخويه،" المقلد "الذي استعان بجلال الدولة البويهي[١١] وأخيه الآخر" ثابت" وعشيرة خفاجة [١٢]، غير أن نور الدولة تمكن من دحر أخويه وحلفائهم، وعندما سقطت الدولة البويهية على يد زعيم الأتراك

السلاجقة طغرل بك سنة٤٤٧هـ[١٣]/١٠٥٥ لم يكن المزيديون مع الأتراك السلاجقة بأفضل مماكانوا عليه زمن البويهيين[١٤]، فقد سعى نور الدولة المزيدي إلى وقف التوسع السلجوقي في العراق وبلاد الجزيرة، وتحالف في سنة٤٥٠هـ مع البساسيري[١٥]،الذي خطب للخليفة الفاطمي المستنصر بالله الشيعي وأمر فأذن بحي على خير العمل لمدة سنة كاملة[١٦]، وعندئذ اضطر السلطان طغرل بك إلى التقرب من نور الدولة وعفا عنه، نظراً لقوة جيشه وتماسك جبهته وخلع عليه بما يناسب مقامه في سنة ٤٥٢هـ[١٧]، وبقي دبيساً حاكماً قوياً مطلقاً على إمارة" الجامعيين".

كان نور الدولة دبيس" ممدوحاً في كل زمان مذكوراً بالتفضل والإحسان"[١٨]، وقد ظل أميراً على الجامعيين سبع وخمسين سنة، و توفى سنة٤٧٤هـ/١٠٨١م وعمره ثمانين سنة فرثاه الشعراء وأكثروا[١٩]، وتولى بعده ابنه أبو كامل منصور (٤٧٤-٤٧٩هـ/١٠٨١-١٠٨٦م) ولقب بهاء الدولة،واستقر له الأمر وخلع عليه الخليفة فأحسن السيرة واعتمد الجميل[٢٠].

ولقد تقرب بهاء الدولة منصور من سلاطين السلاجقة، وكان إلى جانبهم في الحرب التي جرت بينهم وبين "بني مروان ومسلم بن قريش" في آمد سنة٤٧٧هـ[٢١]/١٠٨٤م، وعندما استولى عساكرالسلطان السلجوقي على منازل العرب من بني عقيل، وأخذوا أموالهم وسبوا نسائهم، تألم بهاء الدولة لهذا الحادث وأرسل ولده صدقة لمساعدة أولئك المنكوبين من بني عقيل وفك أسرهم، وبذل للأتراك أموالاً طائلة، وفك الأسرى والنساء وجهزهم وردهم إلى بلادهم بكل مظاهر العز.[٢٢]

تحلى بهاء الدولة منصور بصفات حميدة، وظل في الإمارة حتى وفاته سنة ٤٧٩هـ/١٠٨٦م، وعندما سمع نظام الملك وزير طغرل بك خبر وفاته قال"مات أجل صاحب عمامة"[٢٣].

بعد وفاة بهاء الدولة أرسل الخليفة العباسي إلى ابنه صدقة يعزيه، ثم سار

صدقة إلى السلطان" ملكشاه" فخلع عليه وولاه مكان أبيه[٢٤](٤٧٩-٥٠١هـ/١٠٨٦-١١٠٧م)، وظل صدقة يوالي السلاجقة، ولزم جانب الطاعة لهم حتى أنه في سنة٤٨٣هـ/ ١٠٩٠م عندما قام بني عامر بالإغارة على البصرة، ونهبها أرسل السلطان ملكشاه صدقة إلى البصرة لإصلاح أمورها[٢٥].

استغل صدقة فرصة النزاع الذي قام بين أبناء السلطان ملكشاه من جهة وبين عمهم" تتش" من جهة أخرى[٢٦]، وذلك بعد وفاة ملكشاه سنة٤٨٥هـ[٢٧]/١٠٩٢م، فاستقل بما تحت يده من أملاك، وساعد في إشعال النزاع بين السلطان بركياروق وأخيه محمد ابني ملكشاه[٢٨]، ولم يتردد في مساعدة محمد ، فقطع الخطبة باسم السلطان بركياروق وأعلنها باسم أخيه محمد، وكان ممن أكد أسباب دولته[٢٩]، ولم يقف عند هذا الحد بل لقب نفسه بسيف الدولة [٣٠]واختط الحلة سنة٤٩٥هـ في موقع بين الكوفة وبغداد، إلى الغرب من الفرات [٣١]، وكانت "أجمة" تأوي إليها السباع [٣٢] فانتقل إليها وجعلها مقراً له، فسميت بالحلة السيفية نسبة إليه[٣٣]، وقد قام صدقة ببناء المساكن الجليلة والدور الفاخرة فيها فأصبحت مقصداً للتجار، وصارت من أفخر بلاد العراق وأحسنها[٣٤]،كذلك أخضع صدقة القبائل الفراتية،وأخذ يعمل لإنشاء إمارة في العراق مستقلة عن نفوذ السلاجقة والخلافة العباسية حتى أطلق عليه ملك العرب[٣٥].

سار سيف الدولة صدقة مع محمد بن ملكشاه في قتال بركياروق عندما قدم الأخير إلى بغداد سنة٤٩٥هـ[٣٦]/١١٠١م، وانضم سيف الدولة صدقة في السنة التالية إلى نجم الدين إيلغازي شحنة بغداد[٣٧] وأخيه سقمان ابني ارتق للوقوف في وجه كمشتكين القيصري الذي أرسله السلطان بركياروق ليتولى شحنة بغداد بدلاً من نجم الدين إيلغازي [٣٨]، ثم أقدم سيف الدولة صدقة في سنة٤٩٦هـ/١١٠٢م على الإستيلاء على" هيت" التابعة لبركياروق[٣٩]، وقام أهل "عانة" بتسليم مدينتهم له[٤٠]، أما مدينة واسط فقد اختلف المؤرخون في كيفية خضوعها له فبينما ذكر المؤرخ ابن الأثير أن سيف الدولة صدقة قد قام بالإستيلاء عليها سنة٤٩٧هـ/١١٠٣م[٤١]، إلا أن هناك رأي آخر أشار إلى أن

محمد بن ملكشاه قد قدمها له بسبب وقوفه إلى جانبه أثناء حربه لأخيه بركياروق[٤٢] .

بعد القتال بين السلطان بركياروق وأخيه محمد قررا التصافي سنة٤٩٧هـ/١١٠٣م، وكتبت قواعد الصلح بينهما وحلف كل منهما لصاحبه، ومن بين شروط الصلح التي عقدت بينهما :أن يكون السلطان بركياروق ومحمد الملك وأن يكون لمحمد أذربيجان وديار بكر والجزيرة والموصل والشام[٤٣]،بالإضافة إلى بلاد سيف الدولة صدقة ماعدا بغداد وواسط،وأن لايذكر بركياروق معه في منبر من منابر البلاد التي صارت له، وأرسل السلطان بركياروق إلى الخليفة المستظهربالله[٤٤] بأمر الصلح وما استقر عليه الأمر، فخطب لبركياروق في بغداد وواسط، فغضب سيف الدولة صدقة من ذلك وأرسل إلى الخليفة العباسي المستظهر رافضاً ذلك الصلح جملة وتفصيلاً، ورفض الخطبة لبركياروق ، وأبلغ الخليفة المستظهر بالله بأنه سوف يقوم باخراج شحنة بغداد نجم الدين إيلغازي منها إذا استمر في إعلان الخطبة لبركياروق[٤٥]، وتقدم صدقة إلى بغداد فخرج منها إيلغازي، وأرسل إلى صدقة يعتذر من طاعته لبركياروق فرضي عنه صدقة وعاد إلى حلته[٤٦] وهكذا نجح سيف الدولة صدقة بالقوة التي مارسها في إفساد الصلح الذي تم بين الأخوين[٤٧]،غير أن السلطان بركياورق لم يعمر طويلا بعدها، فقد توفى في سنة ٤٩٨هـ/١١٠٤م بعد أن استخلف ابنه" ملكشاه" وكان عمره أربع سنوات وثمانية أشهر[٤٨].

استفاد محمد بن ملكشاه من محالفة سيف الدولة صدقة له فبعد وفاة أخيه بركياروق أمده صدقة بقوة عسكرية جعل على رأسها اثنين من ابنائه (بدران ودبيس) للوقوف في وجه أنصار ملكشاه بن بركياروق الصغير[٤٩]، كما أن صدقة كانت له كلمة مسموعة على القبائل العربية في العراق والتي كثيراً ماكانت تثير الفتن ضد الأتراك السلاجقة فخف ضغطها على محمد بن ملكشاه[٥٠].

قدم محمد بن ملكشاه إلى بغداد سنة٤٩٨هـ وخطب له بالسلطنة وقدم عليه سيف الدولة صدقة فأكرمه وأحسن إليه ثم عاد السلطان إلى مقر حكمه في أصفهان وأذربيجان [٥١].

بدأ سيف الدولة صدقة يعمل على توسيع دائرة أملاكه، فاستولى في سنة ٤٩٩هـ/١١٠٥م على البصرة وقد أدى ذلك الأمر إلى قلق السلطان محمد بن ملكشاه فأرسل من يستعيدها، فغضب صدقة ولكي يحرج السلطان محمد بن ملكشاه قام بالإستيلاء على تكريت في سنة٥٠٠هـ/١١٠٦م من أحد رجاله.[٥٢]

أصبحت الحلة إمارة سيف الدولة صدقة مكاناً يستجير به كل خائف من خليفة أوسلطان، أما صدقة فقد عظم أمره، واشتهر ذكره، واستجار به الأكابر من الخلفاء ومن دونهم، وأجار على الخلفاء والملوك، و لم يكد محمد بن ملكشاه يتولى السلطنة حتى تنكر لصدقة وخشى عاقبة أطماعه[٥٣]، كذلك فقد أفسدت بطانة السلطان محمد سنة٥٠١هـ فيما بينه و بين سيف الدولة صدقة ، فطعنوا في اعتقاده ونسبوه وأهل بلده إلى الباطنية،وقد نفى عنه المؤرخ ابن الأثير تلك التهمة وكذب ذلك فذكر " أنما كان مذهبه التشيع لاغير"[٥٤] وكان في جملة ماقالته تلك البطانة عنه" إن صدقة قد عظم أمره وزاد حاله وكثر إدلاله....... وحمايته كل من يفر إليه من عند السلطان وهذا لاتحتمله الملوك"[٥٥]، ومما يؤكد ذلك أنه عندما سخط السلطان محمد على أبي دلف سرخاب بن كيخسرو صاحب"ساوة وآبه"[٥٦] هرب منه، وقصد صدقة مستجيراً به فأجاره، فأرسل السلطان محمد إلى صدقة يطلب منه تسليمه إلى نواب السلطان فرفض، وأجاب إنه لن يمكن أحداً من سرخاب، بل أعتبرنفسه حامياً له وتمثل بما قاله أبوطالب لقريش عندما طلبوا منه رسول الله صلى الله عليه وسلم" لانسلمه حتى نصرع حوله،ونذهل عن أبنائنا والحلائل"[٥٧].

غضب السلطان محمد على سيف الدولة صدقة لعدم إجابة طلبه، فتوجه من أذربيجان إلى العراق في سنة٥٠١هـ، ومأن سمع صدقة بذلك حتى بدأ في

إستشارة أصحابه فيما يفعل فأشار عليه إبنه دبيس بأن يذهب إلى السلطان محمد ومعه الأموال والخيل ليستعطفه، أما قائد جيش صدقة ويدعى سعيد بن حميد فأشار عليه بجمع الجند وإستمالتهم بالمال ثم محاربة السلطان بهم، وقد مال صدقة إلى رأي قائد جيشه فجمع العساكر ووصل عددهم إلى عشرون ألف فارس وثلاثون ألف راجل [٥٨].

أرسل الخليفة المستظهر إلى سيف الدولة صدقة يحذره عاقبة أمره وينهاه عن الخروج على طاعة السلطان، وعرض عليه أن يقوم بدور الوساطة بينه وبين السلطان فرد عليه صدقة بالقول"إنني على طاعة السلطان لكن لا آمن على نفسي عند الإجتماع به"[٥٩] .

وصل إلى السلطان محمد رد سيف الدولة صدقة على الخليفة، وعند ذلك أرسل إلى سيف الدولة صدقة يطيب قلبه ويزيل خوفه وأخبره بعزمه على قصد الفرنج، فقد وصل الخبر أنهم ملكوا الشام[٦٠]،وأمره بالتجهز معه لقتالهم[٦١]، وكانت إجابة سيف الدولة صدقة" أن السلطان قد أفسد أصحابه قلبه علي وغيروا حالي معه، وزال ماكان عليه في حقي من الإنعام"، وذكر المبعوث بسالف خدمته ومناصحته للسلطان، أما قائد جيش صدقة سعيد بن حميد فقد كان رده رد محارب تنقصه الدبلوماسية" لم يبق لنا في صلح السلطان مطمع "،وهدد بأن السلطان لن يرى إلا الفرسان على الركائب"[٦٢].

صمم سيف الدولة صدقة على الإمتناع من الإجتماع بالسلطان محمد الذي وصل إلى بغداد سنة ٥٠٧هـ/١١٠٧م، ولما علم السلطان إصرار سيف الدولة صدقة على عدم المثول بين يديه أرسل إلى الأمراء في النواحي يأمرهم بالوصول إليه والجد في السير وتعجيل ذلك، فوردوا إليه من كل جانب فخاف سيف الدولة صدقة، وأرسل للخليفة العباسي كتاباً مذكراً إياه بأنه واقف عند مايرسم له ويقرر من حاله مع السلطان،وأنه سيلبي مايطلبه منه الخليفة من أمر[٦٣].

أرسل الخليفة المستظهر كتاب سيف الدولة صدقة إلى السلطان محمد فرد بأنه أيضاً ممتثلاً لأوامر الخليفة فيما يحكم به، وعند ذلك طلب الخليفة من صدقة إنفاذ رجلاً من ثقاته ليستوثق له ويحلف السلطان على مايقع الإتفاق عليه، ولكن صدقة عدل عن رأيه وقال إذا رحل السلطان عن بغداد أمددته بالمال والرجال ومايحتاج إليه في جهاد الفرنج، ولكن طالما السلطان موجود ببغداد فلا مال له عندي ولارجال، و أعلن سيف الدولة صدقة أن جاولي سقاوو وإيلغازي الأرتقي أرسلا له بالطاعة والموافقة معه في حرب السلطان محمد،وأنهما مستعدين في الوصول إليه بعسكرهما متى أراد[٦٤].

أرسل السلطان محمد إلى واسط الأمير محمد بن بوقا التركماني،فأخرج نائب سيف الدولة صدقة منها وأمن الناس كلهم إلا أصحاب صدقة فقد تفرقوا، وأنفذ ابن بوقا محمد خيله إلى المدن التابعة لسيف الدولة صدقة فنهبها أقبح نهب[٦٥].

أرسل سيف الدولة صدقة إلى الأمير محمد ابن بوقا ابن عمه ثابت بن سلطان ومعه عسكراً، وظل ثابت واقفاً عند نهر دجلة، أما الأمير محمد بن بوقا فقد اختار جماعة من الجند ممن اشتهروا بالشجاعة، وأرسلهم للوقوف على موضع مرتفع من نهر سالم، فتوجه إليهم ثابت وعسكره،ولكنهم انهزموا بسبب المدد الذي كان يأتي للأتراك من ابن بوقا، وجرح ثابت في وجهه وكثر الجراح في أصحابه، فهرب هو ومن معه وتبعهم الأتراك فقتلوا منهم وأسروا، ونهب طائفة من الأتراك مدينة واسط واختلط بهم رجال ثابت ونهبوا معهم،فسمع ابن بوقا بالأمر فسار إليهم وقد نهبوا البلد فنادى في الناس بالأمان، وبعد خروج رجال سيف الدولة صدقة من مدينة واسط، أقطعها السلطان محمد لقسيم الدولة البرسقي، وأمرالأميرمحمد ابن بوقا بالتوجه إلى الحلة ونهبها [٦٦].

أما السلطان محمد فقد خرج من بغداد لمحاربة سيف الدولة صدقة، فأرسل إليه الخليفة المستظهر يأمره بالتوقف وترك العجلة خوفاً على الرعية من

القتل والنهب، فأجاب السلطان محمد إلى ذلك، كذلك أرسل الخليفة مبعوثين إلى صدقة يأمره بطاعة السلطان وينهاه عن المخالفة فأجاب صدقة المبعوثين بقوله" ماخالفت الطاعة ولاقطعت الخطبة في بلدي" وأمر ابنه دبيساً بالتجهز ليسير إلى السلطان[٦٧].

رأى عسكر السلطان محمد المبعوثين وهم متوجهون إلى بلاط سيف الدولة صدقة فاعتقدوا وقوع الصلح فقال بعضهم : الرأي هونهب شيئاً قبل الصلح، فأجاب البعض وامتنع البعض، فعبر من أجاب النهر، ولم يتأخر ممن امتنع، لئلا ينسب إليهم أنهم خروجيين، ولئلا يتم على من عبر وهن وضعف، ويكمن عليهم عار، فعبروا بعدهم فأتاهم أصحاب صدقة وقاتلوهم، وكانت الهزيمة على الأتراك،وقتل منهم جماعة كثيرة وأسر جماعة من أعيانهم، وغرق جماعة، وكان من جملة من غرق الأمير محمد بن ياغسيان وكان عمره بضع وعشرين سنة[٦٨] .

وفي الوقت الذي كان رسل الخليفة موجودون في بلاط سيف الدولة صدقة في محاولة منهم لرأب الصدع بينه وبين السلطان محمد، جاء إلى صدقة من يخبره أن طائفة من عسكر السلطان قد عبروا وأن الحرب بينم وبين رجاله قائمة على قدم وساق، فتجلد صدقة لأجل المبعوثين، على الرغم أنه كان يتمني الخروج لمساعدة رجاله، أما المبعوثون فقد أنكروا ذلك الأمر، لأنهم قبل وصولهم إلى صدقة تقابلوا مع عسكر السلطان، وطلبوا منهم أن لايدخلوا مع رجال صدقة في حرب حتى عودتهم ومعرفة موقف صدقة من رسالة الخليفة، وعندها انبرى صدقة للمبعوثين قائلاً " كيف أثق أرسل ولدي الآن وكيف آمن عليه وقد جرى ماترون؟" ولكنه وضع شرطاً لمبعوثي الخليفة حتى يرسل ولده معهم، وهو تعهدهم برد ابنه إليه بعد أداء المهمة، ولكن لم يتجاسر أي من المبعوثين على قبول التعهد وعندئذ كتب صدقة إلى الخليفة يعتذر عن إنفاذ ولده[٦٩].

لم يستطع عساكر السلطان محمد إخباره بماجرى خوفاً منه، حيث فعلوا ذلك دون أمره، أما رجال صدقة ومن معهم من العرب فقد افتخروا بهزيمة عساكر السلطان، وباعوا كل أسير لديهم بدينار،بل قام ثلاثة ببيع أسيرواحد بخمسة قراريط، وأكلوا بها خبزاً وهريسة وجعلوا ينادون من يتغذى بأسير ويتعشى بآخر[٧٠].

أعاد الخليفة مكاتبة صدقة بتحرير أمر الصلح، فأجاب صدقة أنه لايخالف مايؤمر به، وكتب صدقة إلى السلطان محمد يعتذر عن الحرب التي كانت بين أصحابه وعساكرالسلطان، وأن جند السلطان عبروا إلى أصحابه فمنعوعن أنفسهم بغير علمه، وأنه لم يحضر الحرب ولم ينزع يده من طاعة السلطان، ولاقطع خطبته من بلده، وكانت هذه المرة الأولى التي يكاتب فيها سيف الدولة صدقة السلطان محمد بعد تغير الأحوال بينهما[٧١].

تدخل الخليفة العباسي المستظهر بين صدقة والسلطان للمرة الثالثة، فأرسل إلى السلطان محمد السلجوقي يطلب الأمان لكل من يقصده من أقرباء صدقة، وأرسل إلى صدقة يخبره إن إصلاح قلب السلطان محمد موقوف على إطلاق سراح الأسرى، ورد جميع ما أخذ من عسكر السلطان المنهزم[٧٢].

لم يظهر من سيف الدولة صدقة إلا الخضوع والطاعة، و خاطب الرسل قائلاً"لو قدرت على الرحيل بين يدي السلطان لفعلت لكن ورائي من ظهري وظهر أبي وجدي ثلثمائة إمرأة ولا يحملهن مكان، ولو علمت أني إذا جئت السلطان مستسلماً قبلني واستخدمني لفعلت، لكني أخاف أنه لايقبل عثرتي ولايعفو عن زلتي" أما بخصوص مانهب من العسكر وإعادته فقد كان لصدقة فيه رأي، وهو أن الذين نهبوا عساكر السلطان كثر، وفيهم من يعرفه صدقة والكثير مما لايعرف، وأن النهاب دخلو إلى البر وصدقة ليس له طاقة عليهم،وقد اشترط سيف الدولة صدقة بعض الشروط طلب من الرسل تبليغها إلى الخليفة ليقوم بدوره بتبليغها إلى السلطان، فإذا قبلا بها فعند ذلك سيقوم صدقة بالذهاب إلى

السلطان محمد، ويطأ بساطه وسيلتزم بإمداده بالمال والرجال لقتال الفرنج[٧٣].

اشترط سيف الدولة صدقةعلى السلطان محمد عدة شروط أولها: عدم معارضته في الأراضي التي يملك،و فيمن يجير من الرجال،والشرط الثاني: هو إقرار سرخاب ابن كيخسرو على إقطاعه بساوة، وثالث تلك الشروط : هو أن يعيد له ابن بوقا مانهبه من بلاده، ولعل صدقة كان يعرف من نهب بلاده فوضع هذا الشرط الذي لم يقبله من السلطان سابقاً،أما آخر شروط صدقة فهو خروج وزير الخليفة إلى السلطان محمد ليحلفه بأغلظ الأيمان على المحافظة على مابينه وبين صدقة[٧٤] .

توجه رسل الخليفة ومعهم أبو منصور بن معروف رسول صدقة إلى بغداد لإبلاغ الخليفة بشروط صدقة، إلا أن تلك الشروط لم تقبل، فأعاد الخليفة الرسل وأصر صدقة على شروطه، وعند ذلك أصبح هناك لامناص من الحرب بين السلطان محمد وسيف الدولة صدقة [٧٥].

خرج السلطان محمد في ثامن رجب سنة٥٠١هـ من بغداد بعد أن استدعى الجموع، وسار سيف الدولة صدقة في عسكره إلى قرية مطير وأمر جنده بلبس السلاح، وأرسل ابن عمه ثابت بن سلطان بن دبيس بن علي بن مزيد إلى السلطان محمد لطلب الأمان،إلاأن صدقة لم يوفق في الإختيار فقد كان ابن عمه حاسداً له، ولذا فما أن قدم على السلطان محمد حتى أظهر خضوعه له، فقام السلطان محمد بإكرامه وأحسن إليه ووعده بإقطاع يخصص له[٧٦].

عبر عسكر السلطان نهر دجلة ولم يكن معهم السلطان، وبذلك أصبحوا مع صدقة في أرض واحدة وهي النعمانية، وكان بينهما نهر والتقوا في التاسع من رجب وكانت الريح في البداية في وجوه عسكر السلطان، فلما التقوا بجند صدقة أصبحت الريح في ظهورهم وفي وجه رجال صدقة[٧٧].

بدأ جند السلطان محمد برمي النشاب، فكان يخرج في كل رشقة عشرة آلاف نشابة، فلم يقع سهم إلا في فرس أو فارس،وكان أصحاب صدقة كلما

حملوا منعهم النهر من الوصول إلى جند السلطان،فأخفقوا وأعياهم القتل وتراجع من الرجال الكثير، ولم يثبت ويظهر شجاعة منقطعة النظير سوى الأكراد ولذا وعدهم صدقة بكل ماهو جميل، أما هو فأخذ ينادي ويصيح" ياآل خزيمة ياآل ناشرة ياآل عوف" أنا صدقة ملك العرب وكان راكباً فرسه " المهلوب" ولم يوجد فرس مثله،فجرح الفرس ثلاث جراحات وحمل صدقة على الأتراك فضربه غلام منهم على وجهه فشوهه، وجعل صدقة يقول " أنا ملك العرب أنا صدقة "فأصابه سهم في ظهره، وأدركه غلام اسمه بزغش كان أشل فتعلق به وهو لايعرفه وجذبه عن فرسه فسقط على الأرض هو والغلام، فعرفه صدقة فقال: يابزغش أرفق فضربه بزغش بالسيف فقتله سنة٥٠١هـ[٧٨] ١١٠٨م، أما المؤرخ العماد الأصفهاني فيذكر أن قتله كان في سنة ٥٠٠هـ[٧٩]١١٠٧م؛ ويشير المؤرخ ميخائيل السوري أنه بقتل دبيس ابن صدقة انتهت مملكة العرب كلياً [٨٠] ولعل المؤرخ قد قصد بذلك الحلة السيفية مملكة صدقة ولكن الباحثة تجد أن المؤرخ قد جانبه الصواب فالحلة لم تنته وتوارثها ابناء دبيس ثم أبنائهم الذي سيتم التطرق إليهم في ثنايا البحث.

بعد مقتل صدقة حذت رأسه وحملت وقدمت إلى آقسنقرالبرسقي، فحملها إلى السلطان محمد في بغداد، ففرح وأمر لبزغش بصلة، أما فرس صدقة المهلوب فقد قام أحد الأمراء بأخذه، وسيره في سفينة إلى بغداد فمات في الطريق، وكان لصدقة فرس آخر ركبه حاجبه أبو نصر بن تفاحة، فلما رأى الناس وقد غشوا صدقة هرب عليه، وبقى صدقة طريحاً في أرض المعركة حتى سمح السلطان بدفنه في المدائن، وكان عمره عند مقتله تسعاً وخمسين سنة، وكانت إمارته إحدى وعشرين سنة [٨١].

أدت تلك المعركة التي دارت بين عساكر السلطان محمد وسيف الدولة صدقة إلى مقتل ثلاثة آلاف من أصحاب صدقة معه، وفيهم جماعة من أهل بيته، وأسر ابنه دبيس بن صدقة، وسرخاب بن كيخسرو الديلمي الذي كانت هذه الحرب بسببه، كذلك أسر سعيد بن حميد العمري قائد جيش صدقة [٨٢].

وصف المؤرخون صدقة بأنه كان جواداً حليماً صدوقاً متواضعاً ديناً، يقرأ ولا يكتب، يحفظ الأشعار ويبادر إلى النادرة، كثير البر والإحسان، وقد كان ملجأ لكل ملهوف،يلقى من يقصده بالبر والتفضل، ويبسط قاصديه ويزورهم، كثير البشر والخير، عادلاً ورعيته معه في أمن ودعة، عفيفاً لم يتزوج على أمرأته ولا تسرى عليها، ولم يصادر أحد من نوابه ولاأخذهم بإساءة، ولم يسمع برعية أحبت أميرها كحب رعيته له، وكان من محاسن الدنيا حاز الأوصاف الجميلة ولقب بملك العرب[٨٣] .

أما بدران بن صدقة وكان يلقب بتاج الملوك فقد هرب بعد مقتل أبيه إلى الحلة، وأخذ من الأموال ما أمكنه، وسير أمه ونساءه إلى البطيحة[٨٤] عند صهره ووالد زوجته مهذب الدولة أبي العباس أحمد بن أبي الجبر، أما هو فلم يقم عنده بل التحق بالأمير مودود التونتكين صاحب الموصل فأكرمه وأحسن صحبته[٨٥]. وقيل أنه بعد وفاة أبيه تغرب عن بغداد ودخل الشام وأقام بها مدة ثم توجه إلى مصر ومات بها سنة ٥٠٢هـ [٨٦]. كذلك هرب منصور بن صدقة مثل أخيه بدران ولكنه في سنة ٥٠٢هـ قدم إلى السلطان محمد فتقبله وأكرمه [٨٧].

أرسل السلطان محمد من بغداد أماناً إلى زوجة سيف الدولة صدقة في البطيحة، وأمرها بالخروج إلى بغداد، وعندئذ أطلق السلطان ابنها دبيساً وأنفذ معه جماعة من الأمراء لإستقبالها، ولما ألتقت ابنها دبيس بكيا بكاءاً شديداً، وعندما تقابلت مع السلطان اعتذر لها عن مقتل زوجها قائلاً" وددت أنه حمل إلي حتى كنت أفعل معه مايعجب الناس به من الجميل والإحسان لكن الأقدار غلبتني" [٨٨]

استحلف السلطان محمد دبيس بن صدقة بالمواثيق الغليظة بعدم الإفساد أو العودة إلى الحلة التي أصبحت في تصرف نواب السلطان،فبقى دبيس قريباً من السلطان محمد، وحصل على الإقطاعات الكثيرة حتى ظن الناس أنه نسى ملك والده، " وقد سلا عن بلده وقنع بما في يده ورضى من السلطان بالرضى

وانقطع طمعه في ملك أبيه الذي أنقضى " على حد قول الأصفهاني[٨٩]، وقد ظل دبيس بن صدقة على عهده مع السلطان محمد حتى وفاة السلطان سنة٥١١هـ/١١١٧م[٩٠] وقيل سنة ٥١٠هـ[٩١]/١١١٦م

تولى بعد وفاة السلطان محمد ابنه محمود، وكان عمره أربع عشر سنة[٩٢] ونظراً لأن محمود لم يبلغ سن الرشد عند توليه مقام أبيه، فقد أجتمعت حوله حاشية كبيرة من أهل الفساد وسوء التدبير، فحسنوا للسلطان الصغير السماح لدبيس بن صدقة بالعودة إلى الحلة، بعد أن أخذوا من دبيس مالاً على سبيل الرشوة[٩٣].

عاد دبيس بن صدقة إلى الحلة(٥١٢-٥٢٩هـ/١١١٨-١١٣٤م) وأجتمع إليه كثير من العرب والأكراد وغيرهم، لما أمتاز به من الجود والكرم، ومعرفة بالأدب والشعر وحب للغزو، فعظم أمره وأرتفع شأنه، وأصبح محط الآمال للعرب في الخلاص مما كانوا يعانونه من سلب حرياتهم على يد الأتراك السلاجقة[٩٤].

أخذ دبيس يحدث نفسه بالخروج عن طاعة السلاجقة واستعادة ماكان لوالده من بلاد، فبدأ بمراسلة جيوش بك أتابك الملك مسعود بن محمد شقيق السلطان محمود[٩٥]، والذي كان قد أقره السلطان محمود على الموصل مع أتابكه جيوش بك بعد وفاة والده السلطان محمد بن ملكشاه [٩٦].

حسن دبيس بن صدقة للملك مسعود بن محمد العصيان على أخيه السلطان محمود بن محمد، لعلم دبيس بصغر سن السلطان وفساد حاشيته،وكان غرضه أن يختلفا فينال من السلطة والجاه مانااله أبوه سيف الدولة صدقة[٩٧]، فلبى الملك مسعود دعوة دبيس وخرج إلى العراق وبصحبته عدد من الرجال منهم أتابكه جيوش بك وعماد الدين زنكي[٩٨]، وعلى الرغم أن زنكي كان من رجال الملك مسعود،إلا أنه أشار على الخارجين بطاعة السلطان محمود، وترك الخلاف عليه وحذرهما عاقبة العصيان، فلم يسمعا نصحه ولكن وصل خبر تلك

النصيحة إلى السلطان محمود فحفظها له[99] .

نجح آقسنقر البرسقي شحنة بغداد في صده الملك مسعود ومن والاه عن دخول بغداد، وحذرهم من المواجهة العسكرية مع السلطان محمود بن محمد فعاد الملك مسعود مع رجاله إلى الموصل سنة ٥١٢هـ/١١١٨م، وفشل دبيس بن صدقة في اثارة الفتنة بين الأخوين السلطان محمود بن محمد والملك مسعود بن محمد[100]، ولكنه عمل جاهداً في إطاعة الخليفة العباسي المسترشد بالله[101]، الذي تولى الخلافة بعد والده المستظهر بالله سنة٥١٢هـ[102]، وفي المقابل كان الخليفة العباسي يعتمد على دبيس في القضاء على الثورات التي حيكت ضده، فعندما خرج أبو الحسن بن المستظهر بالله الملقب بالذخيرة[103] على أخيه الخليفة المسترشد، ودعا إلى نفسه ومضى إلى واسط وتملكها، شق ذلك على الخليفة المسترشد، فبعث إلى دبيس للوقوف في وجه أخيه، وأخبره أنه معول عليه في تلك المهمة، فجهز دبيس نفسه و ما أن سمع أبو الحسن بذلك حتى رحل عن واسط في عسكره ليلاً فضلوا الطريق ولم يروا أنفسهم إلا أمام عسكر دبيس، فهرب أبو الحسن ولم يكن معه ماء فأشرف على الهلاك، فأدركه أحد الأكراد فسقاه [104]، ونهب ماكان معه من مال، وحمله إلى دبيس فطلب الأمان وأمن، ولكن دبيس خان العهد وبعث بأبو الحسن إلى المسترشد بالله، بعد أن تسلم مقابل ذلك عشرين ألف دينار، وبذلك مكن المسترشد من أخيه،وعندما دخل أبو الحسن على أخيه قبل قدمه وبكيا معاً، ثم قال المسترشد:" فضحت نفسك وباعوك كالعبيد." وأسكنه داره التي كان فيها عندما كان ولياً للعهد وأحسن إليه وإلى أولاده وكان ذلك سنة٥١٣هـ[105] .

أما من ناحية سلاطين السلاجقة فقد أدرك دبيس بن صدقة أنه أخطأ الوجهة الصحيحة بالإستعانة بالملك مسعود وأتابكه جيوش بك، وأدرك أن إرجاع ماكان لوالده من بلاد لايتم إلا بالتقرب للسلطان محمود، فمال إلى جانبه ضد خصومه مستغلاً في ذلك النزاع الذي كان قائماً بين السلطان محمود وعمه سنجر بن ملكشاه[106].

أراد السلطان سنجر بن ملكشاه قصد العراق بعد وفاة أخيه محمد ليتملكه، ولما سمع السلطان محمود بذلك أرسل إلى عمه يلاطفه، ولكن سنجر أبى إلا القتال أوتنازل محمود عن السلطنة[١٠٧].

شجع دبيس السلطان محمود على لقاء عمه سنجر بهمذان، وأمده بفرقة عسكرية بقيادة أخيه منصور بن صدقة، والتقى الطرفان في صحراء ساوه، إلا أن الهزيمة حلت بالسلطان محمود ومن معه في، وانتهى الأمر بعقد صلح سنة٥١٣هـ/١١١٩م أصبح بموجبه محمود ولياً لعهد سنجر، وتزوج من ابنته ثم عاد إلى خراسان[١٠٨]. ونتيجة لذلك الصلح خطب للسلطان محمود بن محمد وعمه سنجر ببغداد، وجميع الممالك وتلقب كل واحد منهما بشاه شاه[١٠٩]

غضب دبيس بن صدقة من ذلك الصلح، ولذا فقد قام سنة٥١٤هـ/١١٢٠م بالإتصال بالملك مسعود بن محمد ووعده بالمساعدة إذا خرج بجيوشه إلى بغداد لطلب السلطنة من الخليفة العباسي المسترشد بالله بدلاً من أخيه محمود بن محمد،وحثه على إلقاء القبض على آقسنقر البرسقي شحنة بغداد[١١٠].

سمع آقسنقر بذلك المخطط فهرب إلى همذان، وانضم إلى السلطان محمود وأخبره بما يجري ضده، فاستعد السلطان محمود للموقف، وخرج لملاقاة أخيه مسعود بن محمد، والتقى الأخوان سنة٥١٤هـ/١١٢٠م، وانهزم الملك مسعود نتيجة الخطة المحكمة التي وضعها آقسنقر البرسقي، وهرب مسعود إلى جبل اختفى فيه،إلا أن البرسقي استطاع اللحاق به، وأعاده إلى السلطان محمود فعفى عنه ولكنه جرده من حكم الموصل ومنحه لآقسنقر البرسقي[١١١].

علم دبيس بن صدقة بعفو السلطان محمود عن الملك مسعود، وأنه قادم إلى بغداد وعند ذلك ثارت ثائرته، وخرج من الحلة إلى بغداد فعصى ونهب وسبى، واستولى على بعض ممتلكات السلطان محمود، وافترش أصحابه النساء وأفسدوا إفساداً كلياً، ونصب دبيس خيمته بإزاء منزل الخليفة العباسي المسترشد

بالله،وهدد وتوعد بنهب دار الخلافة، وأظهر الضغائن التي كانت في نفسه،ومنها تذكره كيف حملت رأس والده إلى السلطان، وتوعد بنهب دار الخلافة إذا لم يسع الخليفة إلى محاولة منع السلطان محمود من القدوم إلى بغداد[١١٢].

بذل الخليفة العباسي الكثير من المحاولات في تهدئة دبيس،ووعده بالسعي في الإصلاح بينه وبين السلطان محمود،هذا بالإضافة إلى أن السلطان محمود نفسه أرسل إلى دبيس بن صدقة يطيب خاطره،ويخبره أن الهدف من قدومه إلى بغداد هو تفقد أحوال الرعية، ومد يد العون للمسلمين في بلاد الشام للوقوف في وجه الفرنج[١١٣].

عاد دبيس بن صدقة إلى الحلة قبل وصول السلطان محمود إلى بغداد، لعدم قدرته على الوقوف في وجه السلطان وجيشه، و آثر المسالمة، فبعث زوجته بنت عميد الدولة بن جهير من الحلة، ومعها أموال عظيمة وهدايا سنية إلى السلطان محمود، واعتذر عما بدر منه تجاه الخليفة العباسي، وطلب العفو ووعد بالطاعة فأجابه السلطان ومنحه الأمان[١١٤].

قام بعض رجال دبيس بن صدقة ممن لم يرق لهم الصلح بين دبيس والسلطان محمود بنهب بعض ممتلكات السلطان بالعراق، ونظراً لأن دبيس لم يزجرهم عن ذلك ولم ينفذ ما وعد به السلطان من طاعة، لذا خرج السلطان من بغداد سنة٥١٤هـ/١١٢٠م وقصد الحلة بعسكره بهدف القضاء على دبيس فنهبها و هزم عسكرها[١١٥]، أما دبيس فقدهرب منها بعد أن أخذ نساءه وأمواله، واتجه إلى قلعة جعبر مستجيراً بصاحبها الأمير شهاب مالك بن سالم، فأجاره وأكرمه واحترمه وعقدت بينهما مصاهرة[١١٦]، ثم رحل دبيس إلى ديار بكر وانضم إلى نجم الدين ايلغازي وتزوج من ابنته وأقام عنده مدة من الزمن في ماردين[١١٧].

رغب دبيس في العودة إلى حلته وكان يحتاج إلى من يشفع له عند السلطان محمود، فلجأ إلى يرنقش الزكوي شحنة بغداد، والذي تولى ذلك

المنصب بعد عودة السلطان محمود إليها، إلا أن تلك المحاولة لم تفلح فلجأ دبيس إلى صهره نجم الدين ايلغازي في تلك الشفاعة، فأرسل نجم الدين ابنه حسام الدين تمرتاش البالغ من العمر سبعة عشر عاماً إلى السلطان محمود بن محمد شفيعاً في دبيس بن صدقة، وتعهد نجم الدين ايلغازي أن يرسل إلى السلطان عن كل يوم ألف دينار وفرس، مقابل عودة دبيس إلى الحلة إلا أن تلك الشفاعة لم تحقق الغاية منها[١١٨].

قرر دبيس بعد فشل محاولات الشفاعة العودة إلى الحلة مهما كانت الصعاب، فعاد إليها وأعاد حكمه لها سنة٥١٥هـ[١١٩]/ ١١١٢م، ولاشك أن عودته على الرغم من معارضة السلطان أدت إلى خوفه من مغبة ذلك، فأرسل مبعوثين من قبله إلى السلطان محمود وإلى الخليفة العباسي يعتذر عمابدر منه ويعدهما بالطاعة والإستقامة[١٢٠].

لم يثق الخليفة العباسي المسترشد بالله والسلطان محمود بكلام دبيس،وسيرا إلى الحلة عسكراً فهرب منها دبيس للمرة الثانية وقصد الأزيز[١٢١].

قام يرنقش الزكوى شحنة بغداد بالسعي للصلح بين دبيس والسلطان محمود ونجح في الأمر، إلا أن السلطان اشترط على دبيس بن صدقة تقديم رهائن من قبله، فقدم دبيس أخاه منصور مع بعض رجاله كرهائن مقابل وفاءه بالطاعة، وعليه عاد دبيس إلى الحلة في نفس السنة[١٢٢]ومعه زوجته ابنة إيلغازي الأرتقي، فسير الخليفة العباسي المسترشد إلى ايلغازي يأمره بفسخ نكاح ابنته من دبيس، متعللاً أنها كانت متزوجة بأحد السلاجقة وبعد دخوله بها قبض عليه السلطان محمود واعتقله وهذا مايجعل زواجها من دبيس فاسداً[١٢٣]، كذلك رفض الخليفة العباسي عودة دبيس إلى الحلة لما اعتاد عليه من عدم الوفاء بالعهد، وحتى لايتكرر ماحدث في السابق طالب الخليفة المسترشد من السلطان محمود إبعاد دبيس بن صدقة عن الحلة، ولكن السلطان لم يصغ لرأي الخليفة العباسي والتزم بوعده ليرنقش الزكوى شحنة بغداد، إلا أنه قام في نفس الوقت بتطييب

خاطر الخليفة، وعمل على إزالة الخوف منه، بتعيين آقسنقر البرسقي والي الموصل على شحنكية بغداد وذلك لسببين أولهما: الوقوف في وجه دبيس بن صدقة إذا سولت له نفسه بالخروج عن الطاعة،والثاني: إيناس وحشة الخليفة العباسي المسترشد بالله[١٢٤].

استغل آقسنقر البرسقي منصبه في شحنية بغداد للإنتقام من دبيس بن صدقة، خصوصاً بعد أن علم بوجود منصور بن صدقة رهينة عند السلطان محمود، فأخذ يتحرش به للإيقاع بينه وبين السلطان [١٢٥].

أدرك دبيس نوايا آقسنقر ولذا خرج لحربه سنة٥١٦هـ/١١٢٢م، والتقى الطرفان عند نهر بشير شرقي الفرات،فهزم البرسقي في ذلك اللقاء،ولكن رب ضارة نافعة فقد كانت تلك الهزيمة ظاهرياً،إلا أنها كانت في باطن الأمر نجاحاً إذ أن السلطان محمود بن محمد ما أن سمع بخبر تلك الواقعة، حتى أصدر أوامره بالتشديد على منصور بن صدقة، ونقله إلى قلعة برحين، وعليه فقد نجح البرسقي في الإيقاع بين السلطان محمود ودبيس بن صدقة، ولكنه في نفس الوقت كاتب دبيساً وأطاعه[١٢٦].

سمع دبيس أن السلطان شدد الحبس على أخيه منصور وأنه قام بتكحيل عينيه[١٢٧]، فجز دبيس شعره ولبس السواد وقام بتجهيز رجاله في ٥١٧هـ/١١٢٣م وساروا إلى واسط لنهبها وتخريبها - و كانت تتبع عماد الدين زنكي أحد رجال آقسنقرالبرسقي،والذي كان قد أقطع شحنكية البصرة وواسط - فاستطاع زنكي الوقوف في وجه دبيس بن صدقة ورجاله، وصدهم عن تحقيق هدفهم في الإضرار بواسط[١٢٨]، ولم ييأس دبيس فقد أرسل رجاله إلى نهر ملك، فنهبوا وسفكوا الدماء وأفسدوا وقطعوا الطريق حتى شق ذلك على الحجاج[١٢٩]، وأرسل دبيس إلى الخليفة المسترشد رسالة فيها تهديد ووعيد، بتحريض آقسنقر البرسقي ودفعه لمقاتلة الخليفة فاغتاظ الخليفة من تلك الرسالة، وطلب من البرسقي التقدم لحرب دبيس [١٣٠].

أمر الخليفة بالنداء في بغداد و أن لايتخلف من الأجناد أحد، ، فجاء خلق كثير ففرق فيهم الأموال والسلاح، فلما علم دبيس بذلك الأمر كتب إلى الخليفة يستعطفه ويسأله الرضى عنه، فلم يجبه الخليفة إلى ذلك، ونودي بالنفير وخرج من أهل بغداد عدد كبير لايحصى، وتقدم الخليفة وعبر دجلة، وعليه قباء وعمامة سوداء وطرحة وعلى كتفه بردة الرسول صلى الله عليه وسلم[١٣١]، وفي يده القضيب، وكان البرسقي قد نزل بقرية جهار طاق ومعه عسكره، فلما بلغه خروج الخليفة من بغداد عاد إلى خدمته [١٣٢].

نزل الخليفة بنهر ملك، واستدعى البرسقي والأمراء واستحلفهم على المناصحة في الحرب، ثم ساروا إلى النيل ونزلوا بالمباركة، وعبأ البرسقي أصحابه، ووقف الخليفة من وراء الجميع في خاصته، وجعل دبيس أصحابه صفاً واحداً ميمنة وميسرة وقلباً،وجعل الرجالة بين يدي الخيالة والسلاح، وكان دبيس قد وعد أصحابه بنهب بغداد وسبي النساء، فلما تقارب الجيشان بادر أصحاب دبيس وبين أيديهم الإماء والبغايا يضربن بالدفوف، وأنصاف الرجال بالملاهي، ولم يسمع في عسكر الخليفة المسترشد غير قارئ ومسبح وداع[١٣٣]، وبدأت الحرب فحمل طائفة من عسكر دبيس على ميمنة البرسقي فتراجعت على أعقابها، فلما رأى عسكر واسط وفي مقدمتهم عماد الدين زنكي ذلك عملوا كمين لرجال دبيس، فلما اختلط الناس خرج الكمين على عسكر دبيس فانهزموا، وألقوا أنفسهم في الماء فغرق وقتل وأسر الكثير منهم [١٣٤].

وبعد انتهاء المعركة حمل الأسرى إلى الخليفة المسترشد فأمربضرب أعناقهم صبرا[١٣٥]، ووقع نساء دبيس وسراريه في الأسر، ماعدا زوجتيه بنت عميد الدولة بن جهير وبنت نجم الدين إيلغازي،ثم عاد الخليفة إلى بغداد فدخلها يوم عاشوراء من نفس السنة[١٣٦].

أما دبيس بن صدقة فإنه لما انهزم ترك بلاده وحمل ماقدر عليه من العين والعروض على ظهور المطايا، و نجا بفرسه وسلاحه، ولحقت به الخيل

فهرب منها إلى البصرة ثم الشام[١٣٧]، فرأته امرأة عجوز وقد عبر فقالت له "دبير جئت فقال دبير من لم يجئ"[١٣٨] واختفى خبره، ولحقه شحنة بغداد آقسنقر البرسقي مع من اجتمع إليه من الأجناد ولكنهم لم يعثروا عليه فظنوا أنه قتل، ولكنه قصد غزية من عرب نجد فطلب منهم أن يحالفوه فامتنعوا عليه، وقالوا: لانسخط الخليفة والسلطان،فرحل إلى المنتفق واتفق معهم على قصد البصرة وأخذها، فساروا إليها ودخلوها ونهبوا أهلها . فارسل الخليفة إلى البرسقي يعاتبه على إهماله أمر دبيس، حتى تم له من أمر البصرة ماأخربها، فتجهز البرسقي لحرب دبيس، وعندها فارق دبيس البصرة واتجه إلى قلعة جعبر، مستجيراً بصاحبها الأمير شهاب مالك بن سالم بن بدران فأجاره وأكرمه واحترمه، وغاضب المسترشد والسلطان محمود من أجله، وعندما طالبا بتسليمه بكى دبيس ولكن سالم أحضر كتاب المسترشد والجواب عليه برفض تسليمه"أنا والله لاأسلمه أبدا" فطاب قلب دبيس عند ذلك واطمأن وعقدت بينه وبين سالم مصاهرة[١٣٩] وأصبح مالك بن سالم وسيطاً بين دبيس والفرنج، فاتفقوا على حصار حلب سنة٥١٨هـ/١١٢٤م، التي كان يحكمها تمرتاش بن إيلغازي الأرتقي والذي تركها وفضل الإقامة في ماردين[١٤٠].

وإذا تساءلنا عن الأسباب التي دفعت الفرنج للتفكير في أمر الإستيلاء على حلب نجد أن ذلك يعود إلى أمرين هاميين أولهما هو امتلاك الفرنج لمدينة صور[١٤١] فطمعوا وقويت نفوسهم وأيقنوا أنهم قادرين على امتلاك الشام فاستكثروا من الجموع، أما الأمر الثاني فيرجع إلى أن دبيس بن صدقة أجتمع بهم وأطمعهم بحلب طمعاً ثانياً وقال لهم:" إن أهل حلب شيعة وهم يميلون إلي من أجل المذهب فمتى رأوني سلموا البلد لي وأنا هاهنا نائباً عنكم ومطيعاً لكم"[١٤٢]

كاتب دبيس قوماً من أهل حلب وأنفذ إليهم جملة من الدنانير، وطلب منهم تسليم حلب إليه، وكشف الأمر وأطلع على ذلك تمرتاش بن إيلغازي، فأخذهم وعذبهم وشنق بعضهم، وأحرق بعضاً[١٤٣].

اتفق دبيس مع جوسلين الثاني دي كورتناي[١٤٤] Goscelin of Courtenay(٥٢٦-٥٤٤/١١٣١-١١٥٠)، ومع الملك بلدوين الثاني[١٤٥] Baldwin II(٥١١-٥٢٤هـ/١١١٨-١١٣٠م) وبقية الفرنج وصافهم وصافوه ضد تمرتاش بن إيلغازي، وكان الوسيط بينهم مالك بن سالم صاحب قلعة جعبر[١٤٦]، واتفق دبيس والفرنج على أمور تعاهدوا عليها منها: أن تكون حلب لدبيس، والأموال والأرواح للفرنج مع مواضع من حلب[١٤٧].

خرج دبيس وجوسلين من تل باشر،وقصدا ناحية وادي بزاعة [١٤٨]، وأفسدا القطن والدخن وسائر ماكان به، وكان يقدر بمائة ألف دينار، ورحلا ونزلا مع بلدوين على حلب [١٤٩].

عسكربلدوين ملك الفرنج خارج حلب، ونزل جوسلين الثاني على طريق عزاز وما يجاوره يمنة ويسرة، ونزل دبيس مما يلي جوسلين من الشرق، وفي صحبة دبيس عيسى بن سالم بن مالك وابنه صدقة، ونزل ياغي سيان بن عبد الجبار بن ارتق صاحب بالس ممايلي دبيس من الشرق، وكانت عدة الخيم ثلاثمائة، للفرنج مائتي خيمة، وللمسلمين مائة[١٥٠]. وهكذااجتمع على حلب رايات أولئك الغازون[١٥١].

أقام الحلفاء على حلب محاصرين لها،ووطنوا أنفسهم على المقام الطويل فيها حتى يتم لهم تملكها،فبنوا البيوت لتقيهم البرد والحر[١٥٢]، وقطعوا الشجر وخربوا المشاهد والضياع، ونبشوا قبور موتى المسلمين،وأخذوا توابيتهم إلى الخيم وجعلوها أوعية لطعامهم، وسلبوا الأكفان، وعمدوا إلى الموتى الذين لم تتقطع أوصالهم فربطوا في أرجلهم الحبال، وسحبوهم مقابل المسلمين وجعلوا يقولون "هذا نبيكم محمد" وآخر يقول "هذا عليكم "، وأخذوا مصحفاً من بعض المشاهد بظاهر حلب وقالوا: " يامسلم أبصر كتابك"، وثقب أحد الفرنج المصحف بيده وشده بخيطين، وعمله ثفراً لبرذونه فظل البرذون يروث عليه، وكلما أبصر الفرنجي الروث على المصحف صفق بيديه وضحك عجباً وزهواً[١٥٣].

قام الفرنج كلما ظفروا بمسلم قطعوا يديه ومذاكيره، ودفعوه للمسلمين، ولذا قام المسلمون بالفعل نفسه مع من يأسرونه من الفرنج، وربما شنق المسلمون بعضهم وكانوا يخرجون من باب العراق فيقطعون على الفرنج الطريق،ويقتلون ويأسرون ويصيحون على دبيس من الأسوار "دبيس يا نحيس"[١٥٤].

خرج قاضي حلب وبعض أشرافها إلى تمرتاش بن إيلغازي في ماردين مستغيثين إليه ومستصرخين[١٥٥]،فوجدوا أن أخيه سليمان صاحب ميافارقين قد مات[١٥٦]، فانشغل تمرتاش بأملاك أخيه عن حلب و عن قصد الفرنج، والحلبيون عنده يمنيهم ويماطلهم[١٥٧].

علم الفرنج بخروج الحلبيين فسيروا خلفهم من يلحقهم فلم يدركهم، وعند الصباح صاحوا في أهل حلب " أين قاضيكم؟ وأين شريفكم؟"، فخاف أهل حلب على المبعوثين حتى وصل منهم كتاباً يخبر بسلامتهم.[١٥٨]

بقي الحلبيون عند تمرتاش يحثونه على التوجه إلى حلب، ووعدوه بأنه لايرغبوا سوى وصوله لجمع كلمتهم، وعندئذ يكفونه أمرهم، ولكنه استمر في المماطلة دون الفعل[١٥٩] .

ضاق الأمر بالحلبيين إلى حد أنهم أكلوا فيه الكلاب والميتات وقلت الأقوات، ونفذ صبرهم وفشا فيهم المرض، فكان المرضى يئنون من شدة المرض،فإذا ضرب البوق لهجوم الفرنج قام المرضى كأنما نشطوا من عقال، وزحفوا على الفرنج وردوهم على أعقابهم، ثم يعودون إلى مضاجعهم[١٦٠].

استمر أهل حلب في أرسال الكتب إلى تمرتاش، والتي كانوا يصفون فيها حالهم فيغضب من ذلك ويقول لمن حوله" أنظروا إلى هؤلاء يتجلدون علي، ويقولون إذا وصلت فأهل حلب يكفونك أمرهم، ويغررون بي حتى أصل في قلة وقد بلغ بهم الضعف إلى هذه الحالة"[١٦١].

أمر تمرتاش بعض رجاله بالتضييق على أهل حلب حتى لايناشدوا أحداً

غيره، ولكن قام بعضهم وشرعوا في إعمال الحيلة والهرب إلى آقسنقر البرسقي ليستصرخوا به، واحتالوا على الموكلين بهم حتى ناموا، وعندئذ خرجوا حتى وصلوا إلى الموصل، فوجدوا البرسقي مريضاً، والناس قد منعوا من الدخول عليه إلا الأطباء، ووصل خبر مرض آقسنقر إلى دبيس بن صدقة فزف البشارة إلى عسكره وارتفع صوته بالتكبير والتهليل،ونادى بعض رجاله في أهل حلب " لقد مات من أملتم نصرته"، فشق ذلك على أهل حلب،حتى كادت أن تزهق أرواحهم خوفاً[١٦٢] .

استأذن الوفد الذي خرج من حلب لمقابلة آقسنقر فأذن لهم، فدخلوا عليه واستغاثوا به وذكروا له ما أهل حلب فيه من الضر، وشرحوا له مانزل بهم وسألوه إنجادهم على دبيس والفرنج الكافرين فأكرمهم،إلا أنه قد ضاق صدره وقال لهم ترون ماأنا فيه الآن من المرض، ولكن قد جعلت لله نذراً إن عافاني من مرضي لأبذلن جهدي في أمركم، والذب عن بلدكم وقتال أعدائكم، ولأفرجن عن حلب الشدة فمامضى ثلاثة أيام بعد ذلك حتى فارقته الحمى، فخرج من داره ونادى في العساكر بالتأهب للجهاد [١٦٣]، والمسير إلى أهل حلب وصرف الإهتمام لمساعدتهم [١٦٤].

كانت حالة أهل حلب تسير من سيء إلى أسوء، وخلت من الرجال والميرة،ولم يبق فيها إلا مائتين وستين رجلاً مع قلة من النساء، وأشرف الفرنج على أخذ البلد وأمهلوا من بقى في حلب عشرة أيام، ولماكان اليوم التاسع عزم أهل حلب على الفرار ليلاً بالنساء[١٦٥]، فأرسل الله تعالى سيلاً عظيماً في قويق، وذلك قبل العصر فاقتلع خيم العدو، وأغرق منهم خلقاً عظيماً، وأتلف لهم مالاً جزيلاً[١٦٦] .

رحل البرسقي إلى حلب سنة ٥١٨هـ/١١٢٤م، بعد أن وفدت إليه نجدات من حمص ودمشق بلغ عددها سبعة آلاف فارس وأربعة آلاف دابة محملة بالمؤن[١٦٧]، ووصل إليها ليلاً في اليوم التاسع من المهلة التي أعطاها الفرنج

لأهل حلب[١٦٨] فوجد أن الفرنج قد ابتعدوا عن حلب بسبب السيل من جهة، ولأن دبيس أخبر الفرنج بقدوم البرسقي، فرحلوا جميعاً إلى جبل جوشن،[١٦٩] تاركين خيامهم، التي خرج إليها الحلبيون فنهبوها،ونالوا منها ماأرادوا[١٧٠].

وصل البرسقي إلى حلب فخرج أهلها لإستقباله، وساروا معه نحو الفرنج الذين فروا إلى جبل جوشن، وقد كان البرسقي يسير وراءهم على مهل حتى أبعدوا ،وتبعتهم خيوله فقتلوا منهم وأسروا، ولطف الله سبحانه وتعالى بأهل حلب وخلصهم من البلاء، وكسب آقسنقر بهذا الفعل الجميل جزيل الأجر والثناء، ودخل حلب فأحسن فيها السيرة، "وأجمل المعاملة لأهلها، واجتهد في حمايتها، والمراماة دونها، بحيث صلحت أحوالها، وعمرت أعمالها،وأمنت سابلتها، وتواصلت الرفق إليها ببضاعتها وتجارتها"[١٧١].

وهكذا ساهم دبيس بن صدقة ومن انضم إليه من الأمراء إلى إحداث الفرقة بين صفوف المسلمين،وحقق رغبة الصليبيين في ضرب المسلمين بعضهم ببعض، وعمل على إيجاد نوع من التوتر في حلب، ممأدى إلى خروجها من حكم الأراتقة إلى حكم آقسنقر البرسقي صاحب الموصل[١٧٢] .و يلقي أحد المؤرخين سبب إلتجاء دبيس إلى الصليبيين إلى عدم حسن تصرف الخلافة العباسية، وسلاطين السلاجقة تجاه ذلك الزعيم العربي، إذ أن علاقته بالصليبيين كانت نتاج لتكالب الخليفة العباسي وسلطان السلاجقة ضده وهزيمته من قبلهم سنة٥١٦هـ/١١٢٢م، ولذا كان عليه أن يولي وجهه تجاه قوة تساعده لإستعادة مكانته فاتجه للصليبيين، ووضع ذلك المؤرخ مبرراً آخر لدبيس وهو أن بعض القوى الإسلامية في بلاد الشام وغيرها، لم تدرك حقيقة الحركة الصليبية وأهداف الصليبيين التوسعية[١٧٣].

وللباحثة رأي آخر فيما أورده ذلك المؤرخ،فخيانة الدين والوطن والإرتماء في أحضان المعتدين الكافرين، ومساعدتهم في الإستيلاء على المدن الإسلامية، هو جريمة لاتغفرها الهزيمة، وأما عدم أدراك دبيس وبعض القوى

الإسلامية لحقيقة الحركة الصليبية في ذلك التاريخ، فهو أمرغير مقبول فقد رسخت أقدام الصليبيون في بلاد الشام، وتمكنوامن إقامة مستعمرات لهم في الرها وأنطاكية وبيت المقدس وطرابلس وغيرها من المدن الإسلامية، وعرف القاصي والداني بمجيئهم واستيطانهم في بلاد الشام، ومنهم سيف الدولة صدقة والد دبيس، ولولا مادار بين صدقة وبين السلطان محمد من خلافات، لأمد سيف الدولة صدقة السلطان بالمال والرجال لمقاتلة الفرنج.

بعد فشل دبيس بن صدقة وحلفائه من الفرنج والمسلمين في تملك حلب، فارق دبيس أولئك الحلفاء، والتحق بالملك طغرل ابن السلطان محمد في الشام، وأقام معه فأكرمه طغرل وأحسن إليه وجعله من أعيان خواصه وأمرائه، وعند ذلك حسن له دبيس قصد العراق وهون أمره عليه، وضمن له ملكه، وحثه على النيل من الخليفة المسترشد بالله، واجباره على إعلان الخطبة بالسلطنة له دون أخيه محمود بن محمد[١٧٤].

سار طغرل ومعه عساكره ودبيس إلى العراق، فأخبر الخليفة بالخبر فتجهز للمسير لمنعهم، وجمع العساكر والأمراء، وأمر يرنقش الزكوي شحنة العراق أن يخرج معه لحربهم[١٧٥].

غادر الخليفة المسترشد بغداد،واستقر الأمر بين دبيس وطغرل أن يقيم دبيس ليحفظ المعابر، ويتقدم طغرل إلى بغداد ليتملكها، فقدر الله سبحانه وتعالى أن يصاب طغرل بحمى شديدة، يضاف إلى ذلك فقد نزل على دبيس ورجاله مطر لم يشاهدوا مثله وزادت المياه وجاءت السيول[١٧٦]، فلقى دبيس وأصحابه من المطر والبلل ماآذاهم، وليس معهم مايأكلون ظناً منهم أن طغرل ورجاله يلحقونهم فتأخروا، فنزل دبيس ورجاله جياعاً قد نالهم البرد، وإذ قد طلع عليهم ثلاثون جملاً تحمل الثياب المخيطة، والعمائم والأقبية والقلانس وغيرها من الملبوس، وتحمل أيضاً أنواع الأطعمة المصنوعة وقد حملت من بغداد إلى الخليفة فاستباحها دبيس مع رجاله وأخذوا الثياب الجدد ونزعوا الثياب الندية،

وأكلوا الطعام وناموا في الشمس لما نالهم في الليلة السابقة [١٧٧] .

بلغ الخبر أهل بغداد فلبسوا السلاح وظلوا في حراسة بغداد ليلاً ونهاراً، ووصل الخبر إلى الخليفة وعسكره أن دبيس ملك بغداد، فرحل الخليفة وعساكره من الموضع الذي اتخذوه خارج بغداد واتجهوا عائدين إليها، فوجدوا الأرض قد وحلت من المطر، فلم يستطعوا السير، فألقوا بأثقالهم في الطريق، ولولا أن الله تعالى لطف بهم بالحمى التي أصابت الملك طغرل وإلا كان قد هلك العسكر والخليفة أيضاً [١٧٨].

جد الخليفة وعسكره في السير، فصادفوا المكان الذي كان يعسكر فيه دبيس فوجدوه وأصحابه نيام، فلما أبصر دبيس الخليفة قبل الأرض بين يديه وقال" أنا العبد المطرود فليعف أمير المؤمنين عن عبده، " فرق قلب الخليفة له وهم بصلحه ولكن أحد وزراء الخليفة أثناه عن رأيه، فعاد الخليفة العباسي إلى بغداد منتصراً دون أن يقبض على دبيس[١٧٩].

أما دبيس فقد التقى بعد مشقة بالملك طغرل، وعندئذ سار الإثنين معاً إلى السلطان سنجر[١٨٠]، وعند وصولهما إلى همذان أجبروا أهلها على دفع أموالاً كثيرة لهما، فأخذوها وتنقلا في تلك النواحي من مكان إلى مكان آخر، فبلغ خبرهما السلطان محمود فجد السير إليهما، فهربا حتى وصلا إلى خراسان، فتقابلا مع السلطان سنجر بن ملكشاه عم السلطان محمود [١٨١]، وشكيا إليه الخليفة ويرنقش الزكوي، وأخبراه أن الخليفة العباسي قد اشتد عوده، وكثر جمعه وأن هدفه الإستغلال والتحرر من السلاجقة، وعندئذ أبقى السلطان سنجر دبيس بن صدقة عنده [١٨٢] .

أصدر السلطان محمود السلجوقي أوامره إلى عماد الدين زنكي بالمسير إليه، وأمره بمراعاة أحوال واسط، ومراقبة تحركات الخليفة المسترشد بالله الذي كان قد أشيع عنه في بلاط السلطان محمود أنه قد باشر الحروب وجند الجيوش، فقام عماد الدين زنكي بالمهمة خير قيام، فعظم ذلك عند السلطان وزاد محله

عنده[١٨٣].

وفي نفس الوقت اعتبر السلطان محمود أن النصر الذي حققه الخليفة على الملك طغرل بن محمد ودبيس بن صدقة في صالحه،وكتب إلى الخليفة المسترشد يشكره على المحافظة على بغداد من سيطرة طغرل" قد بلغني مافعلت لأجلي وأنا خادمك وسائر إليك" وأخبره أنه سيقف مع الخليفة العباسي يداً واحدة ضد عمه السلطان سنجر بن ملكشاه بخراسان، فتراسلا وتعاهدا على ذلك[١٨٤].

أما السلطان سنجر فنظر إلى انتصار الخليفة العباسي على دبيس وطغرل نظرة مختلفة، حيث كتب إلى ابن أخيه السلطان محمود سنة٥٢٠هـ/١١٢٦م كتاباً طلب فيه الأخذ على يد الخليفة،وكفه عن مشروعاته التوسعية والبقاء على ماكان عليه آباؤه وأجداده، وحذرالسلطان سنجر ابن أخيه بالقول"أنت صبي والخليفة قد عزم على أن يمكر بك فلا تصغ إليه ولاتؤمن غائلته"[١٨٥]

أدرك السلطان محمود بعد أن قرأ رسالة عمه ماكان يهدف إليه الخليفة العباسي المسترشد، وممازاد التأكيد لديه أن يرنقش الزكوي شحنة بغداد قد جرى بينه وبين نواب الخليفة المسترشد بالله نفرة تهدده الخليفة من أجلها[١٨٦]، فخاف على نفسه وفر من بغداد سنة ٥٢٠/١١٢٦م هارباً، وقصد السلطان محمود وشكا إليه وحذره جانب الخليفة[١٨٧]، وأعلمه أن المسترشد بالله قاد العسكر و لقى الحروب و قويت نفسه، فإذا تأخر السلطان محمود عن قصد العراق ودخول بغداد، فسيزداد الخليفة قوة ومنعة وربما يمنع السلطان محمود من الدخول إليها،" وحينئذ يتعذر عليك ماهو الآن بيده"[١٨٨]

كان لحديث يرنقش الزكوي أثره على السلطان محمود، الذي قرر القدوم إلى بغداد، فخاف الخليفة العباسي من قدومه فأرسل إليه ينهاه عن المجيء، وأخبره أن الغلاء قد اشتد بالناس لعدم وجود الغلات والأقوات، بسبب هرب الأكرة عن بلادهم بعد تخريب دبيس بن صدقة، وهي لاتفي بالخليفة والسلطان فإما الخليفة فيها وإما السلطان[١٨٩].

أكد رد الخليفة المسترشد بالله للسلطان مانقله إليه يرنقش الزكوي ولذا فقد رفض السلطان ما وصله من الخليفة العباسي جملة وتفصيلاً وصمم على دخول بغداد [١٩٠]

وصل السلطان السلجوقي محمود إلى بغداد في سنة ٥٢٠هـ[١٩١]/١١٢٦م، ١١٢٦م ونزل بالجانب الشرقي ودخل بعض عسكره إلى بغداد ونزلوا في دور الناس فشكا الناس ذلك إلى السلطان فأمر بإخراجهم وبقى فيها من له دار فقط[١٩٢].

خرج الخليفة العباسي مع أهله وحرمه ومن عنده من أولاد الخلفاء إلى الجانب الغربي[١٩٣]، مظهراً للغضب والإنتزاح عن بغداد، فلما خرج من داره بكى الناس جميعهم بكاءً عظيماً لم يشهد مثله، ولما علم السلطان بذلك اشتد عليه الأمر، وبلغ منه كل مبلغ، فأرسل يستعطف الخليفة ويسأله العودة إلى داره، ولكن الخليفة صمم على خروج السلطان من بغداد،لأن الناس هلكى من شدة الغلاء وخراب البلد، ورأى عدم زيادة المشقة على أهل بغداد، فإما أن يعود السلطان من حيث أتى، وإلا سيرحل الخليفة عن بغداد لئلا يشاهد مايلقى الناس بإقامة عسكر السلطان معهم[١٩٤].

غضب السلطان محمود لقول الخليفة ومما زاد في غضبه إرسال الخليفة إلى واسط عفيفاً الخادم مع بعض العسكر ليمنع عنها نواب السلطان، فأرسل السلطان محمود عماد الدين زنكي إلى عفيف الخادم محذراً له عن التمادي في القتال مع الأمر له بمغادرة واسط، فأبى، وعندئذ دار القتال بين عماد الدين زنكي وعفيف، فانهزم عسكر عفيف وقتل منهم مقتلة عظيمة وأسر الكثير، وتغافل عماد الدين زنكي عن عفيفاً حتى نجا لمودة كانت بينهما [١٩٥].

راسل السلطان الخليفة ليطلب منه الصلح و العودة إلى بغداد ولكن الخليفة امتنع عن ذلك هذا في الوقت الذي كانت تجري بين العسكريين بعض المناوشات، أما أهل بغداد فقد اخذوا من الجانب الغربي يسبون السلطان محمود

بأفحش السباب [١٩٦].

أرسل السطان محمود إلى عماد الدين زنكي بواسط يأمره أن يحضر بنفسه ومعه المقاتلة في السفن وعلى الدواب في البر، فجمع كل سفينة في البصرة إلى بغداد وشحنها بالرجال المقاتلة وأكثر من السلاح،فلما قارب بغداد ركب السلطان والعسكر إلى لقائهم، فنظر الناس إلى مالم يروا مثله، وعظم عماد الدين في أعينهم وعزم السلطان على قتال الخليفة حينئذ والجد في ذلك سواء في البر او الماء، فلما رأى الخليفة المسترشد بالله الأمر على هذه الصورة، أجاب السلطان إلى الصلح[١٩٧]، واعتذر السلطان مما جرى وكان حليماً يسمع سبه بأذنيه فلا يعاقب عليه، وعفا عن أهل بغداد جميعهم، وكان أعداء الخليفة يشيرون على السلطان بإحراق بغداد فلم يفعل، وقال:" لاتساوي الدنيا فعل مثل هذا"[١٩٨]

أقام السلطان محمود ببغداد سنة واحدة كان الخليفة يحمل له من المال ماستقر الصلح عليه، وأهدى له سلاحاً وخيلاً، وبعدها مرض السلطان فأشار عليه الأطباء بالرحيل عن بغداد[١٩٩].

فكر السلطان محمد قبل رحيله في الرجل الذي يمكنه أن يوليه شحنكية بغداد والعراق لتوطيد الأمن والأمان فيها، فوقع اختيار الخليفة المسترشد على عماد الدين زنكي، [٢٠٠]،وعندئذ لم ير السلطان في الرجال أصلح من عماد الدين زنكي[٢٠١]، ولكنه رغب في استشارة أهل الحل والعقد فرحبوا بذلك وقالوا:" لاتقدر على رقع هذا الخرق وإعادة ناموس هذه الولاية ولاتقوى نفس أحد على ركوب هذا الخطر غير عماد الدين زنكي" فوافق ذلك القول ماعنده فأسند إليه الولاية وفوضه، مع ماله من الإقطاع، وعليه فقد أطمأن قلب السلطان لأنه أسند العراق إلى الكافي القيم بأمره[٢٠٢]، وبعد ذلك غادر السلطان محمود بغداد إلى همذان ولما وصلها شافاه الله[٢٠٣]

قتل آقسنقر البرسقي أمير الموصل في سنة ٥٢٠هـ[٢٠٤]/١١٢٦م وعند

ذلك ورد رسول من عند السلطان سنجرإلى بغداد، يطلب من الخليفة المسترشد تسليم الموصل وجميع ماكان بيد آقسنقر لدبيس بن صدقة الذي كان مقيماً عنده، وتهيأ دبيس بالمسير من عند سنجر إلى العراق لتولى مهام منصبه، ولكن السلطان محمود عين عز الدين مسعود ولد آقسنقر على الموصل مكان والده، إلا أن عز الدين توفى سنة٥٢١هـ[٢٠٥]/١١٢٧م، أي بعد سنة من توليه أمر الموصل، فساءت أحوالها [٢٠٦].

سعى عماد الدين زنكي إلى توطيد علاقاته بالخليفة المسترشد بالله بعد أن تولى شحنكية بغداد، وعندما ساءت أحوال الموصل بعد وفاة عز الدين بن مسعود ، قرر الخليفة المسترشد أن يكون زنكي أميراً على الموصل، وفي نفس الوقت كتب السلطان محمود إلى الخليفة العباسي بتولية دبيس بن صدقة عليها، ولكن الخليفة قبح ذلك الرأي، ورد عليه بأن ذلك لايكون أبداً، فقد أعان دبيس الفرنج على المسلمين وكثر سواد الكفار[٢٠٧] "، وأن دبيس لايصلح أن يكون جاراً لنا"[٢٠٨]، وأظهر له كراهة ذلك، وأشار عليه بتولية عماد الدين زنكي على الموصل، وبذل الخليفة للسلطان مائة ألف دينار لقبول ذلك،فقبل وولى عماد الدين زنكي على الموصل لما يعلمه من كفايته لما يليه، فأحضره بهمذان وولاه الموصل وديار الجزيرة ونصيبين وماكان بيد البرسقي[٢٠٩] كله وكتب منشوراً بها، وضم إليه ولديه ألب أرسلان وفرخشاه المعروف بالخفاجي ليشرف على تربيتهما ولقب بأتابك[٢١٠].

أقام عماد الدين زنكي في الموصل يصلح أمورها ويعيد نظامها،فلما فرغ من ذلك خرج إلى أرض الجزيرة وتملكها الواحدة بعد الأخرى، ثم هادن الصليبيين لكي يتفرغ لإصلاح البلاد وجند الأجناد،وكان أهم ماكان يصبو إليه هو عبور الفرات إلى الشام وتملك مدينة حلب وغيرها من البلاد الشامية [٢١١].

سار عماد الدين زنكي إلى الشام في جيوشه ، فملك في طريقه مدينة منبج، وبزاعة، والرحبة[٢١٢] ثم سار إلى حلب فخرج أهلها إليه والتقوه

واستبشروا بقدومه، ودخل البلد فسلمت إليه وملكها[٢١٣]، فلطف الله بالمسلمين بولاية عماد الدين زنكي لها، وإلا استولى الفرنج على الشام جميعه[٢١٤].

وفي سنة ٥٢٢هـ/١١٢٨م خرج السلطان سنجر من خراسان في جيشه إلى العراق، وكان سبب خروجه أن دبيس بن صدقة والملك طغرل عندما قابلاه في خراسان كما سبقت الإشارة أطمعاه في العراق، وسهلا عليه قصدها، وألقيا في نفسه أن الخليفة المسترشد والسلطان محمود متفقان على قتاله[٢١٥]، ولم يزالا به حتى أجابهما، وعندما وصل سنجر إلى الري وهو في طريقه إلى العراق سمع أن السلطان محمود موجود في همذان، فأرسل يستدعيه إليه لينظر هل هو على العهد أم تغير؟[٢١٦] .

بادر السلطان محمود بالمسير إلى عمه، فتفاهما وتصالحا،وأقام السلطان محمود عند عمه فترة من الزمن في الري، عاد بعدها سنجر إلى خراسان، بعد أن سلم دبيس بن صدقة إلى السلطان محمود، ووصاه بإكرامه وإعادته إلى بلده، فعاد دبيس مع السلطان محمود إلى العراق[٢١٧].

وصل السلطان محمود إلى بغداد ومعه دبيس بن صدقة ليصالحه مع الخليفة، إلا أن الخليفة لم يقبل العفو فقرر السلطان محمود تولية دبيس بن صدقة على الموصل وبذل مائة ألف دينار له[٢١٨].

علم عماد الدين زنكي برغبة السلطان محمود في تولية دبيس على الموصل فماكان منه إلا أن حضر ومعه مائة ألف دينار وهدايا جليلة للسلطان[٢١٩]، وأقام عنده ثلاثة أيام فخلع عليه السلطان محمود، وأعاده إلى الموصل مرة أخرى، أما السلطان محمود فقد غادر إلى همذان ومعه دبيس بن صدقة بعد أن عهد بشحنكية بغداد والحلة إلى رجل يقال له بهروز[٢٢٠].

لما رحل السلطان محمود إلى همذان مرض مرضاً شديداً، وماتت زوجته وهي ابنة عمه السلطان سنجر، وكانت تلك المرأة تعتني بدبيس بن صدقة وتدافع عنه، فلما ماتت انحل أمر دبيس، وسرق ابناً صغيراً للسلطان وقصد العراق[٢٢١]،

وكان بهروز بالحلة، فما أن اقترب منها دبيس حتى فر منها بهروز، ولما سمع السلطان محمود بالأمر طلب من أميرين من أمرائه كانا قد ضمنا دبيس لدى السلطان وقال لهما " أنتما ضمنتما دبيساً مني وأريده منكما " فسارا الأميران للعراق للقبض على دبيس وكف شره عن البلاد والعباد والعودة به إلى السلطان[٢٢٢].

سمع دبيس بالخبر وعليه فقد أرسل إلى الخليفة العباسي يستعطفه، ويقول له:" إن رضيت عني فأنا أرد أضعاف ما أخذت وأكون العبد المملوك "، وبينما كانت الرسل تتردد بينه وبين الخليفة، أخذ دبيس يجمع المال والرجال فاجتمع معه عشرة آلاف فارس، ووصل إلى العراق أحد الأمراء الذين كلفهما السلطان بالقبض على دبيس وسار في أثره [٢٢٣].

خرج السلطان محمود من همذان إلى العراق سنة٥٢٣هـ/١١٢٩م[٢٢٤]، ولما سمع دبيس بذلك أرسل إليه هدايا جليلة المقدار، وبذل ثلثمائة حصان منعلة بالذهب، ومائتي ألف دينار ليرضى عنه السلطان، والخليفة فلم يجيباه إلى ذلك[٢٢٥].

اضطر دبيس الرحيل إلى البرية وقصد البصرة، وأخذ منها أموالاً كثيرة ونهب ما للخليفة والسلطان هناك من الدخل، وأفسد وأحرق ونهب وعاث وأخرب البلاد، ومامر ببلد ولاقرية إلاأفسدها ونهبها، ثم مضى إلى الكوفة وفعل مثل مافعل بالبصرة[٢٢٦] فأرسل إليه السلطان من يتعقبه ففارق الكوفة واتجه إلى البرية مرة أخرى[٢٢٧].

ظل دبيس هائماً على وجهه في البرية ومعه قلة من الرجال، يتنقل في حلل العرب فمنهم من يرده، و منهم من يجيره ويقوم معه [٢٢٨]، وأثناء سيره قدم إليه رجل من صرخد يستدعيه إليها[٢٢٩] فقد توفى صاحبها و يدعى مكتوم، وخلف زوجة حدثت نفسها بتملك الحصن، فقال لها: بعض أصحابها إن ذلك لايتم إلا بالزواج من أحدالأمراء الكبار له قوة ونجدة، ووصف لها دبيس بن

صدقة وكثرة عشيرته، وذكر لها حاله وماهو عليه، فأرسلت تدعوه إلى صرخد لتتزوج به وتسلم إليه القلعة ومافيها من مال [٢٣٠]، ولذلك اتخذ دبيس الأدلاء وسار من العراق إلى الشام، فضل به الطريق بنواحي دمشق، ونزل على قوم من بني كلاب شرقي الغوطة، وقيل نزل في حلة حسان بن مكتوم من أعمال دمشق، فتفرق عنه أصحابه وبقى فيها وحيداً، ولم يكن له مهرب من العرب[٢٣١]، وعندما وصل خبره إلى تاج الملوك بوري[٢٣٢]، أرسل إليه العسكر فأسروه وقدموا به إلى دمشق، فأنزله تاج الملوك بوري في دار بقلعة دمشق، وأكرمه واستضافه وحمل إليه الملبوس والمفروش ومايليق به، " واعتقله إعتقال كرامة"، وكاتب الخليفة المسترشد في أمره، فردعليه الجواب بالإبقاء عليه إلى أن يصل من يحمله إلى بغداد[٢٣٣] .

سمع عماد الدين زنكي بخبر وقوع دبيس في أسر بوري، وكان دبيس يقع فيه وينال منه، فأرسل زنكي إلى تاج الملوك يطلب منه تسليم دبيس إليه فرفض، فتهدده زنكي بقصد بلاده ومحاصرتها، أما إذا وافق على تسليمه فعند ذلك سيقوم زنكي بإطلاق سراح سونج بن تاج الملوك بوري وبقية الأمراء الذين كانوا مأسورين لديه[٢٣٤].

بعث تاج الملوك بوري دبيساً إلى عماد الدين زنكي بحلب في محفة مقيداً، مقايضة بإبنه والأمراء وقدم إلى زنكي خمسين ألف دينار، وقد ذكر ابن العديم أن زنكي هو الذي دفع لتاج الملوك بوري مائة ألف دينار مقابل تسليم دبيس إليه [٢٣٥]، وفي أثناء الطريق رأى أحد الشعراء دبيساً وهو مكبل بالحديدفي رجليه، فامتدحه ولم يكن مع دبيس مايكرم به ذلك الشاعر، فكتب له في رقعة هذين البيتين

الجود فعلي ولكن ليس لي مال وكيف ينع من بالفرض يحتال

فهاك خطي إلى أيام ميسرتيديناً علي فلي في الغيب آمال[٢٣٦]

وبعد وصول دبيس إلى عماد الدين زنكي أشفق على نفسه وأيقن بالهلاك

لكثرة ماكان يقع فيه من ذم زنكي، ولكن زنكي خالف ظنه،و جازى إساءته إحساناً، وبالغ في إكرامه إلى غاية لامزيد عليها [٢٣٧]، وأنزله في دار بحلب، وحمل له الأقوات والسلاح والدواب وسائر أمتعة الخزائن، وقدمه حتى على نفسه، وفعل معه مايفعل مع أكابر الملوك، وأعطاه مائة ألف دينار، وخلع عليه خلعاً سنية، فبقى في صحبة عماد الدين زنكي [٢٣٨].

وأثناء وجود دبيس في حلب، وأثناء سيره في أحد الطرق رأه الشاعر الذي أعترضه في الطريق ومدحه،فقال له: الشاعر" ياأمير لي عليك دين!" فقال: دبيس والله ماأعرف أن لإحد ديناً علي، فقال الشاعر "بل وشاهده منك"،وأخرج له خطه فلما وقف عليه قال"أي والله دين وأي دين!"، وأمره أن يأتي إليه في مقره، وعندما قدم عليه أعطاه ألف دينار والخلعة التي خلعها عليه زنكي [٢٣٩].

أرسل الخليفة المسترشد إلى تاج الملوك بوري كاتب الإنشاء ببغداد ويدعى ابن الأنباري ليتسلم دبيس منه حسب الإتفاق بينهما، وذلك للعداوة التي كانت بين دبيس والخليفة المسترشد، ومأن وصل الرسول إلى الرحبة حتى علم بوقوع دبيس في قبضة زنكي فذكر الرسول زنكي بما يكره، فوصل ذلك الأمر إلى زنكي فأمر بالقبض عليه وسجنه في قلعة الموصل[٢٤٠]، فغضب الخليفة المسترشد من زنكي أشد الغضب وقرر قتاله في الوقت المناسب .

وإذا تساءلنا عن الأسباب التي دفعت زنكي للقيام بمثل ماقام به مع دبيس بن صدقة نجد أن زنكي كان له فراسة ومعرفة بأصناف الرجال وكان يعرف أن دبيس على خباثة طويته إلا أن شجاعته لا ينكرها عاقل،ونظراً لأن زنكي كان ينوي في تلك الفترة توحيد القوى الإسلامية في العراق والشام لمجابهة الصليبيين لذا حاول أن يستفيد من خبرة دبيس ورجاله العسكرية خاصة أن رجاله كانوا يجيدون فنون القتال ويعرفون أسرار الطرق والمسالك في العراق وبلاد الشام ولذا فضل ضم دبيس إليه بدلاً من معاداته، فعاش دبيس حليفاً مخلصاً لزنكي وتنقل معه بين الموصل وحلب وقام بمساعدته في معاركه

وحروبه ضد الفرنج[٢٤١] ولذا يمكننا القول أن زنكي قام بالدور الذي لم يستطع الخليفة المسترشد القيام به.

توفى السلطان محمود بن محمد سنة ٥٢٥هـ[٢٤٢]/ ١١٣٢م، فتولى أخوه مسعود بن محمد مكانه، وتقدم إلى العراق في عشرة آلاف، وفي نفس الوقت قدم إلى العراق سلجوق شاه بن محمد، وأتابكه قراجا الساقي صاحب فارس وخوزستان[٢٤٣]، وهما يطلبان السلطنة، وجاء عماد الدين زنكي ودبيس مع عساكرهما من الموصل لينضموا إلى السلطان مسعود، فلما وصل زنكي ودبيس إلى تكريت جهز لهما قراجا ألفي فارس تمكنوا من هزيمة الأثنين[٢٤٤]، وقتل من أصحاب زنكي وأسر الكثير، وقد حاول الخليفة المسترشد رأب الصدع فأصلح بين الملك مسعود وبين أخيه سلجوق شاه، وخطب لهما جميعاً،واستقر الحال على أن يخرج المسترشد بنفسه مع مسعود وسلجوق لمحاربة عمهما سنجر[٢٤٥].

كان سنجر قد خطب له بعد وفاة ابن أخيه محمود على منابر الشام، وديار ربيعة ومضر وديار بكر والعراق وأصفهان وفارس، وأما خراسان فقد كانت له خاصة حتى سمي ذي القرنين سنجر، ولذا ما أن سمع سنة٥٢٦هـ بخروج أبناء أخيه والخليفة المسترشد لمحاربته، حتى قرر التقدم إلى العراق و كتب إلى عماد الدين زنكي ودبيس ابن صدقة يطلب منهما التقدم إلى بغداد والإستيلاء عليها، ولما علم الخليفة المسترشد بذلك أسرع بالعودة إليها، وعبر الجانب الغربي، وسار حتى التقى بعماد الدين زنكي ودبيس عند حصن البرامكة، وبدأ زنكي وحمل على ميمنة الخليفة فانهزم رجاله،وحمل رجال ميسرة الخليفة على ميمنة عماد الدين ودبيس، وحمل الخليفة بنفسه واشتد القتال، فانهزم دبيس ورحل إلى سواحل الفرات، وأراد عماد الدين الصبر إلا أنه رأى الناس و قد تفرقوا عنه فرحل إلى تكريت،أما الخليفة العباسي فقد عاد إلى بغداد منتصراً[٢٤٦].

خرج دبيس بعد انهزامه في سنة٥٢٦هـ يريد حلته السيفية وما حولها،

وبدأ في جمع الرجال لإستعادتها و كانت ولايتها بيد إقبال المسترشدي، وعندها جاء المدد من بغداد لإقبال، والتقى هو ودبيس فهزم دبيس واختفى في أجمة هناك، وظل ثلاثة أيام لم يطعم شيئاً، ولم يستطع التخلص منها، حتى أخرجه أحد الرجال بعد أن حمله على ظهره[٢٤٧].

بدأ دبيس يجمع الجموع والرجال مرة أخرى وقصد واسط، وانضم إليه عسكرها ولم يزل فيها حتى دخلت سنة٥٢٧هـ/ ١١٣٢م،فخرج إليه إقبال المسترشدي في عسكره، فاقتتل مع دبيس في الماء والبر، فانهزم الواسطيون ودبيس[٢٤٨].

قدم السلطان مسعود إلى بغداد في سنة ٥٢٧هـ/١١٣٢م فخطب له بالسلطنة، ثم من بعده لإبن أخيه السلطان داوود بن محمود، وخلع عليهما الخليفة المسترشد ولكن نواب السلطان مسعود تكبروا وعارضوا الخليفة في أملاكه، فوقعت الوحشة بين الخليفة و السلطان مسعود، وممازاد الأمر سوءً التحاق دبيس بن صدقة بخدمة السلطان مسعود، الذي رحل إلى همذان ومعه دبيس حيث استقر ملكه هناك[٢٤٩].

علم الخليفة المسترشد أن دبيساً أصبح من رجال السلطان مسعود وأن السلطان ينوي أخذ بغداد منه[٢٥٠]، وأحس بتغير السلطان عليه، ورأى غدره أمام عينيه[٢٥١]، فقام بقطع الخطبة للسلطان مسعود على منابر بغداد سنة ٥٢٨هـ/١١٣٣م، وخطب لعمه السلطان سنجر بن ملكشاه،وكاتب أصحاب الأطراف له بالطاعة [٢٥٢]

عزم السلطان مسعود القدوم إلى بغداد وتملكها، وأنفذ مقدمة جيشه أمامه، ولما علم الخليفة المسترشد بذلك أنفذ هو الآخر مقدمة جيشه وكان عددها ألفين وخمسمائة وتجهز للقاء السلطان مسعود، الذي أرسل دبيس بن صدقة في خمسة آلاف فارس فهجموا على مقدمة جيش الخليفة وأخذوا أموالهم فعاد عسكر الخليفة إلى بغداد [٢٥٣].

قرر المسترشد الخروج بنفسه لحرب السلطان مسعود فدخل عليه الوزير شرف الدين الزينبي فقال له : يامولانا إلى أين تمضي، وبمن تعتضد، وإلى من تلتجيء وبمن تنتصر؟ إن مقامنا ببغداد أمكن لنا، وفي العراق الظهر والكفاية، فرد المسترشد ببيت من الشعر:

وإذا لم يكن من الموت بد   فمن الغبن أن تموت جبانا[٢٥٤]

خرج الخليفة من بغداد في جحافل كثيرة فيهم القضاة ورؤوس الدولة من جميع الفئات [٢٥٥]، و كان قوام عدة السلطان مسعود وهو في همذان ألف وخمسمائة فارس، وفي طريقه لحرب الخليفة أخذ يستميل الناس، حتى صار عدد جيشه خمسة عشر ألف فارس[٢٥٦]، وتسلل من الأمراء والأتراك ممن كانوا مع الخليفة وانضموا للسلطان وكان عددهم حوالي ألف [٢٥٧].

التقى الخليفة المسترشد بالسلطان مسعود في العاشر من رمضان من سنة٥٢٩هـ/ ١١٣٤م، في موضع يسمى "داي" بالقرب من جبل بهستون في همذان[٢٥٨]، فأسر الخليفة وأخذ جميع مامعه من خيل ومال وأسلحة، وأسر جميع كبار رجاله[٢٥٩]، وفر البعض، ونادى السلطان مسعود في أصحابه " المال لكم والدم لي فمن قتل أقدته"، فلم يقتل من الصفين سوى خمسة أنفس بالخطأ، ونادى السلطان في من بقى من رجال الخليفة " من أقام بعد الوقعة ضربت عنقه،فهرب الناس إلى رؤوس الجبال فتخطفهم التركمان والأكراد، وأفلت منهم جماعة عراة فوصلوا إلى بغداد وقد تشققت أرجلهم من المشي والحفا[٢٦٠].

علم أهل بغداد بأسر الخليفة، فكسروا المنابر ومنعوا الخطباء من الخطب، وحثوا على رؤوسهم التراب،وضجوا بالبكاء والنحيب، فسير السلطان مسعود شحنة إلى بغداد، فنادى في الناس إنا جئنا لنصلح وإن السلطان مسعود قد سار بين أيدي أمير المؤمنين وعلى كتفه الغاشية فسكن الناس وهجعوا[٢٦١].

سار السلطان مسعود ومعه المسترشد فطاف به في أذربيجان، إلى أن وصل في سنة٥٢٩هـ/ ١١٣٤م إلى مراغة[٢٦٢]، فضرب للخليفة خيمة أقعده

فيها، وفي تلك الأثناء وصل كتاب من السلطان سنجر بن ملكشاه إلى ابن أخيه السلطان مسعود، يخوفه من مشاهد من بعض الآيات السماوية، وكثرة العواصف والزلازل، نتيجة لأسر المسترشد[٢٦٣]، و أمره أن يقبل الأرض بين يدي الخليفة ويسأله العفو والصفح، وأن يقوم برد الخليفة العباسي إلى مستودع عزه بغداد، وطلب منه أن يبالغ في تعظيمه كما جرت به عادة آبائهم في خدمة آل البيت، كما طلب منه أن يسلم دبيساً إلى الخليفة ليرى رأيه فيه، وعندئذ أمر السلطان مسعود فضرب سرادق للخليفة، ونصبت له قبة عالية وأحضر إليه مركوب، فركب الخليفة متوجهاً إلى السرادق المضروب له، والسلطان مسعود بين يديه وعلى كتفه الغاشية[٢٦٤]، ولجام فرس الخليفة بيده، وجميع الأمراء مشاة إلى أن دخل الخليفة السرادق، ثم سلم عليه السلطان مسعود ووقف يسأله العفو، فرد الخليفة قد عفا الله عن ذنبك، فاشكر وطب نفساً، وأحضر السلطان مسعود دبيس بن صدقة إلى الخليفة وهو مكتوفاً، يتضرع ويبكي بين أربعة أمراء، ومع كل واحد سيف مسلول وكفن منشور، وقال له : هذا هو السبب الموجب لما تم فإذا زال السبب بطل الخلاف، ومهما تأمر يفعل به، فأخذ دبيس يبكي ويقبل يد الخليفة ويمررها على وجهه، ويقول: العفو عند المقدرة " فبقرابتك من رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا ماعفوت عني، وأتركني أعيش في الدنيا فإن الخوف منك قد برح بي"، فعفا عنه الخليفة وقال: لاتثريب عليكم، اليوم يغفر لكم[٢٦٥]، ويذكر المؤرخ ابن العبري أن الخليفة أدرك أن العبارات الصادرة من السلطان مسعود فيما يخص دبيس بأنها كانت عبارات صادرة من الفم لا من القلب ولذا فقد غفر لدبيس[٢٦٦] و بعد ذلك العفو قررت قواعد للصلح بين الخليفة والسلطان مسعود، وبات وشيكاً عودة الخليفة إلى بغداد وفرح الناس بذلك[٢٦٧] .

وصلت رسل السلطان سنجر تستحث السلطان مسعود على إعادة الخليفة إلى مدينته وداره، ووصل مع الرسل عسكر كثيف،ووصل صحبتهم عدة رجال من الباطنية[٢٦٨]، فخرج السلطان مسعود في عسكره ليلتقي رسل السلطان سنجر، فانفرد الخليفة في سرادقه فهجمت الباطنية عليه وهو يقرأ القرآن فضربوه

بالسكاكين، إلى أن جرحوه مايزيد على عشرين جرحاً،وقتلوه[٢٦٩] ومثلوا به وجدعوا أنفه وأذنيه، وشقوا جوفه، وقتلوا معه جماعة من أصحابه" وفجعوا الزمان بسيد خلائفه وخلائقه"[٢٧٠] في ١٧ القعدة من سنة ٥٢٩هـ[٢٧١] /١١٣٤م، وقبض السلطان مسعودعلى الباطنية،فقتلوا جميعهم وأحرقت جثثهم[٢٧٢]،وأظهر السلطان مسعود القلق العظيم وجلس للعزاء[٢٧٣]، ووقع البكاء والنحيب في أهل مراغة، فخرجوا حفاة حاسري رؤوسهم، وكسروا المنابر وعطلوا المساجد، وغسل الخليفة وكفن واختلف المؤرخون في مكان دفنه فقيل أنه حمل إلى بغداد، وكان عمره خمساً وأربعين سنة وشهوراً[٢٧٤]، أما الفارقي فيذكر في مصنفه أن الخليفة تم دفنه في مراغة[٢٧٥] وحدد ابن الأثيرمكان دفنه فذكرأنه دفن في مقبرة سنقر الأحمديلي[٢٧٦]، ولعل ذلك هو ماحدث لأن أغلب المصادر لم تتطرق لمكان دفنه في بغداد[٢٧٧] .

ولعل قتل الخليفة المسترشد كان باتفاق بين مسعود وسنجر فوصول الباطنية مع عسكر سنجر وترك الخليفة بمفرده في سرادقه أثناء خروج مسعود لإستقبال الجيش، وترك الخليفة عرياناً بعد قتله يوم وليلة وغضب أهل مراغة[٢٧٨] كل ذلك يشير إلى غدر السلطانيين بالخليفة .

لم يقل حزن أهل بغداد على الخليفة عن أهل مراغة، فقد ناحوا في الطرقات وكسروا منابر الجوامع،واقتلعوا أبواب المساجد، وجهروا بسب الملكين سنجر ومسعود[٢٧٩]

خاف السلطان مسعود أن تنسب له قضية قتل الخليفة المسترشد بالله، وأراد أن تنسب القضية إلى دبيس بن صدقة فقرر قتله، ويقال أن دبيس استشعر الخطر من السلطان فتقدم إلى خواصه وطلب منهم الرحيل فرحلوا وهو معهم وتركوا خيامهم وبعد مسيرهم مقدار ثلاثة فراسخ[٢٨٠] رد دبيس القدر الذي لابد منه" وكانت المنية تثبطه"[٢٨١]، فقال لأصحابه "قد ضجرت من الشتات في أقطار الجهات،وما قضاه الله فقد أمضاه"، وعاد ولم يشعر به غير من كان معه، فلما

أصبح قدم دبيس كعادته إلى سرادق السلطان مسعود،ومع السلطان أمرائه ورجاله، فحضر الطعام وأكلوا الناس وانصرفوا، وعندما أراد دبيس الإنصراف تقدم إليه رجل معمم بزي الكتاب، وقال له: السلطان يقول لك قد ورد إلينا كتب ونشتهي أن تسمعها، فخرج عليه السلطان وقال له : هذا جزاء من يخون مولاه، وقد أوعز السلطان مسعود إلى غلام أرمني وقيل تركياً بقتله، فضرب رأسه بالسيف فأبانه، فقتل صبرا بين يدي السلطان [٢٨٢] وقد قتل دبيس بن صدقة بعد شهر من قتل الخليفة المسترشد على باب خوي، وقيل على باب تبريز في يوم ١٤ من شهر ذي الحجة من سنة٥٢٩هـ/١١٣٤م[٢٨٣]. وقيل بعد ثمانية وعشرين يوماً[٢٨٤]. وقد أظهر السلطان مسعود أنه لم يفعل ذلك في دبيس إلا إنتقاماً منه على مافعل دبيس في حق الخليفة، فقد كان دبيس يعادي المسترشد ويكره خلافته، ولم يكن يعلم أن السلاطين إنما كانوا يبقون عليه ليجعلوه عدة لمقاومة المسترشد، فلما زال السبب كان لابد أن يزول المسبب[٢٨٥]،ولكن ذلك السبب هو مأظهره مسعود، أما السبب الحقيقي فيعود إلى أن دبيساً كان قد أطلع على مؤامرة أراد السلطان تنفيذها من أجل اغتيال عماد الدين زنكي،فقدأمر السلطان مسعود زنكي بالقدوم عليه في همذان فأرسل دبيس إلى عماد الدين زنكي يحذره من المجيء إلى السلطان ويأمره أن ينجو بنفسه فامتنع زنكي عن المجيء، وعندما علم السلطان بذلك قرر قتل دبيس[٢٨٦] ليظهر في نظر العامة أنه الشخص الذي ثأر للخليفة المسترشد بقتل دبيس، ولكن الحقيقة هي ثأر السلطان لنفسه لأن دبيس لم يمكنه من الفتك بعماد الدين زنكي،وعندما بلغ عماد الدين زنكي أمر مقتله قال: " فديناه بالمال وفدانا بالروح"[٢٨٧]

بعد أن قتل دبيس حمل جثمانه إلى ماردين، واستقبلته زوجته كهار خاتون فدفنته في المشهد، بالقرب من قبر أبيها نجم الدين إيلغازي [٢٨٨]، وقد أورد المؤرخ ابن القلانسي شماتة البعض لمقتل دبيس " وقيل إن هذا مكافأة من الله تعالى له عماكان منه في عصيان الخليفة الإمام المسترشد بالله أمير المؤمنين والسعاية في دمه"[٢٨٩].

اختلف المؤرخون في تقييم دبيس بن صدقة فقد ذكرابن الأثير" أنه كان خبيث الطوية وكان من أشد الناس عداوة لعماد الدين زنكي وأكثرهم وقيعة فيه"[٢٩٠] وأشارابن خلكان بأنه" كان جواداً عنده معرفة بالأدب والشعر"[٢٩١] ووصفه العماد الحنبلي بقوله " كان فارساً شجاعاً مقداماً جواداً ممدحاً أديباً كثير الحروب والفتن"[٢٩٢] أما المؤرخ ابن العديم فيستعرض وجهات نظر الناس المختلفة في تقييم دبيس بن صدقة فذكر أن أبو أسعد عبد الكريم بن محمد بن منصور السمعاني زكى دبيس بن صدقة مشيراً إلى أنه" من ملوك العرب،وكان فاضلاً مهيباً كريم الأخلاق، ولعل ما أنجبت عرب البادية بعده مثله،وقد ترامت به الأسفار إلى أكناف الأمصار، وتقلبت به الأحوال إلى ارتكاب الأهوال،ورد بلاد خراسان، وجال في أطرافها مدة في ظل السلطان سنجر، وكانت خاتمة أمره أن فتك به في قصر السلطان وختم به شرف بيته"[٢٩٣]

ويعرض ابن العديم رداً من أبوهاشم عبد المطلب بن الفضل الشريف الهاشمي الذي استهجن ذلك المديح لكنه حاول أن يجد له المبرر في ذلك، فذكر" لعل السمعاني لم يسمع خبر دبيس واتفاقه مع الفرنج على حصار حلب، وبذل أموال المسلمين وأنفسهم لأعداء الدين" ويذكر أبوهاشم أن ذلك الفعل القبيح من دبيس في محالفة الفرنج والذي لايصدر إلا "عن من خلص إيمانه وإن جرى بلفظ الشهادة لسانه ولايقع إلا من سخيف الرأي السيئ التدبير" لو علم به السمعاني لما قال في دبيس بن صدقة " لعل ماأنجبت عرب البادية بعده مثله، وقال وختم به شرفه " وزيادة في استهجان أبوهاشم لدبيس يذكر قصة وقوع الملك بلدوين الثاني في أسر بلك ابن بهرام الأرتقي سنة ٥١٧هـ/١١٢٣م وكيف أطلق سراحه من قبل تمرتاش بعد أن تعهد بدفع فدية ثم غدر بكل ماتعهد به بعد إطلاق سراحه[٢٩٤] ويستطرد أبوهاشم بالقول، لو صح لبلدوين تملك حلب أثناء حصارها مع دبيس والتي سبقت الإشارة إليه لغدر بالوعود التي قدمها لدبيس من تمكينه من حلب" أن بلدوين ملك الفرنج كان مأسوراً في حبس بلك بن بهرام الأرتقي وأن تمرتاش أطلقه وهادنه على أن لايخرج عليه فغدر بالهدنة مع

تمرتاش والمسلمين ولم يف له بما استقر معه في اليمين ولعل بلدوين لوتسلط على حلب لما وفى لدبيس بما كان قرره معه من ملك المدينة" ويظهر أبو هاشم رأيه الصريح في دبيس بقوله" ولعمري لقد محا دبيس شرف أبيه صدقة ومكارمه المحققة ومآثر آبائه وأجداده المذكورين ومناقبهم المشهورة المسطورة بهذه الفعلة الدنيئة التي فعلها والقصة الشنعاء التي سطرها ومن قبيح فعله خروجه على الإمام المسترشد وجمع العرب لمحاربته ومطاولته"[٢٩٥]

خلف دبيس ثلاثة أبناء هم صدقة(٥٢٩-٥٣٢هـ/١١٣٤-١١٣٧م)، ومحمد (٥٣٢-٥٤٠هـ/١١٣٧-١١٤٥م)، وعلي(٥٤٠-٥٤٥هـ/١١٤٥-١١٥٠م)، وقد توفي صدقة قتيلاً سنة٥٣٢هـ/١١٣٧م على يد السلطان داوود السلجوقي المنافس للسلطان مسعود، وعندئذ أقر السلطان مسعود محمد بن دبيس على الحلة [٢٩٦]،وتمتعت سنين حكمه بالسلم والهدوء، ولكن دوام الحال من المحال فقد ثار عليه أخوه "علي" ودارت بينهما حرب انهزم فيها محمد فطرده أخوه "علي" من الحلة، و اجتمع على "علي" أهل بيته،و كان باسلاً عالي الهمة، شجاعاً قرب إليه أصحاب أبيه ونجح في هزيمة جيوش السلطان مسعود ومحمد السلجوقي [٢٩٧]، وبقى في حربه مع سلاطين السلاجقة بين كر وفر حتى مات مسموماً في أسد أباد عام٥٤٥هـ[٢٩٨]/١١٥٠م، وبوفاته انقرضت الإمارة المزيدية في الحلة وصارت تابعة إدارياً إلى بغداد.

الخاتمة

في هذه الدراسة تم التوصل للعديد من النتائج الهامة يتم استعراضها فيما يلي

- أن موطن بني مزيد الأول لم يكن في الحلة، بل في منطقة أطلق عليها "الجامعيين".
- سيف الدولة صدقة كان أول من اختط الحلة سنة٤٩٥هـ، ولذا فهو بانيها الحقيقي ومهندسها، فعرفت بالحلة السيفية نسبة إليه.

- مثلت الحلة السيفية في فترة الدراسة ثقلاً سياسياً وعسكرياً بين مدن العراق وذلك بقوة حكامها، ورجالهم ومن انضم إليهم.
- كانت الحلة السيفية في عهد سيف الدولة صدقة مكاناً يستجير به كل خائف، سواء كان سلطاناً أو أميراً أو قائداً، وكان حكامها يمثلون الإنتفاضة العربية ضد السيطرة السلجوقية.
- إن مؤسس الحلة السيفية سيف الدولة صدقة كان رجلاً مهاباً جواداً كريماً، وقف في وجه الخليفة العباسي والسلطان السلجوقي بكل احترام واقتدار وقوة وقتل بشرف وهو يدافع عن مبادئه.
- اختلاف الباحثة مع من ذكر أن دبيس بن صدقة على الرغم من شجاعته إلا أنه بتحالفه مع الصليبيين وقيامه بسلب ونهب أراضي العراق قد محا شرف أبيه ومكارمه والصحيح أن دبيس حاد عن نهج وشرف ومكارم أبيه ولكنه لم يمح سيرة العظماء منهم فسيرة سيف الدولة صدقة عطرة،وشرفه ومبادئه لايمحوها مافعل ابنه فلا تزر وازرة وزر أخرى.
- لم يكن الخليفة المسترشد بالله في فترة الدراسة مسلوب الإرادة موجهاً من قبل السلاجقة،بل استطاع أن يأمر فيجاب،وكان له القدرة في تجييش الجيوش والدخول في حروب مع سلاطين السلاجقة وأمرائهم، وإن اختلفت نتائج تلك الحروب بين الهزيمة والإنتصار.
- لم يقم الخليفة المسترشد بالدور المناط به من لم شمل القوى الإسلامية المتنافرة، بل ساهم في تشتتها، وكان شديد السمع لما يوجه إليه من قبل وزرائه.
- إن تحالف دبيس مع الفرنج الصليبيين المحتلين ومصافاتهم لايبرر بل هو جريمة في حق الإسلام والمسلمين.
- لم تعد الحلة السيفية في عهد دبيس بن صدقة مكاناً يستجير به الخائف لأن

دبيس كان خبيث الطوية غادر خان عهده مع أبو الحسن أخو الخليفة المسترشد بعد أن أمنه وسلمه للمسترشد بالله وقبض على ذلك أجراً فأين هو من موقف أبوه سيف الدولة صدقة من أبي دلف سرخاب بن كيخسرو عندما رفض تسليمه للسلطان السلجوقي ونتيجة لذلك دفع روحه ثمن وفاءه ؟ وأين هو من مالك بن سالم صاحب قلعة جعبر وذلك عندما وفد إليه دبيس نفسه وكيف أنه لم يخفر ذمته وعادى السلطان السلجوقي والخليفة العباسي وأبى تسليمه إليهما؟

- قيام عماد الدين زنكي باستنقاذ دبيس من أسرتاج الملوك بوري وإكرامه غاية الإكرام، وما ذلك إلا لبعد نظر زنكي ومعرفته بشخصية دبيس المتهورة،فرأى أنه من الأصلح ضم دبيس له، والإستفادة من خبرته العسكرية في محاربة الصليبيين، بدلاً من الإرتماء في أحضانهم، خاصة أن زنكي كان في تلك المرحلة يقوم بتوحيد الجبهة الإسلامية في العراق والشام للوقوف في وجه الصليبيين.

الحواشي

1- القلقشندي: نهاية الارب في معرفة أنساب العرب،تحقيق ابراهيم الأبياري،القاهرة-بيروت،دار الكتب الإسلامية،ص٤٢٠؛ ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر،بيوت- لبنان،مؤسسة جمال للطباعة والنشر ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م،ج٤،ص٢٧٦.

2- الأكراد: ينتسبون إلى كرد بن مرد بن عمرو بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن ،وقيل هم من ولد عمرو مزيقياء بن عامر ماء السماء، وقيل أنهم من بني حميد بن طارق، الراجع إلى حميد بن زهير بن الحارث بن أسد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب، وهم قبائل منهم الكورانية والهذبانية والبشنوية والشاهنجانية والسرلجية وغيرهم، وأحياء الأكراد تكثر عن الإحصاء غير أنهم بجميع أحيائهم كانوا مقيمين بفارس(المقريزي:كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك، نشر محمد مصطفى زيادة،ط٢،ج١،ق١،ص٢٢؛ الفارقي: تاريخ الفارقي، تحقيق بدوي عبد اللطيف عوض ،بيروت،دار الكتاب اللبناني١٩٧٤م،ص٤٩،حاشية (١).

3- بني بويه: هم قواد من الديلم تطالوا للإستيلاء على أعمال الخلفاء العباسيين، لما لم يروا عنها مدافعاً ولا لها حامية فتنقلوا في نواحيها ، وملك كل واحد منهم أعمالا منها، وأحاطوا ببغداد من شرقها وشمالها ، وكانت الخلافة قد طرقها الإعلال وتغلب عليها الموالي (ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون،ج٤،ص٤٣١-٤٣٢).

4- مسفر الغامدي: الجهاد ضد الصليبيين في الشرق الإسلامي، دار المطبوعات الحديثة ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م،ص٦٦.

5- كان البويهيون شيعة على مذهب الزيدية(حامدزيان غانم زيان: الصراع السياسي والعسكري بين القوى الإسلامية زمن الحروب الصليبية،القاهرة١٤٠٠هـ-١٩٨٠م،ص٣٤ حاشية(٢٦)؛أما المزيديون فهم شيعة رافضة(ابن الأثير: الكامل،بيروت١٣٩٨هـ-١٩٧٨م، ج٨ص٢٤٥؛ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة،القاهرة١٣٩٢هـ/١٩٧٢م،ج٥،ص١٢٢).

6- مسفر الغامدي: المرجع السابق،ص٦٦.

7- القلقشندي: نهاية الأرب،ص٤٢٠.

8- ابن الأثير: الكامل ،ج٧،ص٢٧٤.

وسلطان الدولة: اسمه ابو شجاع ولما توفى والده بهاء الدولة سنة ٤٠٣هـ وقيل سنة٤٠٦ ملك العراق والأهواز وبلد فارس وأرجان، واستبد بالملك وعدل في الرعية، وأسقط عنهم أشياء كثيرة من الأثقال والكلف ، ومن أعماله أصلاح سور ميافارقين الذي تهدم(الفارقي: المصدر السابق، تحقيق بدوي عبد اللطيف عوض ،ص١٠٦-١١٣-١١٤).

9- النيل بليدة في سواد الكوفة ، يخترقها نهر يتخلج من الفرات الأعظم، حفره الحجاج بن يوسف وسماه نيل مصر ، وهو عمود عمل قوسان يصب فاضله إلى دجلة تحت النعمانية.

10-ابن الأثير: الكامل،ج٧،ص٢٩٩.

11- عندما تولى نور الدولة أبو الأغر دبيس على الإمارة اختلفت العشيرة عليه، فطلب أخوه المقلد بن أبي الحسن الإمارة ، وسار إلى بغداد وبذل أموالاً للإتراك ليعاضدوه ضد أخيه، فسار معه جمع كثير وتقابلوا مع دبيس في النعمانية ونهبوا حلته، فانهزم إلى واسط ثم عاد إليها ومضى أخوه المقلد إلى بني عقيل(ابن الأثير: الكامل،ج٧،ص٢٩٩).

12- ابن خلدون: المصدر السابق،ج٥،ص٤٧٧.

13- ابن الأثير: الكامل،ج٨،ص٧٠.

السلاجقة : قوم من الأتراك الغز ينتسبون إلى زعيمهم الأكبر سلجوق بن دقاق، نزحوا من منطقة تركستان إلى بلاد ماوراء النهر ،حيث عاشوا هناك واختلطوا بالمسلمين واعتنقوا الإسلام، وبعد وفاة سلجوق رحل السلاجقة إلى بخارى ثم انتهوا إلى خراسان، واتسعت دولتهم وسيطروا على إيران وشمال العراق وأرمينية ، وأعلنوا أنهم في طاعة الخلفاء العباسيون(البنداري: مختصر تواريخ آل سلجوق،تحقيق هوتسما،ليدن ١٨٨٩،ص٦-٧؛ استانلي بول: طبقات سلاطين الإسلام ،بيروت، الدار العالمية ١٩٨٥م،ص١٤١؛احمد السعيد السليمان: تاريخ الدول الإسلامية، القاهرة١٩٦٩م،ج١،ص٣١٣-٣١٨).

14- مسفر الغامدي: المرجع السابق،ص٦٦.

15-البساسيري: اسمه أرسلان وكنيته أبو الحارث، وكان سيد هذا المملوك الأول من بسا فقيل له البساسيري، ثم أصبح مملوكاً لبهاء الدولة بن عضد الدولة بن بويه، وهو الذي خرج على الإمام القائم بأمر الله ببغداد ، وخطب للخليفة المستنصر العبيدي صاحب مصر(ابن خلكان : وفيات الأعيان، الموسوعة الشامية،تحقيق سهيل زكار،دمشق ،دار الفكر١٩٩٥م/١٤١٦هـ،ج٢١،ص١٣)،

16-ابن الأثير: الكامل،ج٨،ص٨٣؛ الفارقي:تاريخ الفارقي،ص١٥٦؛حامد زيان غانم زيان: الصراع السياسي ،ص٣٦.

17- مسفر الغامدي: المرجع السابق،ص٦٦-٦٧.

طغرلبك: هو الذي قام بتوطيد أركان الدولة السلجوقية، وبسط سيطرتهم على إيران وأجزاء من العراق، وهو الذي قضى على الدولة البويهية بدخوله إلى بغداد سنة١٠٥٥م ، وأعاد الخليفة القائم للخلافة وحصل على إعتراف من الخليفة العباسي ليكسب سلطانه صبغة شرعية في أعين المسلمين، وخلع عليه الخليفة العباسي مالا يوصف ولايعلم قيمته(ابن الأثير : الكامل،ج٨،ص٧١-٧٢؛ الفارقي: تاريخ الفارقي، تحقيق بدوي عبد اللطيف عوض ،ص١٥٧؛ المقريزي: السلوك،ج١،ق١،ص٤٠).

18- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج٨ ص١٣٠.

19- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج٨ ص١٣٠؛ ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ط١،ص١٩٢.

20- ابن الأثير: الكامل، ج ٨، ص١٣٠؛ ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ط١، ص١٩٢.

21- آمد : من أشهر مدن ديار بكر بمنطقة الجزيرة(ياقوت الحموي: معجم البلدان)

22- ابن الأثير: الكامل،ج٨،ص١٣٥.

يرجع سبب الحرب إلى أن السلطان ملكشاه أرسل حملة للقضاء على الإمارة المروانية بديار بكر، فانضم مسلم بن قريش إلى بني مروان لمساعدتهم ضد الحملة ، ولكنه انهزم أمام السلاجقة وكاد أن يقع أسيراً في ايديهم، إلا أنه استطاع الإفلات بمساعدة أرتق بن أكسب جد ملوك الأراتقة ، وبعدها صالح السلطان ملكشاه وقدم له هدايا وأموالاً(ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، بيروت،مطبعة الأباء اليسوعيين،ص١١٧).

23- ابن الأثير: الكامل، ج٨،ص١٤١.

ونظام الملك كان ابن من أبناء الدهاقين بطوس، فزال ماكان لأبيه من مال وملك،قرأ وتعلم العربية وتفقه وصار من الفضلاء، ووزر نظام الملك لألب أرسلان ثم لإبنه ملكشاه، وقتل سنة٤٨٥هـ بالقرب من نهاوند، قتله صبي ديلمي من الباطنية، ومات بعده السلطان ملكشاه بثلاثة أشهر(النويري: نهاية الأرب،الهيئة المصرية العامة للكتاب، تحقيق محمد فوزي العنتيل ،ج٢٦،ص٣٣٢-٣٣٣؛ ابن العبري: تاريخ مختصر الدول،ص١٩٢-١٩٣).

24- ابن الأثير : الكامل،ج ٨،ص١٤١.

و ملكشاه هو ابن ألب أرسلان السلجوقي ، ولد سنة٤٤٧هـ وكان من أحسن الناس صورة ومعنى ، وكان يعرف بالسلطان العادل، اتسعت مملكته اتساعاً عظيماً، وخطب له من حدود الصين إلى الداروم من أرض الشام ،وأطاعه اليمن والحجاز، توفي في سنة ٤٨٥هـ وكان عمره ثمانية وثلاثين سنة وستة أشهر، وكان ملكه نحو عشرين سنة(ابن الأثير : التاريخ الباهر، الموسوعة الشامية،تحقيق سهيل زكار،دمشق ١٩٩٥م/١٤١٦هـ،ج١٤،ص١٢٠-١٢١؛ النويري: نهاية الأرب،ج٢٦،ص٣٣٣-٣٣٥؛ الأصفهاني: تاريخ دولة آل سلجوق، اختصار الفتح البنداري الأصفهاني ،بيروت،دار الآفاق الجديدة١٩٧٨م،ط٢ص٧٠).

25- سبب نهب البصرة أنه قدم إلى بغداد رجل من سواد النيل يدعي الأدب وعلم النجوم، فلقبه أهل بغداد تلياً، وقد سرق هذا الرجل من بعض الخانات ثيابا من الديباج وأراد السفر فقبض عليه الذين يحفظون الطريق ومنعوه من السفر وحملوه إلى المقدم عليهم، فأطلق سراحه حرمة للعلم ،وعند ذلك اتجه تليا إلى أمير من أمراء بني عامر، بلاده كانت متاخمة للأحساء، وحسن له نهب البصرة وأخذها، فجمع ذلك الأمير من العرب مايزيد على عشرة آلاف مقاتل، وقصد البصرة وبها العميد عصمة وليس معه من الجند إلا اليسير، فخرج إليهم وحاربهم ولم يمكنهم من دخول البلد ، ولكنه سمع أن أهلها يريدون التسليم للعرب، فأسقط في يده وفر إلى الجزيرة، ودخل العرب البصرة وملكوها ونهبوا فيها نهباً شنيعاً ،وأحرقوا دارين للكتب وكان بها نفائس الكتب، وكان ذلك الفعل أول خرق جرى في أيام السلطان ملكشاه ،ولما بلغ الخبر بغداد أرسل السلطان ملكشاه سعد الدولة كوهرائين وسيف الدولة صدقة بن مزيد إلى البصرة لإصلاح أمورها، فوجدوا العرب قد فارقوها ، أما تلياً فقد قبض عليه في البحرين، وأرسل إلى السلطان فشهره ببغداد سنة ٤٨٤هـ على جمل وعلى رأسه طوطور وأمر بصلبه(ابن الأثير: الكامل،ج٨،ص١٥٣.)

26- تتش هو أخو السلطان ملكشاه أقطعه ملكشاه مدينة دمشق وأعمالها، ولما توفى السلطان ملكشاه واختلف أولاده خرج تتش نحو حلب، وخطب له بحلب ثم بجميع السلطنة في سنة٤٨٦هـ(ابن الأثير:

الباهر،ج١٤،ص١٢٣).وللمزيد من التفاصيل عن حرب تتش مع بركياروق، انظر النويري: نهاية الأرب،ج٢٦،ص٣٣٨.

27- ابن الأثير: الكامل،ج٨،ص١٦٣؛ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، بيروت،دار الآفاق الجديدة،ج٣،ص٣٧٧.

28- خلف السلطان ملكشاه بعد وفاته أربعة من الأبناء هم بركياروق وحمود وسنجر ومحمد ،وكان أصغرهم محمود ونظراً لأن بركياروق هو الإبن الأكبر فقد طالب بالسلطنة بعد وفاة والده، و بركياروق هو ركن الدين ابو المظفر بن ملكشاه بن ألب أرسلان ولد سنة٤٧٤هـ وتوفى سنة ٤٩٨هـ وكانت مدة سلطنته إثنتي عشرة عاماً ، وكان ملازماً للشراب كثير الإدمان له، وكان أتابكه الأمير الأسفهسلار كمشتكين الجاندار(الحسيني : أخبار الدولة السلجوقية، ص٨٠-٨٢- وخطب لبركياروق في بغداد ست مرات ثم تقطع ثم تعاد ، مات وله من العمر اربعة وعشرون سنة وشهور(الأصفهاني: دولة آل سلجوق،ص٨١؛ ابن كثير: البداية والنهاية، القاهرة، دار الريان للتراث،١٤٠٨هـ/١٩٨٨م،ج١٢،ص١٧٦). و دارت بين بركياروق وأخوته، وبينه وبين عمه تتش حروب كثيرة دامت حوالي اثنتي عشرة سنة، إلى أن توفى بركياروق واستقرت السلطنة لمحمد(ابن الأثير: الباهر،،ج١٤،ص١٢٣) و السلطان محمد بن ملكشاه بن ألب أرسلان بن داوود بن جغري بك بن ميكائيل بن سلجوق التركي، والملقب بغياث الدين ولد في الثامن عشر من شهر شعبان سنة٤٧٤هـ ، دعي له بالسلطنة ببغداد سنة٤٩٢هـ وعمره ثماني عشر سنة ، ولقى من المشاق مالاحد له،وقطعت الخطبة له أكثر من مرة، ولم تصف له السلطة إلا بعد قتل أخيه بركياروق، وبعدها دامت له السلطنة اثنتي عشرة عاماً، ومات سنة٥١١هـ وعمره تسع وثلاثين سنة واربعة اشهر(النويري: نهاية الأرب،ج٢٦،ص٣٥٦؛ الغزالي: التبر المسبوك،،الرياض،دار العاذرية١٤١٥هـ/١٩٩٤م).

29-ابن الأثير: الكامل،ج٨،ص١٩٨؛ النويري: نهاية الأرب،ج٢٦،ص٣٦٤؛ عاشور: الحركة الصليبية، القاهرة،مكتبة الأنجلو ١٩٩٦م،ط٦،ج١،ص٤٢٦.

30- عاشور: الحركة،ج١،ص٤٢٦.

31- ابن جبير: رحلة ابن جبير،بيروت،دار مكتبة الهلال ١٩٨١م،ص١٧٠.

32- ياقوت الحموي: معجم البلدان،و الأجمة من القصب وجمعها أجمات (الرازي: مختار الصحاح،لبنان،مكتبة لبنان١٩٨٨،ص٣).

33- ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب،ج٤،ص٢.

34- الذهبي: العبر في خبر من غبر، الكويت،١٩٦٣،ج٤،ص٢؛ علية الجنزوري: امارة الرها،القاهرة،١٩٧٥،ص١٩٠.

35- الأصفهاني: تاريخ دولة آل سلجوق، اختصار الفتح بن علي البنداري،بيروت١٩٧٨م ،ص١١٥؛ عاشور : الحركة،ج١،ص٤٢٦؛ مسفر الغامدي: المرجع السابق،ص٦٨.

36- الأصفهاني: دولة آل سلجوق،ص٨١؛ ابن كثير: البداية والنهاية،ج٦،ص١٧٦.

37- الشحنة : هو الرجل المسئول عن أمن المدينة التي يتولىَ عليها ويكون ممثلاً عن الحاكم أمام الناس والشحنكية هي الوظيفة التي يتولاها الشحنة(المقريزي: السلوك،ج١،ق١،ص٣٥).

38- مسفر الغامدي: المرجع السابق،ص٦٨.

والد ايلغازي وسكمان هو أرتق بن أكسب من التركمان، تغلب على حلوان والجبل ثم سار إلى الشام، خائفاً من السلطان محمد بن ملكشاه وذلك في سنة٤٤٩هـ ،وامتلك القدس بأمر من تتش السلجوقي، ولما توفى تولى بعده ولداه سكمان وايلغازي أبناء أرتق، ولم يزالا به حتى سار إليهما الأفضل بن بدر الدين الجمالي وأخذ بيت المقدس منهما في سنة٤٩١هـ، فتوجها إلى بلاد الجزيرة الفراتية وملكا ديار بكر ،وتملك نجم الدين إيلغازي مدينة ماردين سنة ٥٠١هـ ،وكان قد ولاه السلطان محمد السلجوقي شحنكية بغداد، اما سكمان فقد توفى في سنة ٤٩٨هـ(ابن خلكان: وفيات الأعيان،ج٢١،ص١٢؛ العيني: عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، الموسوعة الشامية، تحقيق سهيل زكار ،دمشق١٩٩٥م/١٤١٦هـ،ج٢٤،ص٢٤).

39- هيت: بلدة على الفرات قريبة من بغداد شمال الأنبار(ياقوت: معجم البلدان) وللمزيد من التفاصيل عن كيفية اسيلاء سيف الدولة صدقة على هيت انظر ابن الأثير: الكامل،ج٨،ص٢١٦.

40- عانة : بلدة مشهورة على الفرات بين الرقة وهيت من أعمال الجزيرة الفراتية (ياقوت الحموي: معجم البلدان)

41- ابن الأثير: الكامل،ج٨،ص٢٢٢.

42- عاشور: الحركة،ج١،ص٤٢٨.

43- ابن العبري: تاريخ مختصر الدول،ص١٩٧؛ رانسيمان:تاريخ الحروب الصليبية،ترجمة السيد الباز العريني،بيروت-لبنان١٩٩٧م/١٤١٧هـ،ج٢،ص٧٠.

44- المستظهربالله: هو ابو العباس احمد بن المقتدي بأمر الله، أمه أم ولد أرمنية تسمى نور، بويع له بعد وفاة أبيه وكان عمره يوم تولى الخلافة ست عشرة سنة وشهرين، وكانت مدة خلافته خمساً وعشرين سنة وخمسة أشهر، وكان لين الجانب كريم الأخلاق يحب اصطناع المعروف ويفعل الخير(السيوطي:تاريخ الخلفاء،بيروت،دار الجيل،ص٤٩٠؛ابن ايبك الداواداري:كنز الدرر وجامع الغرر،تحقيق صلاح الدين المنجد، القاهرة ١٣٨٠هـ/١٩٦١م، ج٦،ص٤٤٠؛ المقريزي: السلوك،ج١،ق١،ص٤٠؛ ابن العبري: تاريخ الزمان،نقله للعربية الأب اسحاق ارملة،دار المشرق،ش.م.م.،صدر تباعاً في مجلة المشرق،(١٩٤٩-١٩٥٦)،ص١٢١.

45- نجم الدين إيلغازي: سيتم التعريف به في حاشية تالية مع أخيه سقمان.

46- ابن الأثير: الكامل،ج٨،ص٢٢٠-٢٢١.

47 - مسفر الغامدي: المرجع السابق،ص٦٩.

48- ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب،ج٣،ص٤٠٨؛ العيني: العيني: عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان،الموسوعة الشامية،تحقيق سهيل زكار،دمشق١٤١٦هـ/١٩٩٥م،ج٢٤،ص١٩، النويري: نهاية الأرب،ج٢٦،ص٣٥٥.

مرض بركياروق بالسل والبواسير بأصبهان، فأراد العودة إلى بغداد ولكنه ضعف عن الحركة، واشتد مرضه ومات سنة ٤٩٨هـ و كان عمره حين توفى خمسة وعشرين سنة ،ومدة ملكه اثنتي عشرة سنة وبضعة أشهر وقاسى من الحروب واختلاف الأمر عليه مالم يقاسه أحد، واختلفت احواله بين الرخاء والشدة (ابن الأثير: الكامل،ج٨ص٢٢٣-٢٢٤؛ السيوطي: تاريخ الخلفاء،ص٤٩٣؛ ابن العبري: تاريخ مختصر الدول،ص١٩٧؛ ابن العبري: تاريخ الزمان،ص١٢٧).

49- النويري: نهاية الأرب،ج٢٦،ص٣٥٧.

50- مسفر الغامدي: المرجع السابق،ص٦٩.

51- النويري : نهاية الأرب،ج٢٩،ص٣٥٨.

52- ابو الفدا: المختصر في أخبار البشر،بيروت،ج٢،ص٢٢١؛ ابن كثير: البدية والنهاية،ج١٢،ص١٧٨؛ ميخائيل السوري: تاريخ ميخائيل السوري، الموسوعة الشامية ، تحقيق سهيل زكار، دمشق ١٩٩٥م / ١٤١٦هـ، ج٥، ص١٢٤.

وتكريت: تقع بين الموصل وبغداد لها قلعة تقع غربي دجلة(ياقوت الحموي: معجم البلدان)

53- النويري: نهاية الأرب،ج٢٦،ص٣٦٤؛عاشور: الحركة،ص٤٢٨.

54- ابن الأثير: الكامل،ج٨،ص٢٤٥.

55-ابن الأثير : الكامل،ج٨،ص٢٤٥؛ النويري: نهاية الأرب،ج٢٦،ص٣٦٤.

56- ساوه: مدينة بين الري وهمذان وآبه: قرية من قرى أصبهان(ياقوت الحموي: معجم البلدان).

57- ابن الأثير : الكامل،ج٨،ص٢٤٥-٢٤٦؛ النويري: نهاية الأرب،ج٢٦،ص٣٦٤.

58-ابن الأثير: الكامل،ج٨،ص٢٤٦.

59-ابن الأثير: الكامل،ج٨،ص٢٦٤؛ النويري: نهاية الأرب،ج٢٦،ص٣٦٥.

60- ابن الجوزي: المنتظم في تواريخ الملوك والأمم،الموسوعة الشامية،تحقيق سهيل زكار،دمشق،دار الفكر ١٩٩٥م-١٤١٦هـ،ج١١،ص٣٢٦؛ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب،ج٣،ص٣٩٦.

تجهز الغرب الأوروبي بعد خطبة اوربان الثاني سنة ٤٨٧هـ/١٠٩٥م لخروج اول حملة صليبية إلى الشرق الإسلامي، وقد انقسمت تلك الحملة إلى قسمين: حملة العامة ولم يكن لها نتائج تذكر، وحملة الأمراء التي تمكن قادتها من الإستيلاء على الرها وانطاكية وبيت المقدس، وأسسوا في تلك المدن حكماً فرنجياً بها . وللمزيد من التفاصيل عن تلك الحملة ونتائجها انظر ميخائيل السوري: تاريخ ميخائيل السوري،الموسوعة الشامية،ج٥،ص٩٠؛فوشيه اوف شارتر:تاريخ الحملة إلى القدس ، الموسوعة الشامية، تحقيق سهيل زكار،دمشق١٩٩٣م/١٤١٣هـ،ج٦،ص٣٦٢-٣٦٤؛ريمون دي جيل: تاريخ الفرنجة الذين استولوا على القدس ، الموسوعة الشامية، تحقيق سهيل زكار،دمشق١٤١٦هـ/١٩٩٥م،ج٦،ص ٢٨٢-٢٨٣؛وليم الصوري : الأعمال المنجزة فيما وراء البحار،في تاريخ الحروب الصليبية،ترجمة سهيل زكار،دار الفكر،دمشق،١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م،الطبعة الأولى،ج١،ص٢٦٣-٢٧٠؛ العيني: المصدر السابق،ج٢٤،ص٨-١٠؛ حسن حبشي: الحرب الصليبية الأولى، القاهرة،دار الفكر العربي١٨٥٨م،ط٢ ،ص١٤٤-١٤٥-١٧٨-

١٧٩؛محمد العمروسي: الحرب الصليبية في المشرق والمغرب،بيروت- لبنان،دار الغرب الإسلامي١٩٨٢م،ص٥٦-٥٧؛ أحمد شلبي: الحروب الصليبية،القاهرة،مكتبة النهضة المصرية١٩٨٦م،ص٥٠.

61- عاشور: الحركة،ج١،ص٤٢٦.

جهز السلطان محمد بن ملكشاه العسكر في سنة ٥٠٤هـ لقتال الفرنج، وكان من أشهر قواده مودود التونتكين صاحب الموصل ، وأحمد يل صاحب مراغة، والأمير سقمان القطبي صاحب ديار بكر وغيرهم(العيني: المصدر السابق،ج٢٤،ص٣٦؛ رانسيمان: المرجع السابق،ج٢،ص١٨٧). وكان يريد ضم سيف الدولة بعساكره لهم.

62-ابن الأثير: الكامل،ج٨،ص٢٤٦؛ النويري: نهاية الأرب،ج٢٦،ص٣٦٥.

63- ابن الأثير: الكامل،ج٨،ص٢٤٦.

64- نفس المصدر ونفس الصفحة.

وجاولي سقاوو هو أحد قادة الأتراك السلاجقة التي كانت له السيطرة على البلاد الواقعة بين خوزستان وبلاد فارس، وقد عمر بها الكثير من القلاع والحصون، فأراد السلطان محمد السلجوقي أن يستغل مواهبه في القضاء على خصومه، فطلب حضوره من أصبهان وأمره بالمسير إلى الصليبيين لحربهم، وأقطعه الموصل وديار بكر والجزيرة(ابن الأثير: الكامل،ج٨،ص٢٣٨؛ العظيمي: تاريخ العظيمي، نشره كلود كاهن في Jornal Asiatique,London,1938،حوادث سنة٥٠٠-٥٠٢هـ،ص٣٧٨؛ ميخائيل السوري: تاريخ ميخائيل السوري،الموسوعة الشامية،ج٥،ص٩٩).

65- ابن الأثير: الكامل،ج٨،ص٢٤٧.

66- ابن الأثير: الكامل،ج٨،ص٢٤٧.

قسيم الدولة البرسقي: ولاه السلطان محمد بن ملكشاه على الموصل سنة ٥٠٨هـ، ثم عزله وأعاده للولاية على الموصل السلطان محمود بن محمد سنة٥١٥هـ ،وقد قتل البرسقي على يد الباطنية اثناء صلاة الجمعة سنة٥٢١هـ(ابن القلانسي: ص٢١٤؛ ابن الأثير: الباهر،ص٢٤).

67- نفس المصدر ونفس الصفحة.

68- محمد بن ياغسيان : هوابن ياغسيان السلجوقي الذي كان أميراً على أنطاكية حين داهمها الصليبيون سنة ١٠٩٨م واستولوا عليها(ابن الأثير: الكامل،ج٨،ص٢٧٤).

69-ابن الأثير: الكامل،ج٨،ص٢٧٤.

70- نفس المصدر ونفس الصفحة.

71-ابن الأثير: الكامل،ج٨،ص٢٤٨؛ النويري: نهاية الأرب،ج٢٦،ص٣٦٦.

72- ابن الأثير: الكامل،ج٨،ص٢٤٨

73- نفس المصدر ونفس الصفحة.

74-نفس المصدر ونفس الصفحة.

75-نفس المصدر ونفس الصفحة.
76- نفس المصدر ونفس الصفحة.
77- والنعمانية : بليدة صغيرة بين واسط وبغداد على ضفة دجلة (ياقوت : معجم البلدان)
78- ابن الأثير: الكامل،ج٨،ص٢٤٨؛ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب في أخبار من ذهب،ج٤،ص٢؛ النويري: نهاية الأرب،ج٢٦،ص٣٦٧؛ عاشور: الحركة،ج١،ص٤٢٦-٤٢٨.
79- البستان الجامع لجميع تواريخ أهل الزمان،الموسوعة الشامية،تحقيق سهيل زكار،دمشق،دار الفكر ١٩٩٥م-١٤١٦هـ،ج١١،ص٣٣٧.
80- ميخائيل السوري: المصدر السابق،ج٥،ص١٢٥
81-ابن الأثير: الكامل،ج٨،ص٢٤٨؛ النويري: نهاية الأرب،ج٢٦،ص٣٦٧.
82- ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب،ج٤،ص٢؛النويري: نهاية الأرب،ج٢٦،ص٣٦٨،
83- ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب ،ج٤،ص٢؛الذهبي: العبر،ج٤،ج١،ص١-٢؛ النويري: نهاية الأرب،ج٢٦،ص٣٦٨.
84- البطيحة تقع بين واسط والبصرة أرضها متسعة(ياقوت : معجم البلدان)
85- هو شرف الدولة مودود التونتكين، ولاه السلطان محمد بن ملكشاه على الموصل سنة٥٠١هـ، وكان زاهداً ورعاً تقياً تصدى لجهاد الصليبيين، ودارت بينه وبينهم العديد من المواجهات، قُتل على يد الباطنية اثناء الصلاة في الجامع الأموي(ابن القلانسي: الذيل،ص١٨٧-١٨٨؛ابن ايبك الدوادار: كنز الدرر وجامع الغرر،ج٦،ص٤٧٦؛ أسامة زيد: الصليبيون وإسماعيلية الشام في عصر الحروب الصليبية، الإسكندرية،١٩٨٠،ص١٩١).
86- ابن خلكان: وفيات الأعيان،تحقيق احسان عباس ،بيروت،دار صادر١٩٦٩م،ج٢،ص٢٦٤؛ ابن الأثير: الكامل،ج٨،ص٢٤٩.
87- ابن الأثير: الكامل،ج٨،ص٢٥٧.
88- ابن الأثير: الكامل،ج٨،ص٢٤٩؛ النويري: نهاية الأرب،ج٢٦،ص٣٦٨؛ عاشور: الحركة،ج١،ص٤٢٨.
89- الأصفهاني: تاريخ دولة آل سلجوق، ص١١٥.
90- ابن الأثير: الباهر،ج١٤،ص١٣٤؛ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب،ج٤،ص٣٠.
حكم السلطان محمد بن ملكشاه اثنتي عشر سنة، وتوفى وعمره تسع وثلاثين سنة وأربع أشهر وكان عادلاً حسن السيرة(الغزالي: التبر المسبوك،ص٢٢)ويشير رانسيمان إلى أنّ السلطان محمد كان آخر سلاطين السلاجقة الأقوياء(تاريخ الحروب الصليبية،ج٢،ص٢١٢).
91- ابن أبي الدم الحموي: التاريخ المظفري، الموسوعة الشامية،تحقيق سهيل زكار،دمشق،دار الفكر١٩٩٥م-١٤١٦هـ،ج٢١،ص٢١٩؛ ابن العبري: تاريخ الزمان،ص١٣٦.
92- الغزالي: التبر المسبوك،ص٢٢؛ ابن العبري: تاريخ الزمان،ص١٣٦.
93- الأصفهاني: تاريخ دولة آل سلجوق،ص١١٩.

94-ابن الأثير: الكامل،ج٨،ص٢٨٠.

95- وأتابك لقب يتكون من لفظين أتا وتعني الأب وبك ومعناها أمير وكان لقب أتابك يحمله كل قائد تركي اي الأمير الذي توكل له تربية أبناء السلطان(القلقشندي : صبح الأعشى في صناعة الإنشا، القاهرة، المؤسسة المصرية العامة،د.ت ج٤،ص١٨؛ حسن الباشا :الألقاب الإسلامية،ص١٢٢-١٢٣،؛ السيد الباز العريني: الشرق الأوسط والحروب الصليبية، القاهرة ١٣٨٢هـ/١٩٧٣م ج١،ص٢٠-٢١).

96- ابن الأثير: التاريخ الباهر،ج١٤،ص١٣٥.

97- ابن الأثير : التاريخ الباهر،ج١٤،ص١٣٦.

98- وعماد الدين زنكي:هو ابن الحاجب قسيم الدولة آقسنقر التركي، قتل والده وهو في العاشرة من عمره، فاحتضنه كربوغا أمير الموصل ، وظل مصاحباً له ،وعندما أصبح البرسقي أميراً على الموصل خرج معه عماد الدين لمحاربة الصليبيين ، فأبلى بلاء حسناً ،ومن أجل أعماله استرداده لإمارة الرها من الصليبيين سنة٥٣٩هـ١١٤٤م وقتل سنة ٥٤١هـ (ابن واصل: مفرج الكروب، تحقيق جمال الدين الشيال،القاهرة١٩٥٣م ،ج١،ص٢٨-٩٩-١٠٠، المقريزي : السلوك،ج١،ق١،ص٢٨،ابو المحاسن: النجوم الزاهرة،ج٥،ص٢٧٨؛ الذهبي: العبر في أخبار من غبر،ج٤،ص١١٢؛ العريني: السيد الباز العريني: الشرق الأوسط والحروب الصليبية، القاهرة١٣٨٢هـ/١٩٧٣م،ج١،ص٤٣٢-٥٢٩-٥٣٠). ويشير الدكتور أحمد شلبي أن استرداد عماد الدين زنكي كان سنة ١١٢٧م (الحروب الصليبية) والصحيح أنه كان سنة ١١٤٤م لإجتماع المصادر العربية والأجنبية على ذلك .

99- ابن الأثير: الباهر،ج١٤ص١٣٦.

100-مسفر الغامدي: المرجع السابق،ص٧٣.

101- هو ابو منصور الفضل بن المستظهر بن المقتدي بن الذخيرة بن القائم ابن القادر، ولد سنة٤٨٥هـ، وأمه أم ولد يقال لها طرفة، بويع له بالخلافة يوم وفاة والده المستظهر، ولما بويع له صلى على المستظهر وعجل في دفنه، لأنه رآه في النوم كأنه يقول له أخرجني من عندك وإلا أخذتك عندي فعجل في إخراجه، وكان المسترشد ذا همة عالية وشهامة زائدة وإقدام ورأي وهيبة شديدة ضبط أمور الخلافة ورتبها أحسن ترتيب(السيوطي: تاريخ الخلفاء،ص٤٩٦؛ابن واصل الحموي: التاريخ الصالحي، الموسوعة الشامية، تحقيق سهيل زكار،دمشق،دار الفكر١٩٩٥م/١٤١٦هـ،ج٢١،ص٤٥٩).

102- ابن واصل الحموي: التاريخ الصالحي ،ج٢١،ص٤٥٨.

توفى المستظهر بالله في٢٧ ربيع الآخر من سنة٥١٢هـ، وكان عمره إحدى واربعين سنة وأشهراً وكانت خلافته أربعاً وعشرين سنة وثلاثة أشهر وأحد عشر يوماً (ابن أبي الدم الحموي: التاريخ المظفري،ج٢١ ،ص٢١٩-٢٢٠) أما العماد الأصفهاني فيذكر أن خلافة المستظهر بالله كانت خمسة وعشرين سنة وخمسة أشهر وثلاثة أيام (البستان الجامع لجميع تواريخ أهل الزمان،ج١١،ص٢٤٠).

103- ابن العديم: بغية الطلب في تاريخ حلب، الموسوعة الشامية،تحقيق سهيل زكار،دمشق ،دار الفكر١٩٩٥م١٤١٦هـ ج١٦،ص٣٦١.

104- ابن واصل الحموي: التاريخ الصالحي،ج٢١،ص٤٥٩.
105- ابن قاضي الشهبة: الكواكب الدرية في السيرة النورية، الموسوعة الشامية،تحقيق سهيل زكار،دمشق،دار الفكر ١٩٩٥م/١٤١٦هـ ، ج٢٣،ص١٩٢-١٩٣.
106-مسفر الغامدي: المرجع السابق،ص٧٣.
107- ابن قاضي الشهبة: المصدر السابق،ج٢٣،ص١٩٣.
108- ابن قاضي الشهبة: المصدر السابق،ج٢٣،ص١٩٤.
109- ابن واصل الحموي: التاريخ الصالحي،ج٢١،ص٤٦٠.
110- ابن الأثير: الكامل،ج٨،ص٢٩١.
111- ابن واصل : التاريخ الصالحي،ج٢١،ص٤٦٠.
112- ابن العديم: بغية الطلب في أخبار حلب، ،ج١٦،ص٣٥٢؛ ابن واصل الحموي: التاريخ الصالحي،ج٢١،ص٤٦٠؛ ابن العبري: تاريخ الزمان،ص١٤٢.
113- ابن الأثير: الكامل،ج٨،ص٢٩٢.
114- ابن العديم: بغية الطلب، الموسوعة الشامية،ج١٦،ص٣٥٢.
115- ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق،ص٢٠٢.
116- ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق،ص٢٠٢-٢٠٣؛ ابن العديم: بغية الطلب في أخبار حلب،الموسوعة الشامية،ج١٦،ص٣٥٢.
ومالك بن سالم بن بدران بن مقلد كان يحكم حلب، فلما جاء السلطان ملكشاه اخذ منه حلب وعوضه بقلعة جعبر، فأقام فيها حتى توفاه الله فيها في سنة٥١٩هـ(ابن العديم: بغية الطلب، الموسوعة الشامية،تحقيق سهيل زكار،ج١٦،ص٤٠٤-٤٠٦).
117- ماردين : قلعة مشهورة على قمة جبل الجزيرة وأمامها ربض عظيم وفضاء واسع (ياقوت: معجم البلدان).
118-ابن الأثير: الكامل،ج٨،ص٣٠٤.
119- ابن العديم : بغية الطلب في أخبار حلب، الموسوعة الشامية،ج١٦،ص٣٥٢.
120- ابن الأثير: الكامل،ج٨،ص٢٩٣.
121- ابن الأثير: الكامل،ج٨،ص٢٩٣.
122- ابن العديم: بغية الطلب، الموسوعة الشامية،ج١٦،ص٣٥٢.
123- ابن العديم: بغية الطلب، الموسوعة الشامية،ج١٦،ص٣٥٢.
124-ابن الأثير: الكامل،ج٨،ص٣٠٧.
125- نفس المصدر ونفس الصفحة.
126- نفس المصدر،ج٨،ص٣٠٧-٣٠٨.
127- هذا نوع من أنواع التعذيب الذي كان يستخدم في ذلك العصر وهوفقأ العينين.

128- ابن الأثير: الكامل،ج٨،ص٣٠٨.
129- ابن أبي الدم الحموي : التاريخ المظفري،ج٢١،ص٢٢١.
130- ابن الأثير: الكامل،ج٨،ص٣٠٧.
131- ابن أبي الدم الحموي: التاريخ المظفري،الموسوعة الشامية، تحقيق سهيل زكار،ج٢١،ص٢٢١.
132- ابن الأثير: الكامل،ج٨،ص٣١٠.
133ابن أبي الدم الحموي: التاريخ المظفري،ج٢١،ص٢٢١.
134- ابن أبي الدم الحموي: التاريخ المظفري،ج٢١،ص٢٢١.
135-ابن كثير: البداية والنهاية،ج١٢،ص٢٠٤.
136- ابن الأثير: الكامل،ج٨،ص٣١١.
137- عاشور:بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى،بيروت١٣٩٥هـ/١٩٧٥م،ص٦١.
138-ابن الأثير: الكامل،ج٨،ص ٣١١.
كلمة دبير تعني يا تاعس الحظ ويذكر ابن العبري أن دبيس رد على المرأة بقوله وهو يبتسم إن تاعس الحظ هو من يتغيب ولايحضر(تاريخ الزمان،ص١٤٢).
139- ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق،ص٢٠٢-٢٠٣؛ ابن العديم: بغية الطلب في أخبار حلب ،ج١٦،ص٣٥٢-٣٦١.
140- ابن العديم: زبدة الحلب،ج١،ص٤١٨؛ الحموي: التاريخ الصالحي،ج٢١،ص٤٦٢؛ ميخائيل السوري: المصدر السابق،ج٥،ص١٣١.
توفى نجم الدين إيلغازي سنة٥١٦هـ، فتولى ابنه تمرتاش حكم ماردين وملك ابنه سليمان ميافارقين، وكان بحلب ابن أخيه سليمان عبد الجبار بن أرتق فبقى بها إلى أن أخذها ابن عمه حسام الدين تمرتاش(ابن الأثير: الكامل،ج٨،ص٣٠٩).
وماردين: قلعة عظيمة عل قمة جبل الجزيرة كان لها ربض عظيم وأسواق كثيرة (ياقوت: معج البلدان).
141 - Setton,A history of Crusades,The University of Wisconsin Press 1969,V I,p422.
سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان،الموسوعة الشامية،تحقيق سهيل زكار،دمشق١٩٩٥م/١٤١٦هـ،ج١٥،ص٣٠٣؛ فولشر اوف شارتر: المصدر السابق،ج٦،ص٥٠٣؛ رانسيمان: المرجع السابق، ترجمة السيد الباز العريني، بيروت- لبنان،دار الثقافة ١٤١٧هـ/١٩٩٧م ،ج٢،ص٢٧٢؛ وليم الصوري: المصدر السابق،ج٢،ص٦٢٥-٦٢٦.
وصور: هو اسم باللغة العبرية وTyre من أصل إغريقي وتعني ممر او مضائق وهي من اوسع المدن وأعظمهم صيتاً، لها قلعة مساحتها تزيد عن ميلين وكان لصور المكانة الأولى بين أقاليم سورية بسبب غناها وبكثرة سكانها(فولشر: المصدر السابق،ص٤٩٧؛ وليم الصوري: المصدر السابق،ج٢،ص٦١٢).
142- ابن الأثير: الكامل،ج٨،ص٣١٦.

143- ابن العديم: زبدة الحلب من تاريخ حلب، تحقيق سهيل زكار،دمشق- القاهرة،دار الكتاب العربي١٤١٨هـ/١٩٩٧م،ج١،ص٤١٨.

144-جوسلين الثاني: أبوه جوسلين الأول دي كورتناي ،وأمه من الأرمن وهي أخت ليو الأرمني، وجوسلين هو من امراء الصليبيين الذين ولدوا في الشرق، ولم يكن جوسلين مثل أبيه في المقدرة الحربية والشجاعة ، وكان متهاون في شؤن أمارته الرها محباً للهو مسرفاً في الشراب(عليه الجنزوري: إمارة الرها،ص ١٢٦-١٢٧).

145- بلدوين دي بورغ ينحدر من اسقفية الرايمز، وهو ابناً لهيو كونت رائل والكونتيسة مليسند، وهو أحد امراء الفرنج المشهورين بمكانتهم العالية، وكان محارباً قديراً عفيف النفس، مثالي الخلق متواضعاً مشهوراً بإخلاصه، وبحنكته الكبيرة في الأمور العسكرية أصبح أمير على الرها من سنة١١٠٠إلى سنة ١١١٨م وتمكن بدماثة خلقه أن يستحوذ على ود الأرمن، وبعد وفاة بلدوين الأول سنة ١١١٨م أصبح بلدوين دي بورغ ملكاً على بيت المقدس بدون ترتيب سابق لذلك تحت مسمى بلدوين الثاني.

Albert Of Aix,(1844-95), "liber Christianae Expeditions pro Ereptione et Emundantione et Restitutione Sanctae Hierosolymitanae Ecclesiae," in R.H.C., Historiens Occidentaux[Albert Paris,) vol.IV,p708. of Aix](5vols.,

وليم الصوري: المصدر السابق،ج١،ص٥٦٩.

146 محمود سعيد عمران: القادة الصليبيون الأسرى في أيدي الحكام المسلمين،بيروت،دار النهضة العربية ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م،ص ٧٠.

147 - ابن العديم: زبدة الحلب،ج١،ص١٩.

148 -Setton,op.cit.v,I,p424.

وبزاعة بلدة كانت من أعمال حلب في وادي بطنان بين منبج وحلب(ياقوت الحموي: معجم البلدان)

149- ابن العديم : زبدة الحلب ،ج١،ص٤٢٠؛ الحموي: التاريخ الصالحي،ج٢١،ص٤٦٢.

150 - ابن العديم: زبدة الحلب،ج١،ص٤٢٠.

Setton,op.cit,p424.

151- ابن العديم: بغية الطلب في تاريخ حلب، ،ص٣٥١.

152- ابن الأثير: الكامل،ج٨،ص٣١٦.

153- ابن العديم: زبدة الحلب،ج١،ص٤٢٠-٤٢١؛ ابن أبي الدم الحموي: التاريخ المظفري،ج٢١،ص٢٢٢.

154- ابن العديم: زبدة الحلب،ج١،ص٤٢١.

155- ابن أبي الدم الحموي: التاريخ المظفري،ج٢١،ص٢٢٢.

156- ميفارقين: هي اشهر قاعدة بديار بكر(ياقوت الحموي: معجم البلدان)

157 ابن العديم: زبدة الحلب،ج١،ص٤٢٢؛محمود سعيد عمران: المرجع السابق ،ص٧١.

158- ابن العديم : زبدة الحلب،ج١،ص٤٢٢.

159-ابن العديم : زبدة الحلب،ج١.ص٤٢٢.

160- ابن العديم: زبدة الحلب،ج١،ص٤٢٢.

161- ابن العديم : زبدة الحلب،ج١،ص٤٢٢.

162- ابن العديم: زبدة الحلب،ج١،ص٤٢٣؛سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان،الموسوعة الشامية،تحقيق سهيل زكار،دمشق١٩٩٥م/١٤١٦هـ،ج١٥،ص٣٠٣.

163- ابن العديم: زبدة الحلب،ج١،ص٤٢٣؛ابن أبي الدم الحموي:التاريخ المظفري،ج٢١،ص٢٢٢.

164- ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق،،١٩٠٨،ص٢١١-٢١٢؛ ابن أبي الدم الحموي: التاريخ المظفري،ج٢١،ص٢٢٢.

165- العماد الأصفهاني: البستان الجامع، الموسوعة الشامية، تحقيق سهيل زكار،دمشق ،دار الفكر١٤١٦هـ/١٩٩٥م ج١١،ص٣٤٢.

166- الحموي: التاريخ الصالحي،ج٢١،ص٤٦٢.

167- محمود سعيد عمران: المرجع السابق،ص٧٣.

168- العماد الأصفهاني: البستان الجامع،ج١١،ص٣٤٢؛ الحموي: التاريخ الصالحي،ج٢١،ص٤٦٢.

169- ابن أبي الدم الحموي: التاريخ المظفري،ج٢١،ص٢٢٢؛ ميخائيل السوري: المصدر السابق،ج٥،ص١٣١.

170- ابن العديم : زبدة الحلب،ج١،ص٤٢٤.

171- ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق،ص٢١٢.

172- مسفر الغامدي: الجهاد ضد الصليبيين،ص٨٠.

173- نفس المرجع ونفس الصفحة.

174- ابن ابي الدم الحموي: التاريخ المظفري،ج٢١،ص٢٢١-٢٢٢؛ ابن قاضي الشهبة: المصدر السابق،ج٢٣،ص١٩٩.

175- ابن الأثير: الكمل،ج٨،ص٣١٨.

176- ابن قاضي الشهبة: المصدر السابق،ج٢٣،ص١٩٩.

177-ابن كثير: البداية والنهاية، م،ج١٢،ص٢٠٨.

178- ابن الأثير: الكامل،ج٨،ص٣١٨.

179- ابن ابي الدم الحموي: التاريخ المظفري: ج٢١،ص٢٢٢.

180- سنجر: هو معز الدين عماد آل سلجوق أبو الحارث سنجر شاه برهان، أمير المؤمنين ابن السلطان جلال الدولة ملكشاه، وسماه والده سنجر لأنه ولد بسنجار، وعندما مات السلطان محمد كان سنجر مستقرا بخراسان، دارت بينه وبين ابن أخيه محمود حروب ووقائع توفى سنة ٥٥٢هـ(النويري: نهاية الأرب، ج٢٦، ص٣٧٢-٣٧٣-٣٨٩؛ الفارقي: تاريخ الفارقي، تحقيق بدوي عبد اللطيف عوض، ص٢٨٧).

181- بعد وفاة السلطان محمد أنتقلت السلطنة من العراق إلى خراسان لأن سنجر لم يبق في بيت السلطان ملكشاه من هو أكبر منه فكان هو السلطان المشار إليه وكان ملكاً في حياة أخيه محمد(النويري: نهاية الأرب،ج٢٦،ص٣٧٢).

182- ابن أبي الدم الحموي: التاريخ المظفري،ج٢١،ص٢٢٣.

183- ابن الأثير : التاريخ الباهر،ص٢٨، ابن واصل: مفرج الكروب في أخبار بني أيوب،ج١،ص٣٠.

184- ابن كثير: البداية والنهاية، القاهرة،ج٦،ص٢٠٩.

185- ابن كثير: البداية والنهاية،،ج١٢،ص٢٠٩، الذهبي: دول الإسلام، تحقيق فهيم شلتوت ومصطفى ابراهيم، القاهرة١٩٧٤،ج٢،ص١٣٦.

186- ابن الأثير : الباهر، ص١٤٣.

187- عاشور: بحوث ودراسات،ص٦١.

188- ابن الأثير: الكامل،ج٨،ص٣٢١.

189-ابن الأثير: الباهر،ص١٤٤.

190- ابن الأثير: الباهر،ص١٤٣.

191- ابن أبي الدم الحموي: التاريخ المظفري،ج٢١،ص٢٢٣.

192- ابن أبي الدم الحموي: التاريخ المظفري،ج٢١،ص٢٢٣.

193- ابن ابي الدم الحموي: التاريخ المظفري،ج٢١،ص٢٢٣.

194- ابن الأثير: الكامل،ج٨،ص٣٢١.

195- ابن الأثير: الباهر،ص١٤٤.

196-ابن الأثير: الكامل،ج٨،ص٣٢٠.

197- الحموي: التاريخ الصالحي،ج٢١،ص٤٦٢؛ ابن أبي الدم الحموي: التاريخ المظفري،ج٢١،ص٢٢٣.

198-ابن الأثير: الباهر،ص١٤٦؛ ابن الأثير: الكامل،ج٨،ص٣٢٢.

199- ابن الأثير: الكامل،ج٨،ص٣٢٢.

200- ابن ابي الدم الحموي: التاريخ المظفري،ج٢١،ص٢٢٣-٢٢٤؛ ابن العبري: تاريخ مختصر الدول،ص٢٠٢).

201- الحموي: التاريخ الصالحي،ج٢١،ص٤٦٣.

202 ابن الأثير : الباهر،ج١٤،ص١٤٦؛أبو الفد: المختصر في أخبار البشر،ج٢،ص٢٣٨،ابن واصل : مفرج الكروب،ج١،ص٣١.

203- ابن الأثير: الكامل،ج٨،ص٣٢٤؛ الحموي: التاريخ الصالحي،ج٢١،ص٤٦٢؛ ابن أبي الدم الحموي: التاريخ المظفري،ج٢١،ص٢٢٤.

204- ابن الأثير: الباهر،ج١٤،ص١٤٦.

قتل آقسنقر البرسقي على يد جماعة من الباطنية في جامع الموصل في يوم جمعة(ابن أبي الدم الحموي: التاريخ المظفري،ج٢١،ص٢٢٣).

205- ابن العبري: تاريخ مختصر الدول،ص٢٠٢.

عز الدين مسعود هوابن برسق البرسقي، كان عاقلاً حسن السيرة، جرت أمور الموصل في عهده على أحسن مايكون، ولكنه لم تطل أيامه فمات بعد والده بسنة واحدة (ابن الأثير: الباهر،ج١٤،ص١٤٧).

206- ابن الأثير: الكامل،ج٨،ص٣٢١.

207- ابن العديم: زبدة الحلب،ج٢،ص٤٣٨.

208- ابن واصل الحموي: التاريخ الصالحي،ج٢١،ص٤٦٤.

209- ابن الأثير: الباهر،ج١٤،ص١٥٠؛ ابن واصل : مفرج الكروب ،ج١،ص٣١-٣٣.

وبلاد الجزيرة تقع بين دجلة والفرات قريبة من الشام، وتشمل ديار بكر ومضر، وتمتاز منطقة الجزيرة بأن هوائها صحي إلى جانب سعة خيراتها (أبو الفدا: تقويم البلدان، باريس ١٨٤٠ص٢٧٣-٢٧٤، ونصيبين : مدينة على شاطىء الفرات وعلى جادة القوافل من الموصل إلى الشام، تحف بها عن يمين وعن شمال بساتين ملتفة الأشجار يانعة الثمار، والمسافة بينها وبين حران اربعة ايام وكذلك بينها وبين الموصل ستة أيام وهي مدينة عامرة من بلاد الجزيرة (ابن جبير: رحلة ابن جبير،ص١٩٢؛ ياقوت الحموي: معجم البلدان).

210- ابن الأثير: الباهر،ص٣٥؛ ابن واصل الحموي،ج٢١،ص٤٦٤-٤٦٥؛ ابن واصل : مفرج الكروب،ج١،ص٣٣؛العظيمي: تاريخ العظيمي،حوادث سنة ٥٢١هـ؛ استانلي بول: المرجع السابق،ص١٥٢.

211- مسفر الغامدي: المرجع السابق،ص١٨٨؛ أسمت غنيم: تاريخ الحروب الصليبية،الإسكندرية١٩٩٦م،ص٤٠.

212- منبج: مدينة كبيرة بين الفرات وحلب في فضاء من الأرض، فسيحة الأرجاء صحيحة الهواء تحف بشرقيها وغربيها بساتين ملتفة الأشجار مختلفة الثمار .و الرحبة: مدينة تقع على الفرات بين الرقة وبغداد وكانت محط القوافل بين العراق والشام(ابو الفدا: تقويم البلدان،باريس ١٨٤٠م،٢٨٠، ابن جبير: المصدر السابق،ص٢٠٠-٢٠١؛ ياقوت الحموي: تقويم البلدان).

213- ابن واصل الحموي: التاريخ الصالحي،ج٢١،ص٤٥٦.

كان للفرنج يقاسمون أهل حلب على رحا بباب الجنان وكان بين الفرنج وحلب مسافة قليلة(ابن الأثير: الباهر،ج١٤،ص١٥٤).

214-ابن الأثير:الباهر،ص١٥٤؛ اسمت غنيم: تاريخ الحروب الصليبية،ص٤٠.

215- النويري: نهاية الأرب،ج٢٦،ص٣٨٢.

216- ابن الأثير: الكامل،ج٨،ص٣٢٦؛ النويري: نهاية الأرب،ج٢٦،ص٣٨٢.

217- ابن الأثير: الكامل،ج٨،ص٣٢٧.

218-ابن الأثير: الكامل،ج٨،ص٣٢٨.

219 - ابن أبي الدم الحموي: التاريخ المظفري،ج٢١،ص٢٢٤ويشير ابن العبري: أن عماد الدين زنكي تذلل وتوسل للسلطان ليبقيه في مكانه وقدم الهدايا والأموال من أجل ذلك (تاريخ الزمان،ص١٤٢) وماذكره

المؤلف يتنافى مع شخصية عماد الدين زنكي الفذة ولكنه عبر عن حقده الدفين على زنكي الذي استرد الرها معقل الأرمن سنة٥٣٩هـ/١١٤٤م.

220-ابن الأثير: الكامل،ج٨،ص٣٢٨.

221- ابن العبري: تاريخ الزمان،ص١٤٢.

222-ابن الأثير: الكامل،ج٨،ص٣٢٨.

والاميرين الذين ضمنا دبيس هما قزل والاحمديلي(ابن الاثير: الكامل،ج٨،ص٣٢٨).

223-ابن الأثير: الكامل،ج٨،ص٣٢٨.

224- ابن أبي الدم الحموي: التاريخ المظفري،ج٢١،ص٢٢٤.

225-ابن الأثير: الكامل،ج٨،ص٣٢٨.

226- ابن واصل الحموي: التاريخ الصالحي،ج٢١،ص٤٥٦-٤٥٧.

227-ابن الأثير: الكامل،ج٨،ص٣٣٨؛ ابن العبري: تاريخ الزمان،ص١٤٢.

228- ابن العديم: زبدة الحلب،ج٢،ص٤٤٢؛ ابن واصل الحموي: التاريخ الصالحي،ج٢١،ص٤٦٧.

229- ابن الأثير : الكامل،ج٨،ص٣٣٣.

230- ابن الأثير: الباهر،ص١٦٤.

صرخد: بلد مجاور لحوران من أعمال دمشق،وهي قلعة حصينة(ياقوت الحموي: معجم البلدان).

231- ابن أبي الدم الحموي: التاريخ المظفري،ج٢١،ص٢٢٥.

232- ابن القلانسي: الذيل،ص٢٣١.

و تاج الملوك بوري: أبوه طغتكين أتابك حاكم دمشق،وقد أصبح تاج الملوك بوري أميراً على دمشق سنة٥٢٢هـ، وذلك بعد وفاة والده، وكان حسن السيرة عادلاً شجاعاً، قاتل الإسماعيلية وفتك بهم وقتل سنة ٥٢٦هـ، وللمزيد من التفاصيل انظر ابن القلانسي: الذيل،ص٢٢٠إلى٢٣٣؛ ابو الفدا المختصر في تاريخ البشر،ج٣،ص٥.

233- ابن العديم: زبدة الحلب،ج٢،ص٤٤٢-٤٤٣؛الحموي: التاريخ الصالحي،ج٢١،ص٤٦٧.

234-ابن الأثير : الباهر،ص١٦٤.

بعد أن ملك عماد الدين زنكي حلب، أراد أن يستولي على دمشق، فقام بخديعة أميرها تاج الملوك بوري، وطلب منه المساعدة لقتال الصليبيين فأرسل تاج الملوك ابنه سونج إلى عماد الدين ليكون تحت لوائه، ولكن عماد الدين ألقى القبض على سونج وسجنه في الموصل سنة٥٢٤هـ(ابن القلانسي: الذيل،ص٢٢٨،ابن واصل: مفرج الكروب ،ج١،ص٤١-٤٢).

235- بغية الطلب: ج١٦،ص٣٦٣.

236-ابن العديم: زبدة الحلب،ج٢،ص٤٤٣-٤٤٤.

237- ابن الأثير: الباهر،ص١٦٤.

238- ابن خلدون: العبر، ج٥،ص١٥٦؛ابن العديم: بغية الطلب،ج١٦،ص٣٥١؛ ابن أبي الدم الحموي: التاريخ المظفري،ج٢١،ص٢٢٥.

239- ابن العديم: زبدة الحلب،ج٢،ص٤٤٤.

240- ابن أبي الدم الحموي: التاريخ المظفري،ج٢١،ص٢٢٥.

كان زنكي حكيماً يحتاط للأمور، ولذا كان لايمكن رسول ملك أن يعبر في بلده بغير أمره، وإذا استأذنه رسول الملك أو الخليفة أرسل إليه من يسير معه ولايتركه يجتمع بأحد من الرعية ، فكان الرسول يدخل بلاده ويخرج منها ولايعلم من أحواله شيئاً (ابن الأثير: الباهر،ص١٦٥).

241- حامد زيان: المرجع السابق،ص٧٦.

242- الحموي: التاريخ الصالحي،ج٢١،ص٤٦٧أما المؤرخ ابن أبي الدم الحموي فقد ذكر أن وفاته كانت في سنة ٥٢٣هـ إلا أنه ذكر في مصنفه أنه قد قيل سنة ٥٢٥هـ(التاريخ المظفري،ج٢١،ص٢٢٤).

243- خوزستان: هي اسم لجميع بلاد الخوز وأرض خوزستان شبيهة بأرض العراق في هوائها وصحتها(ياقوت الحموي: معجم البلدان).

244- ابن واصل الحموي: التاريخ الصالحي،ج٢١،ص٤٦٨.

245- ابن أبي الدم الحموي: التاريخ المظفري،ج٢١،ص٢٢٦.

246-- ابن واصل الحموي: التاريخ الصالحي،ج٢١،ص٤٦٩؛ ابن العبري: تاريخ مختصر الدول،ص٢٠٣؛ ابن العبري: تاريخ الزمان،ص١٤٥.

247-ابن الأثير: الكامل،ج٨،ص٣٣٧.

248- الحموي: التاريخ الصالحي،ج٢١،ص٤٧١.

249- ابن الأزرق الفارقي: تاريخ آمد وميافارقين، الموسوعة الشامية،تحقيق سهيل زكار، دمشق،دار الفكر١٩٩٥م-١٤١٦هـ ،ج١١،ص ٢٢٢؛الحموي: التاريخ الصالحي،ج٢١،ص٤٧١.

250- ابن كثير: البداية والنهاية،ج١٢،ص٢٢٢.

251- ابن واصل الحموي: التاريخ الصالحي،ج٢١،ص٤٦٩.

252- الحموي: التاريخ الصالحي،ج٢١،ص٤٧١؛ المقريزي: السلوك،ج١،ق١،ص٥٦؛ ابن العبري: تاريخ الزمان،ص١٤٧.

253- الحموي: التاريخ الصالحي،ج٢١،ص٤٧١.

254- الفارقي: المصدر السابق،ج١١،ص٢٢٢.

255- ابن كثير: البداية والنهاية،ج١٢،ص٢٢٢-٢٢٣.

256- الحموي: التاريخ الصالحي،ج٢١،ص٤٧١. ابن العبري: تاريخ الزمان،ص١٤٧.

257- الفارقي: المصدر السابق،ج١١،ص٢٢٢.

258- الفارقي: المصدر السابق،ج١١،ص٢٢٢.

259- ابن أبي الدم الحموي: التاريخ المظفري،ج٢١،ص٢٢٧؛ الفارقي: المصدر السابق،ج١١،ص٢٢٢؛ ابن العبري: تاريخ مختصر الدول،ص٢٠٤؛ عاشور: بحوث ودراسات،ص٦٢.

ذكرابن النظيف الحموي ان أسر المسترشد كان في سنة٥٣٠هـ(التاريخ المنصوري،الموسوعة الشامية،تحقيق سهيل زكار،دمشق،دار الفكر١٩٩٥م/١٤١٦هـ،ج٢١،ص٣٠٥.

260- الحموي: التاريخ الصالحي،ج٢١،ص٤٧١؛ ابن العبري : تاريخ الزمان،ص١٤٧.

261- الحموي: التاريخ الصالحي،ج٢١،ص٤٧١-٤٧٢؛ ابن كثير: البداية والنهاية،ج١٢،ص٢٢٣؛ ابن العبري: تاريخ الزمان،ص١٤٨.

الغاشية : هي الغطاء وقيل غلاف السيف،وقيل الراية.

262- مراغة: بلدة مشهورة بأذربيجان (ياقوت الحوي: معجم البلدان).

263- السيوطي: تاريخ الخلفاء،ص٤٩٧.

264- ابن العبري: تاريخ مختصر الدول،ص٢٠٤.

265 ابن قاضي الشهبة: المصدر السابق،ج٢٣،ص٢٠٧؛ ابن كثير: البداية والنهاية،ج١٢،ص٢٢٣.

266- تاريخ الزمان،ص١٤٨.

267- ابن أبي الدم الحموي: التاريخ المظفري،ج٢١،ص٢٢٨؛ ابن كثير: البداية والنهاية،ج١٢،ص٢٢٣.

يشير المؤرخ ابن العبري إلى الشروط التي وضعه السلطان مسعود للصلح ، وهي مال يؤديه الخليفة، وأن لايجمع العساكر ولايخرج من داره، فقبل الخليفة(تاريخ مختصر الدول،ص٢٠٤).

268 - عاشور: بحوث ودراسات،ص٦٢. اختلفت المصادر في عدد الرجال الباطنية الذين قتلوا الخليفة فذكر ابن الأثير أن عددهم أربعة عشر(الباهر،ج١٤،ص١٦٩) بينما ذكر ابن العبري أن عددهم أربعة وعشرين(مختصر الدول،ص٢٠٤).

269- الأصفهاني: تاريخ دولة آل سلجوق،١٦٥؛ المقريزي: السلوك،ج١،ق١،ص٥٦؛ ابن العبري: تاريخ الزمان،ص١٤٩.

270- الأصفهاني: تاريخ دولة آل سلجوق،ص١٦٥.وتعترض الباحثة على تلك العبارة فسيد الخلائق هو محمد بن بن عبد الله ولايسبقه في ذلك أحد.

271-ابن واصل الحموي: التاريخ الصالحي،ج٢١،ص٤٧٢؛ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب،ج٤،ص٨٦؛ ابن العبري: تاريخ مختصر الدول،ص٢٠٤.

أما المؤرخ العماد الأصفهاني فذكر أن قتله كان سنة ٥٣٠هـ والراجح أنه في سنة٥٢٩هـ لإجتماع المصادر على ذلك.

272- ابن ابي الدم الحموي: التاريخ المظفري،ج٢٨٨،٢١.

273- السيوطي: تاريخ الخلفاء،ص٤٩٨.

274- الحموي: التاريخ الصالحي،ج٢١،ص٤٧٢-٤٧٣.

275- المصدر السابق،ج١١،ص٢٢٣.

276- الباهر،ج١٤،ص١٦٩.

277- ابن كثير: البداية والنهاية،ج١٢،ص٢٢٤؛ ابن واصل الحموي: التاريخ الصالحي،ج٢١،ص٤٧٣.

278- ابن الأثير: التاريخ الباهر،ج١٤،ص١٦٨.

279- ابن أبي الدم الحموي: التاريخ المظفري،ج٢١،ص٢٢٨.

280- الفرسخ يعادل ثلاثة أميال، وخمسة آلاف وخمسمائة وأربعة وأربعون كيلو متر.

281- ابن خلكان: وفيات الأعيان،ج٢،ص٢٦٥.

282- ابن كثير: البداية والنهاية،ج١٢،ص٢٢٤؛ ابن العديم: زبدة الحلب،ج٢،ص٤٤٤؛ ابن العديم: بغية الطلب،ج١٦،ص٣٦٧-٣٦٨.

283- ابن خلكان: وفيات الأعيان ،ج٢١،ص٢٨؛ الفارقي: المصدر السابق،ج١١،ص٢٢٣.

284- ابن أبي الدم الحموي: التاريخ المظفري،ج٢١،ص٢٢٩.

285- ابن العبري: تاريخ مختصر الدول،ص٢٠٤.

286-ابن خلكان: وفيات الأعيان،ج٢،ص٢٥٦ ؛ ابن كثير: البداية والنهاية،ج١٢،ص٢٢٤.

287- ابن العديم: زبدة الحلب،ج٢،ص٤٤٤؛ابن العديم: بغية الطلب،ج١٦،ص٣٦٤.

المقصود أن زنكي قد دفع مبلغاً لإستلام زنكي من تاج الملوك بوري ، ودفع دبيس روحه مقابل إنقاذ زنكي.

288- ابن خلكان: وفيات الأعيان،ج٢،ص٢٦٥.

289- ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق،ص٢٥١-٢٥٢.

290-الباهر،ص١٦٤.

291- وفيات الأعيان،ج٢،ص٢٦٣.

292- شذرات الذهب،ج٤،ص٩٠.

293- ابن العديم: بغية الطلب في تاريخ حلب،ج١٦،ص٣٦٠.

294- سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان،ج١٥،ص٢٠٢؛ فولشر اوف شارتر: تاريخ الحملة إلى القدس، الموسوعة الشامية،تحقيق سهيل زكار،دمشق ١٩٩٥م/١٤١٦هـ،ج٦،ص٤٨٣؛ رانسمان : المرجع السابق،ج٢،ص٢٥٨.

بلك بن بهرام الأرتقي: هو ابن أخي ايلغازي شحنة بغداد وهو صاحب قلعة خرتبرت تمكن من أسر جوسلين الأول أمير الرها والملك بلدوين الثاني وحبسهما في قلعته و للمزيد من التفاصيل عن تلك الحادثة أنظر وليم الصوري: المصدر السابق،ج١،ص٥٩٠؛

Anonymous,Syriec Chronicle, In Royal Asiatic Society 1933 pp90-91.

ميخائيل السوري: تاريخ ميخائيل السوري، ج٥،ص١٢٠.

295- ابن العديم: بغية الطلب،ج١٦،ص٣٦٠.

296- ابن الأثير: الكامل،ج٨،ص٣٦١؛ ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون،ج٥،ص٦٢.

297- ابن الأثير: الكامل،ج٩،ص١١.

298- ابن الأثير : الكامل،ج٩،ص٢٩.
ويذكر ابن الأثير في نفس المصدر ونفس الصفحة أن طبيب على بن دبيس والذي كان يدعى محمد بن صالح هو الذي اتهم به ولم يلبث ذلك الطبيب أن مات بعده بفترة قريبة.

المصادر العربية والمعربة

- ابن أبي الدم الحموي: (أبو إسحاق ابراهيم بن عبد الله،ت٦٤٢هـ/١٢٤٤م).

– التاريخ المظفري،الموسوعة الشامية ، تحقيق سهيل زكار، دمشق، دار الفكر ١٤١٦ هـ/ ١٩٩٥ م، ج٢١.

- ابن الأثير: (أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد، ت ٦٣٠هـ / ١٢٣٣م).

– التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية بالموصل،الموسوعة الشامية، تحقيق سهيل زكار، دمشق١٤١٦هـ/١٩٩٥م، ج١٤.

– الكامل في التاريخ، بيروت، ١٣٩٨م١٩٧٨م، ج٧.ج٨، ج٩.

- ابن أيبك الداواداري :(أبي بكر بن عبد الله بن أيبك، ت٧١٣هـ)

– كنز الدرر وجامع الغرر، تحقيق صلاح الدين المنجد، القاهرة١٣٨٠هـ/١٩٦١م، ج٦.

- ابن جبير (ابو الحسن محمد بن أحمد الكناني الأندلسي البلنسي، ت٦١٤هـ/١٢١٧م)

– رحلة ابن جبير، بيروت، دار ومكتبة الهلال، ١٩٨١م.

- ابن الجوزي: (ابو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد بن علي، ت٥٩٧هـ/١٠٢١م)

– المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، في الموسوعة الشامية، تحقيق سهيل زكار، دمشق، دار الفكر ١٤١٦هـ/١٩٩٥م، ج١١.

- ابن خلكان :(ابو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر، ت ٦٨١هـ/١٢٨٢م)

– وفيات الأعيان، تحقيق احسان عباس، بيروت، ١٩٦٩م، ج٢.

- وفيات الأعيان، الموسوعة الشامية تحقيق سهيل زكار، دمشق، دار الفكر ١٤١٦هـ/١٩٩٥م، ج٢١.

•ابن خلدون: (عبد الرحمن بن محمد، ت ٨٠٨ هـ /١٤٠٥م)

- العبر وديوان المبتدأ والخبر، بيروت – لبنان، مؤسسة جمال للطباعة والنشر ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م، ج٤، ج٥.

•ابن العماد الأصفهاني:(عماد الدين بن محمد بن حامد ، ت٥٩٧هـ/١٢٠١م)

- البستان الجامع لتواريخ الزمان، الموسوعة الشامية، تحقيق سهيل زكار، دار الفكر ١٤١٦هـ/١٩٩٥م، ج١١.

•ابن العبري : (جريجوريوس الملطي، ت ٦٨٥هـ/١٢٨٦م)

- تاريخ مختصر الدول ، الطبعة الأولى .

- تاريخ الزمان، نقله إلى العربية الأب إسحاق أرملة وصدر تباعاً في مجلة المشرق، ١٩٤٩-١٩٥٦م.

•ابن العديم:(كمال الدين عمر ين أحمد بن أبي جرادة، ت ٦٦٠هـ)

- زبدة الحلب من تاريخ حلب، تحقيق سهيل زكار، دار الكتاب العربي، دمشق –القاهرة، ١٩٩٧م، ج٢.

- بغية الطلب في تاريخ حلب، الموسوعة الشامية ، تحقيق سهيل زكار، دمشق، دار الفكر ١٤١٦هـ/١٩٩٥م، ج١٦.

•ابن العماد الحنبلي:(أبي الفلاح عبد الحي ، ت١٠٨٩هـ)

- شذرات الذهب في أخبار من ذهب، بيروت، دار الآفاق الجديدة، ج٣.

•ابن قاضي الشهبة:(بدر الدين محمد بن أبي بكر، ت٧٧٤هـ/١٣٧٢م)

-الكواكب الدرية في السيرة النورية، الموسوعة الشامية، تحقيق سهيل زكار، دمشق، دار الفكر ١٤١٦هـ/١٩٩٥م، ج٢٣.

•ابن القلانسي:(ابو يعلي حمزة، ت٥٥٥هـ/١١٦٠م)

- ذيل تاريخ دمشق، مطبعة الأباء اليسوعيين، بيروت.

•ابن كثير(عماد الدين إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي، ت٧٧٤هـ/ ١٣٧٢م)

- البداية والنهاية، القاهرة، دار الريان للتراث١٤٠٨هـ/١٩٨٨م، ط١، ج١٢،

•ابن واصل: (جمال الدين محمد بن سالم، ت٦٩٧هـ/١٢٩٨م)

- مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تحقيق جمال الدين الشيال، القاهرة١٩٥٣م، ج١.

- التاريخ الصالحي، الموسوعة الشامية، تحقيق سهيل زكار، دمشق، دار الفكر١٤١٦هـ /١٩٩٥م، ج٢١.

•ابو الفدا:(عماد الدين إسماعيل، ت ٧٣٢هـ/١٣٣١م)

- المختصر في أخبار البشر، صيدا، ١٩٥٠م، ج٢، ج٣.

- تقويم البلدان، باريس١٨٤٠م.

•ابو المحاسن (ابن تغري بردي جمال الدين يوسف الأتابكي، ت ٨٧٤هـ/١٤٦٩م)

- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، القاهرة، ١٩٧٢م، ج٥.

•الأصفهاني:(عبد الله محمد بن صفي الدين، ت٥٩٧هـ/١٢٠٠م)

- تاريخ دولة آل سلجوق، اختصارالفتح بن علي البنداري، بيروت١٩٧٨م.

• البنداري:(قوام الدين الفتح بن علي، ت٦٤٣هـ/١٢٤٥م)

- مختصر تواريخ آل سلجوق، تحقيق هوتسما، ليدن١٨٨٩م.

• الحسيني:(صدر الدين بن علي د.ت)

- أخبار الدولة السلجوقية، تصحيح محمد إقبال، بيروت، دار الآفاق الجديدة١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.

• الحموي: (أبي الفضائل محمد بن علي ابن نظيف)

التاريخ المنصوري، الموسوعة الشامية، تحقيق سهيل زكار، دمشق١٤١٦هـ/١٩٩٥م، ج٢١.

• الحموي(شهاب الدين ياقوت بن عبد الله، ت٦٢٦هـ/١٢٢٨م)

- معجم البلدان، بيروت ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م، خمسة أجزاء.

• سبط ابن الجوزي:(ابو المظفر يوسف بن قزاوغلي، ت٦٥٤هـ/١٢٥٦م)

- مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية، تحقيق سهيل زكار، دمشق، دار الفكر ١٤١٦هـ/١٩٩٥م.

• السيوطي (أبو الفضل عبد الرحمن بن الكمال أبي بكر جلال الدين، ت٩١١هـ/١٥٠٥م)

- تاريخ الخلفاء، دار الجيل الجديد ١٤١٧هـ/١٩٩٧م، الطبعة الثالثة.

• العظيمي: (محمد بن علي، ت٥٥٦هـ/١١٦١م)

- تاريخ العظيمي، نشره كلود كاهن في

Jornal asiatique,London,1938PP,367-422.

• العيني: (بدر الدين محمود ، ت٨٥٥هـ/١٤٥١م)

- عقد الجمان في تاريخ الأعيان، الموسوعة الشامية، تحقيق سهيل زكار،

دمشق، دار الفكر١٤١٦هـ/١٩٩٥م، ج٢٤.

● الغزالي:(أبي حامد محمد بن محمد، ت٥٠٥هـ)

-التبر المسبوك في نصائح الملوك، الرياض، دار العاذرية١٤١٥هـ/١٩٩٤م.

●الفارقي:(أحمد بن يوسف بن علي الأزرق، ت٥٩٠هـ/١٠٩٤م)

- تاريخ الفارقي، تحقيق بدوي عبد اللطيف عوض دار الكتاب اللبناني١٩٧٤م.

- تاريخ آمد وميافارقين، الموسوعة الشامية ، تحقيق سهيل زكار، دمشق، دار الفكر، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م، ج١١،

●فوشية اوف شارتر:

تاريخ الحملة إلى القدس ، الموسوعة الشامية ، تحقيق سهيل زكار، دمشق١٤١٦هـ/١٩٩٥م، ج٦.

القلقشندي: (ابو العباس احمد بن علي، ت ٨٢١هـ/١٤١٨م)

- صبح الأعشى في صناعة الأنشاء، المؤسسة المصرية العامة، د.ت، ج٤.

- نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، تحقيق إبراهيم الإبياري،١٩٨٠.

●المقريزي : (تقي الدين أحمد بن علي، ت ٨٤٥هـ/١٤٤٢م)

- كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك، نشر محمد مصطفى زيادة، ط٢، ج١، ق١.

●ميخائيل السوري:

- تاريخ ميخائيل السوري، في الموسوعة الشامية، تحقيق سهيل زكار، دار

الفكر ١٩٩٥م، ج٥.

•النويري (شهاب الدين محمد بن عبد الوهاب ، ت ٧٣٢هـ/١٣٣١م)

- نهاية الأرب وفنون الأدب ، الموسوعة الشامية، تحقيق سهيل زكـار، دار الفكر، ١٩٩٥م

•وليم الصوري :

- الأعمال المنجزة فيما البحار ، في تاريخ الحروب الصليبية ، ترجمة سهيل زكار، دار الفكر ، الطبعة الأولى ١٤١٠م

المراجع العربية والمعربة

•أحمد السعيد السليمان:

- تاريخ الدول الإسلامية، القاهرة١٩٦٩م، ج١.

- أحمد شلبي:

- الحروب الصليبية بدؤها مع مطلع الإسلام واستمرارها حتى الآن، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية ١٩٨٦م.

- استانلي بول:

- طبقات سلاطين الإسلام، بيروت، الدار العالمية ١٩٨٥م.

- أسامة زيد:

- الصليبيون وإسماعيلية الشام في عصر الحروب الصليبية، الإسكندرية ١٩٨٠م.

- السيد الباز العريني:

- الشرق الأوسط والحروب الصليبية، القاهرة١٣٨٢هـ/١٩٧٣م، ج١.

- أميرة مصطفى يوسف:

- سياسة الدولة البيزنطية تجاه القوى الصليبية في بلاد الشام، القاهرة ، مطبعة الحسين، الطبعة الأولى، د.ت.

- إسمت غنيم:

- تاريخ الحروب الصليبية، الإسكندرية ١٩٩٦م.

- حسن الباشا:

- الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار، القاهرة١٣٩٨ هـ/ ١٩٧ م.

- حامد زيان غانم زيان:

- الصراع السياسي والعسكري بين القوى الإسلامية زمن الحروب الصليبية، القاهرة ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م.

- حسن حبشي:

- الحرب الصليبية الأولى، دار الفكر العربي، ١٩٥٨م.

- رانسيمان:

- تاريخ الحروب الصليبية ، ترجمة السيد الباز العريني، دار الثقافة ، بيروت- لبنان ،١٤١٧هـ /١٩٩٧م ،

- عاشور:

-الحركة الصليبية، القاهرة، مكتبة الأنجلو١٩٩٦م، ج١.

- علية الجنزوري:

-إمارة الرها، القاهرة، ١٩٧٥م.

- بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى، بيروت ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م.

- محمد العمروسي المطوي:

- الحروب الصليبية في المشرق والمغرب، بيروت- لبنان، دار الغرب الإسلامي ١٩٨٢.

- محمود سعيد عمران: القادة الصليبيون الأسرى في أيدي الحكام المسلمين، بيروت، دار النهضة العربية ١٤٠٦ هـ/١٩٨٦م.

- مسفر الغامدي:

- الجهاد ضد الصليبيين في الشرق الإسلامي، دار المطبوعات الحديثة١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.

المصادروالمراجع الأجنبية

- Albert of Aix,(1844-95),"liber Christianae Expeditionis pro Ereptione et Emundantione et Restitutione Sanctae Hierosolymitanae Ecclesiae," in R.H.C., Historiens Occidentaux[Albert of Aix](5vols.,Paris,),vol.IV .
- Setton,K.M.(1969) Ahistory of the Crusades, tran by Marshal W. Baldwin London,v,1,
- Anonymous,Syriec Chronicle, In Royal Asiatic Society 1933.

النظم الإدارية فى مصر الحديثة

١٨٠٥ - ١٩١٤

أ.د. إسماعيل زين الدين

كلية الآداب – جامعة القاهرة

مقدمة

سبق أن تناولنا فى دراسة خاصة النظم المالية فى مصر الحديثة فيما بين عامى ١٨٠٥، ١٩١٤، لذا رأينا استكمالاً للموضوع إفراد دراسة أخرى تعالج النظم الإدارية خلال تلك الفترة أيضاً، والتى شهدت بدايات التحولات الاقتصادية والاجتماعية، انعكست بدورها على المجتمع المصرى بمختلف طوائفه. وسوف نقسم الدراسة إلى ثلاثة محاور رئيسة، نبدأها بتسليط الضوء على الإدارة المصرية فى النصف الأول من القرن التاسع عشر، ثم نتبعها بالنصف الثانى، وصولاً لفترة السيطرة البريطانية منذ الاحتلال وحتى اندلاع الحرب العالمية الأولى وإعلان الحماية البريطانية على مصر عام ١٩١٤.

تمهيد

من الصعب تعريف "مصطلح الإدارة"، لأننا نجد له معانى مختلفة فى عموم مدلوله فالبعض يطلقونه على الوظائف التى يقوم بها أرباب الأعمال ومديروها ومراقبوها، ويتصور آخرون الإدارة فئة معينة من الأفراد تمارس سلطاتها المخولة إليها وفقاً لنصوص المنشورات واللوائح والقرارات التى تدار بها الدواوين وتجرى عليها تفصيلات الحركة فى الإدارات المختلفة (الدواوين)، ويرى العمال أن الإدارة

هى السلطة التى تهيمن على أعمالهم أثناء العمل، وينظر بعض علماء الاجتماع إلى الإدارة وكأنها طبقة ذات وضع وسلطة محددين فى المجتمع. والواقع إن الإدارة تجمع هذه المفاهيم جميعاً، كما تشمل الجوانب الاقتصادية والاجتماعية والسياسية.

وأساس الإدارة الناجحه فى أى مجتمع من المجتمعات يتجه بخطى حثيثه نحو التنمية هو النظام والاقتصاد وحسن التوجيه، كما أنه من الأسباب الرئيسية التى تؤدى إلى ضعف نمو معدلات الإنتاج هو ضعف الإدارة وعدم اهتمامها بالإنتاجية عامة. ووفقاً لهذا التصور فإنه يمكننا أن ننظر إلى الإدارة كأداة إنتاجية أو كعنصر من عناصر الإنتاج الرئيسية المعروفة. فهى من هذه الناحية شبيهة برأس المال والعمل والموارد الطبيعية، كما أنها تمتزج مع هذه العناصر بنسب متفاوتة فى عمليات الإنتاج وبالتالى فإن توافر الكوادر الإدارية المدربة وتنمية قدراتها الفنية من المهام الرئيسية لكل دولة تجرى على سياسة تحقيق التنمية فى كافة المجالات. ونستطيع أن ننظر إلى الإدارة أيضاً باعتبارها نظاماً داخلياً للسلطة تتمتع بصلاحية وضع الأنظمة التى تتعلق بالإدارة والتنظيم.

وكانت الإدارة المصرية فى عصر المماليك تكاد تنحصر فى توريد الضرائب المجموعة إلى "بيت المال". وقد حال ضعف الحكومة المركزية فى أواخر عهد المماليك دون تمكنها من الإشراف الكافى على أحوال الأقاليم، فانتشرت الفوضى وعم الفساد الداخلى، ونتيجة لجمود الأنظمة الإدارية لم يكن ثمة اهتمام بالأمور العامة كالصحة والتعليم ومشروعات الرى والزراعة تلك المهام التى تضطلع بها الإدارة الحديثة فى أى مجتمع يتجه نحو التنمية.[١]

ولم يختلف الحال كثيراً فى العصر العثمانى، حيث كان نظام الإدارة العثمانية لمصر مزيجاً من النظم الإدارية العثمانية ذاتها والنظم المملوكية التى كانت سائدة فى مصر قبل الغزو العثمانى. فقد وضع "القانون – نامة" الذى أصدره سليمان القانونى فى القرن السادس عشر الأسس التى سار عليها حكم مصر طيلة القرون الثلاثة التى سبقت عصر محمد على. وقد ظل الإطار العام للجهاز الإدارى والمالى

بالشكل الذى أرساه سليمان معترفاً به بوضوح طيلة تلك الفترة، برغم أن "القـانون نامة" قد عدل بمضى الزمن وأضيفت إلى نصوصه تفسيرات تعسفية ودخلت عليـه تطبيقات جديدة، واختفى عملياً إشراف الحكومة المركزية فى استانبول على الإدارة المصرية(٢).

وفى أواخر القرن الثامن عشر كانت الحملة الفرنسية على مـصر والـشام بقيادة نابليون بونابرت عام ١٧٩٨م، وذلك لقطع الطريق على بريطانيا لمنعها من الوصول إلى الهند عن طريق احتلال مصر، بالإضافة إلـى أسـباب اسـتعمارية أخرى. وقد حاول نابليون إدخال بعض النظم الإدارية الحديثة، فقسم الـبلاد إلـى ثمانية أقاليم (مديريات) وكان يحكم كل إقليم من الأقاليم حاكم عسكرى من ضـباط الحملة يساعده مجموعة من العلماء والأعيان والتجار المصريين، كما نظم نابليون الدوائر الإدارية ووضع دراسات لمشاريع عمرانية عديدة منها مشروع شق ترعـة تصل البحر الأحمر بالبحر المتوسط. واتسم الحكم الفرنسى خـلال تلـك الفتـرة بالمركزية، تماماً كما كان الحال أثناء حكم المماليك والعثمانيين للبلاد.

وكان الظلم الذى عانى منه سكان مصر من المماليك وخورشيد باشا الـوالى العثمانى، ومن قبل الحكم الفرنسى الذى غالى فى جمع الضرائب، دافعاً لهـم لأن يلتفوا حول ضابط جاء على رأس الفرقة الألبانية لإخراج الفرنسيين من مصر هو محمد على ، وأن يلبسوه خلعة الولاية عام ١٨٠٥، واستمر حاكماً مؤقتاً مـدعوماً بقوة الشعب حتى صدر فرمان من السلطان العثمانى تضمن عزل خورشـيد باشـا الوالى العثمانى والاعتراف بمحمد على والياً على مصر خلال نفس العام. (*)

محمد على واليا على مصر

حرص محمد على أول الأمر على استمالة زعماء الشعب والعمل بمشورتهم، فتم الاتفاق معهم على إطلاق يده فى إعادة تنظيم الدولة التى تطرق إليهـا الفـساد نتيجة للمنازعات والصراعات الداخلية، وضعف سلطة الدولة(٣). هكذا أصبح محمد على مطلق التصرف فى إدارة شئون البلاد، التى أرادها ببعـد نظـره وطموحـه

السياسى فى مستوى الأهداف التى كان يسعى إلى تحقيقها. وهذه الأهداف تتبع من المعطيات الأساسية التى كانت تصنع آنذاك قوة وازدهار الأمم الأوروبية المتطورة. إصلاحات داخلية تتناول الاقتصاد الريفى التقليدى، ضمان الأمن والاستقرار الداخلى للسكان من خلال لوائح وقوانين عادلة وتشجيع هجرة بعض العناصر الأجنبية واندماجها فى البلاد إلى جانب سياسة خارجية توسعية وطموحة.

انطلاقاً من هذه الخلفية التاريخية يمكننا تسليط الضوء على جهود محمد على لإعادة تنظيم الإدارة المصرية، حتى يتسنى له القيام بإصلاحاته الشاملة فى جوانب الجيش والاقتصاد والتعليم والصحة وغير ذلك من المشروعات التى تنهض بها الدول الحديثة.

تنظيم الدواوين :

لمح محمد على من خلال احتكاكه بالفرنسيين فى مصر معالم الحضارة الأوربية واضحة جلية وتبين أثرها فى تكوين الدول الحديثة المنظمة، فشرع فى الأخذ بسياسة إصلاح واسعة النطاق فى الإدارة المصرية، فبعد أن قام بمسح الأراضى الزراعية فى سنة ١٨١٣ قسم البلاد إلى سبعة أقسام إدارية سميت مديريات وعين لكل قسم منها حاكماً يعرف بالمدير (أربعة بالوجه البحرى وثلاثة بالوجه القبلى). وقسم المديريات إلى مراكز وكل مركز إلى أقسام وكل قسم إلى عدة نواح (قرى)، وعلى رأس كل مركز عين مأموراً، ولكل قسم ناظراً، وعلى رأس كل قرية عين شيخاً يساعده "الصراف" و"الخولى" فى مسح الأراضى الزراعية، وجباية ما عليها من ضرائب، وكانت وظيفة المأمور تحديد ومراقبة الأعمال الزراعية، ويشترك مع المدير فى تقدير عدد الفدادين المخصصة فى كل قرية للزراعات المختلفة وفقاً لطبيعة الأرض. وإضافة إلى ذلك فقد كان يقوم بجمع الأموال والمحصولات ومطالبة الفلاحين بالضرائب ومراقبة جمع الأنفار للخدمة العسكرية والأشغال العمومية، هذا إلى جانب مراقبة سير العمل داخل المعامل والمصانع وإرسال تقارير دورية عنها إلى المدير المختص بذلك.

أما المدير فكان من أهم واجباته تفقد الأقسام والمراكز الداخلة فـى نطـاق اختصاصه وتنفيذ أوامر الباشا وقرارات المجلس الخصوصى بالإضافة إلى مراقبة مشروعات الرى والعناية بترميم الترع والقناطر والجسور.

وكان من المهام الرئيسية لمديرى ومأمورى الأقاليم والأقسام بالإضافة إلـى ماتقدم كتابة تقارير تتناول الأعمال الواجبة على نظار الأقسام والمباشرين وحكـام الأخطاط ومشايخ الحصص ومحاسبة هؤلاء وإرسال تلك التقارير إلـى الباشـا(٤) وثمة تقارير أخرى شهرية عن أحوال الأقاليم كانت ترسل إلى الباشا عن طريـق الدفتردار(٥). وذلك لضمان انتظام الإدارات المختلفة وفرض الرقابة الصارمة على المسئولين وتوقيع أقصى العقوبات على المخـالفين والمقـصرين فـى أداء مهـام وظائفهم(٦). وغالباً كان يختار مأمورى الأقاليم من المصريين باعتبارهم أكثر دراية بأحوال البلاد وخبرة بزراعتها وأنهم أقدر من غيرهم على الإلمام بمراكز مواطنيهم واحتياجاتهم ومواردهم وأنهم أحق بالقيام على شئون الإدارة من الأجانب الـذين لا يخلون من نزعات التشيع الجنسى(٧).

أما المديرون فكانوا جميعاً من الأتراك المقيمين فى مصر. حقيقة أن محمـد على اعتبر المصريين غير أكفاء لتولى المناصب الإدارية الكبرى، إلا أنه اسـتعان بهم فى وظائف الإدارة الصغرى فى الوقت الذى ظلت فيه الوظـائف العـسكرية والإدارية الكبرى فى أيدى الأتراك والشراكسة فى المقام الأول ثم فى يد الأرمـن والأجانب. هذا وقد عرفت الثغور المصرية كالقاهرة والإسكندرية ودمياط ورشـيد والسويس بالمحافظات وكان يحكم كل منها حاكم أو محافظ ويعاونه مجموعة مـن الضباط. وقد اهتم محمد على بالأمن الداخلى فقام بتنظيم الشرطة فـى العاصـمة والأقاليم وعين ضابطاً (حكمداراً) تحت قيادته ضباط منتشرون فى أنحاء القـاهرة لمعاونته فى حفظ الأمن والنظام العام فى جميع أنحاء البلاد.

ولم يكن محمد على من الذين يمارسـون سـلطاتهم مـن خـلال اللـوائح والمنشورات والقرارات دون متابعتها، بل كثيراً ما مر على المـصالح الحكوميـة لمتابعة تنفيذ تلك القرارت والمنشورات وعقاب المسئولين ومحاسـبتهم إذا أهملـوا

أمراً من الأمور الموكلة إليهم[٨]. وكانت تعليمات محمد على إلى المديرين كافة بضرورة التعاون والتشاور مع المرءوسين إدراكاً منه لمدى فائدة ذلك فى تسهيل وإنجاز أعمال المديريات والأقاليم والأقسام التابعة لهم[٩].

ولضمان تنفيذ مشروعاته وسرعة إنجازها قام بتأسيس مجالس متعددة لعل أهمها ذلك المجلس الخاص الذى تأسس سنة ١٢٢٠هـ/١٨٠٥م، وتفرعت منه سائر المجالس والدواوين الأخرى. وكان يعرف بالديوان العالى ويتكون من كبار الموظفين وعددهم ١٥٧ عضواً منهم ثلاثة وثلاثون من الأكابر ورؤساء مصالح الحكومة والعلماء، وأربعة وعشرون "من مأمورى الأقاليم" ومائة "من مشايخ الأقاليم" برئاسة الكتخدا بك (نائب الباشا)، أناط به مهمة ضبط وتنظيم الإدارة ومن اختصاصه النظر فيما يقدم من الدعاوى والعرائض التى تقع عناصرها وعين فى هذا المجلس عالماً من كل مذهب من المذاهب الأربعة، وكانت مهمتهم النظر فى تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية كما كانت مهمة هذا المجلس أيضاً وضع القوانين والنظم الابتدائية[١٠]. وكان المجلس يجتمع بانتظام فتعرض عليه أمور الحكومة كافة فيفحصها ويعرضها على الباشا. كما اعتاد محمد على المداولة مع أعضائه فى جميع الأعمال المتعلقة بالحكومة قبل الشروع فى تنفيذها.

وقد استمر هذا المجلس فى عمله حتى صدرت الأوامر سنة ١٢٣٤هـ/١٨١٨م بتخصيص بعض رجال هذا الديوان لإنشاء مجلس للمشورة، من كبار التجار والأعيان والعمد والمشايخ والعلماء. أناط به النظر فى "إدارة شئون البلاد". وكانت مهمة هذا المجلس عرض الاقتراحات المتعلقة بالنواحى الإدارية العامة دون أن يلتزم الباشا بتنفيذها، فكانت آراء هذا المجلس ذات طابع استشارى محض. وكان الباشا يختار الأعضاء بنفسه. وبعبارة أخرى فإن الشورى كانت صورية خلال عصر محمد على. وقد تفرع منه فيما بعد الديوان الخديوى الذى تأسس سنة ١٢٥٣هـ/١٨٣٧م ثم أطلق عليه عنوان (شورى المعاونة) إلى سنة ١٢٥٨هـ/١٨٤٢ م حيث عرف بـ (المعية السنية). وكان فى الإسكندرية ديوان آخر عرف بديوان خديوى الاسكندرية وهو شبيه بديوان مصر فى اختصاصه وترتيبه. [١١]

وكانت وظائف هذا الديوان قضائية فيفصل فى المسائل التى يعاقب عليها القانون، وظل ينظر فى قضايا الجنايات والجنح، وبعبارة أخرى أطلق فى يده النظر فى جميع المسائل الكلية والجزئية، حيث تعرض على الباشا ليصدر أوامره فيها. كما كان من أعماله أيضاً الاضطلاع بشئون الإدارة التى فصلها قانون السياستنامة الصادر فى ربيع الآخر سنة ١٢٥٣هـ/١٨٣٧م واستمر فى عمله هذا حتى صدرت الأوامر بإنشاء "جمعية الحقانية" فى فبراير سنة ١٨٤٢م التى تشكلت من رئيس وستة أعضاء منهم اثنان من كبار رجال الجيش والبحرية والشرطة، ثم الحق به عدد من الضباط العسكريين والمدنيين لتحقيق الدعاوى التى يطلب أربابها تحقيقها، وكان من وظائفها محاكمة كبار الموظفين الذين من حقهم استئناف أحكامها أمام الباشا نفسه، كما كانت تفصل فى المسائل المعقدة التى تحيلها عليها الدواوين العمومية، هذا بالإضافة إلى النظر فى جميع القضايا المتعلقة بالنواحى العسكرية[١٢]. وبعبارة أخرى النظر فى المسائل النظامية والإدارية التى كانت قبل ذلك داخلة فى اختصاص المجلس العالى.

وكان من ضمن لائحة ترتيب المجلس العالى التى اشتملت على اربع مواد وجود ممثلين من التجار والعمد والمشايخ والعلماء ورجال الدين.[١٣] واشترطت اللائحة ضرورة معرفة الأعضاء المشتركين فى المجلس بالقراءة والكتابة، وذلك لأن وجود مثل هؤلاء بالمجلس هو لمعرفة "مصالح الأقاليم منهم وأخذ رأيهم عنها"[١٤]. كما خصصت لهم رواتب شهرية.

وقد تفرعت من الديوان الخديوى فيما بعد أقسام أخرى فإلى جانب ديوان الكتخدا (نائب الباشا) والذى تألف من قلمين قلم التحريرات وقلم الشفالك (الجفالك) والعهد كان هناك ديوان آخر عرف بديوان عموم التفتيش"، ومنه كانت تصدر القرارات والمنشورات التى يجب على سائر المصالح الحكومية تنفيذها، هذا بالإضافة إلى المجالس الأخرى التى أنشئت للتجارة والزراعة والأشغال العمومية (ديوان الأبنية) والصحة العامة والمعارف، واختص كل منهم بعمل مستقل.

وكان إذا دعت الحاجة إلى وضع قرارات مهمة فى الزراعة أو الأشغال العامة الأخرى، يعقد مجلسا من الأخصائيين ويشترك فيه حكام الأقاليم ومديروها وتقدم النتائج إلى محمد على للحصول على موافقته كما كان رجال الإدارة فى الأقاليم التى يحكمونها يقومون بتقديم تقارير عن مدى ما تم تنفيذه من أعمال، والوسائل التى يستخدمونها للتوسع فى الزراعة، ونجاحهم فى جباية الضرائب. وحتى تكون لدى الباشا صورة وافية عن حالة البلاد كانت تلقى على أعضاء المجلس المخصوص مسئولية إضافية هى دراسة التقارير (الجورنالات) الواردة من مختلف الإدارات، والقرارات المتخذة فى الاجتماع السنوى للمجلس الاستشارى العام المكون من "مديرى الدواوين" والأعيان الذين يعينهم الباشا، ثم ينقل إليه أهم المعلومات التى تتضمنها تلك الوثائق. [١٥]

وقد ذكر دوهاميل Duhamel القنصل الروسى فى مصر عام ١٨٣٧، أن السبب الذى حدا بالوالى إلى إنشاء هذه المجالس إنما هو قلة ثقته فى مقدرة رجال حكومته ورغبته فى أن يتضافروا جميعاً فى بحث المشروعات التى يعرضها عليهم قبل أن يقدموها إليه لاعتمادها أو رفضها فى النهاية، بينما يذكر "جان دنى" Jean Deny أن هذا التنظيم يقوم على مبدأين أساسيين، أولهما أن كل مسألة يجب أن تستوفى حظها من البحث والتمحيص فى أحد المجالس وأن الباشا يبدى عناية فائقة بمقدار ما تم مناقشته من الآراء فى الموضوع الواحد، وثانيهما أن للباشا وحده الكلمة العليا فى النهاية، فهو الذى تتركز فى يديه كل رقابة، ومن حقه المطلق تصريف الأمور وفق رغائبه[١٦].

وعلى الرغم أن هذا النظام لم يصل فى عصر محمد على إلى حد الكمال لأن تلك المجالس لم تعمل بكفاءة كبرى نتيجة لكثرة التغييرات واستغلال وظائف الأعضاء فى ارتكاب جرائم الرشوة لزيادة ثرواتهم إلا أنه فتح الطريق نحو التقدم والارتقاء فى الإدارة خلال النصف الثانى من القرن التاسع عشر. وينبغى أن نشير فى معرض حديثنا عن تحديث الإدارة المصرية إلى نقطة هامة وهى أن الأخذ عن النظم الإدارية الفرنسية كان الطابع الغالب خلال تلك الفترة. فثمة مقارنة واضحة

بين مجالس التجارة والصناعة التى كونها نابليون خلال عـامى ١٨٠١، ١٨٠٣، والتى كانت تقترح على الحكومة ما تراه من إصلاح دون العمل بها لأنهـا كانـت أيضاً مجالس استشارية فقط وبين المجلس العالى والمجالس الأخرى التى تفرعـت منه فى عصر محمد على والتى لم تكن تعمل دون موافقته، بحيث بقيـت الـسلطة النهائية والكلمة الأخيرة بيد الباشا.

ولعل من أبرز أعمال محمد على الإدارية ما قام به من تعديلات إدارية فـى المصالح الحكومية المختلفة، فى محاولة للسيطرة على الفوضى والفساد الذى تطرق إلى الإدارة وإلى المسئولين. وقد أدرجت التعديلات الإدارية فى قانون "السياستنامة" الصادر فى ربيع الآخر سنة ١٢٥٣هـ/١٨٣٧م. حيث تم حصر الدواوين المصرية فى سبعة دواوين وحدد لكل مدير اختصاص وظيفته[١٧].

صدر قانون "الـسياستنامة" لإعـادة تنظـيم الإدارات الحكوميـة وتوزيـع الاختصاصات والأعمال بين الدواوين السبعة التى تضمنها التنظيم الجديـد، وقـد اشتمل هذا القانون على مقدمة وثلاثة فصول، اختص الفصل الأول منهـا ببيـان "الترتيبات الأساسية" لتنظيم الإدارة المصرية ويتألف من تسعة بنود واحتوى الفصل الثانى على بيان "الإجراءات العملية" المتبعة داخل مؤسسات الدولة وتضمن واحداً وثلاثين بنداً أما الفصل الثالث والأخير فقد تضمنت بنوده "قانون العقوبات" والـذى عرف "بالسياستنامة" واشتمل على واحد وعشرين بنداً. [١٨]

وقد ظهرت فلسفة محمد على فى تنظيم وإدارة الدولة من خلال المقدمة التى أوضح فيها أن الأخذ عن النظم والقوانين الأوروبية ضرورى خاصة خـلال تلـك الفترة المبكرة – ولكن بصورة تلائم طبيعة الواقع المصرى. فليس من المعقول أن نقول مثلاً أن القانون الفرنسى أو الألمانى "ينص على كذا وكذا" ونحـاول تطبيقـه داخل البلاد ولكن يجب أولاً أن ندرس الواقع المصرى ونطبق عليه القوانين التـى تتلاءم وطبيعة البلاد. هذا ما أشار إليه محمد على فى مقدمته.

ونعرض هنا لتلك الدواوين السبعة أو (الوزارات الجديدة)، - إذا جاز لنا أن نستعمل تعبيراً حديثاً - مع تسليط الضوء على كيفية عمل هذه الدواوين والتنظيمات الإدارية المدرجة فى هذا القانون(١٩).

١- **"ديوان الخديو" (وزارة الداخلية)** : كان هذا الديوان العام يختص بالشرطة والشئون القضائية التى لا تتدخل فى اختصاص المحاكم الشرعية، وبعبارة أخرى ضبط وربط مدينة القاهرة والفصل فى خصومات سكانها والنظر فى المسائل المتعلقة بمرتبات الموظفين وغيرهم فى أى جهة كانوا، هذا بالإضافة إلى الإشراف على تسع عشرة إدارة منفصلة مسئولة عن مسائل معينة كالأسواق وإمدادات الباشا الخاصة وكذلك مستلزمات الإدارات الحكومية باستثناء الإمدادات العسكرية والمؤسسات الدينية وترعة المحمودية ودار سك النقود.

٢- **"ديوان الإيرادات" (وزارة المالية)** : وانقسم إلى قسمين، الأول ديوان إيرادات واختص بحسابات كافة مديريات الأقاليم وجزيرة كريد والحجاز والسودان أما الثانى فأطلق عليه ديوان عموم إيرادات الإسكندرية والمصالح الأخرى الموجودة بإيرادات المحروسة والجمارك.

٣- **ديوان الجهادية (وزارة الحربية)** : اختص هذا الديوان بالإشراف على التجنيد وفرز الرجال وإمداد الجيش باحتياجاته اللازمة والتى كانت تستخرج من مخازن الحكومة ومستودعاتها وتدريب المجندين الجدد بالإضافة إلى صيانة أبنية الجيش والمدارس العسكرية وكذا المستشفيات العسكرية. وكان مدير هذا الديوان مسئولاً عن كافة الإمدادات العسكرية بمعاونة فريق من الخبراء والعسكريين الأجانب.

٤- **ديوان البحر (وزارة البحرية)** : واختص هذا الديوان بالإشراف على التدريبات المتعلقة بالأسطول الحربى وكذا كافة أعمال الترسانة البحرية وأحواض الإصلاح وترميم السفن والمستشفيات البحرية، والتدريبات المتعلقة بالأسطول الحربى.

٥- **ديوان المدارس والأشغال العمومية** : واختص هذا الديوان بمدارس المبتديان (الابتدائية) والتجهيزية والخصوصية والمكتبات بالإضافة إلى المدارس الفنية والمخازن ومطبعة بولاق والوقائع المصرية وكافة الأعمال الهندسية وقناطر الدلتا ومزارع الحيوانات فى شبرا وحظائر الأغنام من سلالة المارينوس.

ولضمان تحقيق أكبر قدر من النجاح فى إنجاز الأعمال ومتابعتها كانت اللجنة المكونة من "شورى المدارس تقوم بإرسال المفتشين للتفتيش على مدارس القاهرة والأقاليم، ومتابعة سير الدراسة ومدى الالتزام بتنفيذ الأوامر الصادرة من الديوان إلى نظار المدارس، هذا بالإضافة إلى بحث طلبات واحتياجات المدارس، على أن يقوم هؤلاء المفتشون بتقديم تقرير إلى اللجنة يتضمن النتائج التى توصلوا إليها من خلال دورات المرور والمتابعة، حيث تقوم اللجنة بفحص هذه التقارير وتقديم الاقتراحات اللازمة، على أن تعرض على الباشا لاتخاذ القرارات النهائية بشأنها. واستمر الشورى فى عمله هذا بتنسيق بينه وبين الديوان المذكور. وإلى جانب ذلك فقد أنشئ قسم خاص بديوان المدارس والأشغال العمومية اختص بمتابعة مشروعات الرى وصيانة الجسور وترميم القناطر، وبعبارة أخرى كافة الأشغال العامة، لذا فقد آثرنا أن نطلق على هذا الديوان "وزارة المعارف والأشغال العمومية، وعين المسيلو لينان دى بلفون Linant de Belfond (وهو من أتباع المدرسة السان سيمونية) ناظراً لهذا الديوان (قسم الأشغال العمومية).[٢٠]

وكانت أغلب مشروعات الرى والأشغال العامة يتم بحثها باجتماع مفتشى ومهندسى الأقاليم، حيث تتم مناقشتها واتخاذ القرارات الملائمة، التى تدون فى سجلات خاصة بعد بحثها بالمجلس العالى ثم ترسل إلى المسئولين بالأقاليم للتنفيذ على غرارها بعد التصديق عليها من جانب الباشا. وكان هذا القسم أيضاً مسئولاً عن توزيع الواجبات على مفتشى ومهندسى الأقاليم، وإليه ترد التقارير عن سير الأعمال كل خمسة عشر يوماً[٢١].

ديوان التجارة المصرية والأمور الأفرنكية : واختص هذا الديوان بإجراء كافة التعاقدات التجارية مع الحكومة والأهالى والنظر فى المسائل المتعلقة بمعاملة التجار الأجانب، وكذا الإشراف على توريد حسابات كافة الإيرادات إلى أحد دواوين عموم الإيرادات ثمناً للحاصلات الزراعية المبيعة على يد هذا الديوان، هذا بالإضافة إلى الإشراف على مخازن الحكومة[٢٢].

٦- **ديوان الفاوريقات (وزارة الصناعة) :** واختص بالإشراف على كافة المصانع التى أنشئت خلال تلك الفترة والتنسيق فيما بينها، وإمدادها بكافة احتياجاتها من الخامات أو الآلات، أو العمال، وكان مفروضاً على النظار ومفتشى المصانع مراقبة العمال وأحوال الإنتاج ومعدلاته وكذا الأرباح والخسائر وتدوين تلك الملاحظات فى تقارير دورية ترسل إلى مدير الديوان للإطلاع عليها وعرضها على الباشا لاتخاذ الإجراءات المتبعة.

وقد أشار دوهاميل فى عام ١٨٣٧ إلى أن مصر كانت تفتقر إلى الأفراد اللازمين لإدارة الحكومة وفقاً للمستويات الأوروبية برغم أن الحكومة المصرية قد أعيد تنظيمها على شكل وزارات على النسق الأوروبى على يد مستشار فرنسى. وكان من المتوقع أنه طالما أن قيادة الحكومة لم تتغير أيا كان الشكل الذى تتخذه فإن الإضطراب الذى أحاط بالتنظيم السابق سيظل وربما يزداد - إذ أن إعادة التنظيم فى العادة تتضمن الارتباك [٢٣].

وبعد أن استعرضنا التنظيمات الإدارية التى أنشأها محمد على، وأشرنا إلى الدواوين التى ساهمت فى تنظيم وإدارة هذا الجهاز، نعرض هنا لنظم الإدارة وتطورها فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر وحتى فترة السيطرة البريطانية (١٨٨٢-١٩١٤م) لنتبين بجلاء أوجه التشابه وما طرأ عليها من اختلاف مع بيان التطور الذى ظهر على هذه الدواوين والمؤسسات التابعة لها.

تطوير الإدارة المصرية :

تولى عباس باشا الحكم بعد وفـاة إبـراهيم باشـا (٢٧ ذى الحجـة سـنة ١٢٦٤هـ/ ١٨٤٨م). ويمكن القول أنه خلال تلك الفترة وكذلك فترة حكم محمـد سعيد باشا استمرت الإدارة المصرية كما كانت خلال عصر محمد على مع إجراء بعض التعديلات الطفيفة[٢٤] فقد أنشأ عباس الأول مجالس الأقاليم وسن لها لائحـة صدر بها أمر عال فى ١٣ شوال سنة ١٢٦٨هـ/١٨٥٢م وكانت تتكون من خمسة مجالس، واختصت للفصل فى الدعاوى برئاسة المديرين:

- مجلس طنطا : ويختص برؤية كافة الدعاوى والمنازاعات التـى بـين أهـالى مديريات الغربية والمنوفية والبحيرة.
- مجلس سمنود : وينظر فى الدعاوى التى تنشأ بمـديريات الدقهليـة والـشرقية والقليوبية.
- مجلس الفشن : لمديريات الجيزة والمنيا وبنى مزار وبنى سويف والفيوم.
- مجلس جرجا : لمديريات أسيوط وجرجا وأسنا وقنا.
- مجلس الخرطوم ويختص بإقليم السودان.

وقد عين لكل مجلس اثنان من علماء الأزهر بوظيفة مفتيين أحدهما حنفـى المذهب والآخر شافعى يعاونهم اثنان من مشايخ البلاد. وكان كل مجلس يتألف من رئيس وأربعة أعضاء وأربعة كتاب فيما عدا مجلس سمنود الذى كان يتألف مـن رئيس وعضوين. ووضعت لتلك المجالس لائحة ببيان أيام انعقاد الجلسات وإيجـاد صندوق على الباب للعرائض. وعمل أختام بأسماء المجالس، وإحالة "كافة جرانيل القضايا التى كانت تنظر بالمديريات إليها" وخلو "أرباب المجلس مـن الأغـراض سواء كان فيما يختص بالحكومة أو الأهالى" والحق فـى اسـتدعاء المـديرين أو الموظفين للمثول أمامها عند الاقتضاء ووضع المشروعات "كلما لاح مـن المـواد التى تكون فيها تقدم وفوائد للأهالى أو فى مواد الفلاحة وإعطاء القرار اللازم، على

أن يقدم لمجلس الأحكام" وحرية أرباب المجلس التامة فى إبداء رأيهم فى أى أمر من الأمور. وكانت قرارات المجلس ترسل إلى "ديوان الكتخدا" لاتخاذ إجراءات التنفيذ(٢٥).

أما محمد سعيد باشا فقد اتجه إلى إصلاح القضاء وأولاه جل اهتمامه وعنايته، واحتفظ لنفسه بحق تعيين القضاة بعد أن كان ذلك من حق قاضى القضاة التركى، كما أنشأ محاكم جديدة أطلق عليها "المجالس المحلية" للفصل فى الخصومات بمقتضى أحكام "القانون السلطانى"، وأعاد تنظيم مجلس الأحكام حيث قسمه إلى خمسة أقلام - قلم الضبطية وقلم تركى وقلم عربى وقلم مترجمين وقلم للتقارير "العرضحالات" وقد أضاف إلى تلك الأقلام ثلاثة أقسام إدارية لتحرير المكاتبات بين المجلس وسائر المصالح ولتحقيق سهولة الاتصال بدواوين العموم ومديريات الوجهين القبلى البحرى. ومن ناحية أخرى فقد كثر توافد الأجانب إلى البلاد خلال تلك الفترة ممادفع سعيد باشا إلى إصدار لائحة لتنظيم ضبط وربط الرعايا الأجانب داخل البلاد(٢٦) كما أنشأ "مجلس قومسيون مصر سنة ١٢٧٨هـ/١٨٦١م" للنظر فى الدعاوى المختلفة بين الأجانب والوطنيين ووضعت لائحة له ببيان اختصاصاته وكيفية المرافعة أمامه وطريقة استئناف أحكامه وسميت "قانون رؤية الدعاوى بمجلس قومسيون مصر".(٢٧)

وكان من أبرز أعمال محمد سعيد الإدارية تحويل بعض الدواوين إلى نظارات تمشياً مع ظروف العصر، ومدى ما حدث فى البلاد من تغيرات اجتماعية واقتصادية وسياسية، أدت بدورها إلى حدوث هذا التطور.

وحين تولى الخديو إسماعيل الحكم (٢٦ رجب سنة ١٢٧٩هـ/ ٣٠ يناير سنة ١٨٦٣م) بدأت الإدارة المصرية تسير سيراً حثيثاً على طريق التقدم والرقى بخطوات سريعة ولعل ذلك راجع إلى تربية إسماعيل الأوربية واتصاله بحضارتها.

كان إسماعيل رجلاً قد تنسم ألواناً من ثقافات الغرب الأوروبى، خاصة الثقافة الفرنسية، وشاهد بنفسه نظم الإدارة الحديثة فى الدول الأوروبية وعرف

السلطات وتنظيمها، وضرورة فصلها وما إلى ذلك من المعانى التى جلبتها الحضارة الغربية الحديثة. ومن ثم فقد عرف النظم الإدارية الغربية وعمل على السير فى مضمار الحضارة الأوربية وقد اقتضته مسايرة التطور الذى أحرزته البلاد فى مختلف الجوانب الاقتصادية والعلمية ضرورة إجراء تعديلات كبرى فى الإدارات المصرية، مع الاحتفاظ بالأسس الرئيسية للنظم الإدارية التى وضعها محمد على من خلال السياستنامة ومجموعة اللوائح والقوانين والأوامر الصادرة من الباشا إلى المسئولين والتى سارت عليها الإدارة المصرية طوال القرن التاسع عشر إلى حد كبير فحول باقى الدواوين الكبرى التى تركها محمد سعيد باشا كالبحرية والخارجية والأشغال والمعارف إلى نظارات واستحدث فى سنة ١٨٦٥ نظارة الزراعة وضمها إلى الأشغال كما أنشأ المجلس الخصوصى، الذى تكون من نظار الدواوين ومأمورى الأقسام والمراكز بالإضافة إلى بعض الشخصيات البارزة وأعيان البلاد. واختص بمناقشة المشروعات المقدمة من الأقاليم والمديريات وكافة المصالح الحكومية واتخاذ القرارات اللازمة وعرضها على الخديوى للتصديق بالموافقة أو الرفض[٢٨].

وفى عام ١٨٦٦ أنشأ إسماعيل مجلساً نيابياً (مجلس شورى النواب) اختلفت الآراء حول الأسباب التى دعت إلى إيجاده. وكان يتكون من ٧٥ عضواً ينتخبون لمدة ثلاث سنوات. وقد اتخذ شتى الاحتياطات اللازمة لوضع المجلس تحت سيطرته فجعل آراءه استشارية بحتة له أن يقبلها أو يرفضها، وجعل فى يده وحده حق دعوة المجلس وتأجيل انعقاده وفض جلساته، وبذلك كان هذا المجلس أقرب إلى الهيئة الإدارية منه إلى الهيئة النيابية، أو بعبارة أوضح وأدق مجلساً استشارياً. [٢٩]

وقد استحدث إسماعيل بعض المصالح الإدارية الحيوية لمواكبة العصر وطبيعة المتغيرات الجديدة، فأنشأ مصلحة الإحصاء ومصلحة المساحة والرصد خانة بالعباسية ومصلحة البريد بالإضافة إلى اهتمامه بالمواصلات السلكية واللاسلكية لتحقيق سهولة الاتصال بين القاهرة وسائر الأقاليم حتى السودان واقتضته ذلك ربط القاهرة بالأقاليم بشبكة من خطوط السكك الحديدية[٣٠] هذا

بالإضافة إلى إنشائه بلدية القاهرة والإسكندرية لتنظيمها مالياً وإدارياً، تماماً كالمدن الأوربية الحديثة[٣١]. وقد أدخل إسماعيل أيضاً وظيفة "مأمور أورناتو" - مصلحة التنظيم فى وقتنا الحاضر - وعين المسيو جران مهندساً لإدارة المصلحة والإشراف الهندسى والفنى على تمهيد الطرق والشوارع والاهتمام بالناحية الجمالية لمدينة القاهرة، كما شكلت لجنة أخرى فنية من المختصين للعمل على "انتظام وتوسيع وتحسين مواقع ومبانى الإسكندرية". وكان قد أنشئ من قبل مجلس فنى "مجلس أورناتو" بديوان المحافظة لهذا الغرض[٣٢].

وفيما يتعلق بمدينة القاهرة، فقد سعى إسماعيل لتطويرها إدارياً وجمالياً وجعلها باريس الشرق، عن طريق برنامج طموح، شمل تزويدها بمياه الشرب الصحية للوقاية من الأوبئة والأمراض نتيجة استخدام المياه الراكدة، وإزالة التلال والخرائب التى كانت تحيط بها، إلى جانب إعادة رسم وتخطيط أحيائها، وتم إنشاء الإسماعيلية (ميدان التحرير حاليا) وباب اللوق والأزبكية والأورمان وحى عابدين الذى أصبح مقراً لاقامته (قصر عابدين). وقد استعان فى ذلك المشروع بالمهندس الفرنسى المسيو بيير جراند وعهد إليه إدارة مصلحة الطرق والكبارى. كما أضاء المدينة وتوابعها بالغاز والتى تطورت عمليات الإنارة بها بشكل سريع فى فترة الاحتلال والسيطرة البريطانية.

قسمت البلاد فى عهد إسماعيل إلى أربع عشرة مديرية : وهى البحيرة والغربية والشرقية والدقهلية والمنوفية والجيزة وبنى سويف والفيوم والمنيا وأسيوط وجرجا وقنا وأسنا وصارت المحافظات تسعاً وهى القاهرة والإسكندرية ورشيد ودمياط وبورسعيد والعريش والإسماعيلية والسويس والقصير ويرأس المديريات المديرون والمحافظات المحافظون وقسمت المديريات إلى مراكز يحكم كل منها مأمور وقسمت المراكز إلى قرى واستحدث إسماعيل منصب العمدة فى القرى بدلاً من مشايخ القرى الذين أصبحوا معاونين لهم. ولضمان تحقيق الانضباط والنظام فى الإدارات المختلفة صدرت الأوامر إلى المجلس الخصوصى بضرورة إنشاء

ديوان خاص أناط به مهمة تفتيش كافة الدواوين وسائر الأقاليم والمحافظـات[٣٣]. وثمة منشورات دورية لبيان واجبات المديرين والمأمورين[٣٤].

ومن الملاحظ أن نظم إسماعيل الإدارية قد اتسمت أيضاً بقدر من المركزيـة وعدم المرونة[٣٥]. تماماً كما كان الحال فى عصر محمد على، وقـد ظهـر هـذا بوضوح من خلال مطالعتنا للأوامر التى صدرت خلال تلك الفترة: "بعدم جواز نقل أحد من المستخدمين فى مصلحة إلى مصلحة أخرى، دون الحصول على أمر مـن الخديوى ذاته"[٣٦] فلم يكن نظار الدواوين ومأمورى الأقسام إلا مجـرد مـوظفين يقومون بتنفيذ الأوامر الصادرة إليهم من جانب الخديوى، دون الحق فى الانفـراد بتصرف يتناول حلاً أو عقداً أو اتخاذ أى قرار من القرارات. تماماً كما كان الحال بالنسبة للمجلس الخصوصى العالى ومجلس شورى النواب اللذين كانـا يجمعـان هؤلاء جميعاً بالإضافة إلى بعض الشخصيات البارزة وأعيان البلاد فلم تكن تلـك المجالس إلا مجرد مجالس استشارية فقط ليس للأعضاء حق التدخل فـى شـئون الإدارة والحكم إلا بالقدر الذى يسمح به، وفى حدود الأوامر والتعليمات الـصادرة من الخديو نفسه.

وقد وجه إسماعيل عناية واهتمام خاص إلى تنظيم القضاء والشرطة لتحقيق الأمن والنظام الداخلى فعمل على إنشاء هيئة قـضائية للفـصل فـى المنازعـات والدعاوى والقضايا المتعلقة بالضبطية على أن تقدم مضابطها لمجلس الأحكام الذى تولى رئاسته آنذاك شريف باشا[٣٧].

ومما تجدر ملاحظته أنه كان يوجد فى كل مديرية وكل محافظة قلم يسمى (قلم الدعاوى أو قلم القضايا) وكانت وظيفته تحقيق المـسائل الجنائيـة بأنواعهـا الثلاث، وحفظ ما يرى وجوب حفظه وتقديم ما يستحق النظر فيه إلـى المجـالس (مجالس الأقاليم) وكان يباشر التحقيق تحت رعاية المدير ولهذا الكلمة العليا. ومنذ قيام هذه المجالس بمباشرة مهامها أصبح "القانون السلطانى" معمولاً به فـى كافـة الأحكام الجنائية[٣٨] ومن ناحية أخرى فقد أنشأ إسماعيل فى كل بلد مجلسين أحدهما

"لأمور الإدارة" عرف بمجلس مشيخة البلد والثانى "لرؤية الدعاوى" وعرف بمجلس دعاوى البلد واختص برؤية الدعاوى التى تقع عناصرها بين الأهالى بخصوص عمليات الرى والزراعة وما إلى ذلك.

أما مجلس إدارة المشيخة فقد اختص "بملاحظة انتظام الأضرحة وعمارية المساجد والمعابد والآثار القديمة والمكاتب، وملاحظة قيد المواليد والوفيات ومعلومات إحصائية تتضمن بيان الأهالى وسكان البلد منزلاً منزلاً وقيد المستجدين واستبعاد من ينتقل من البلد" وعليه أيضاً ملاحظة الإصابة بأمراض الجدرى وسائر الشئون الصحية(٣٩).

وهكذا اتيحت الفرصة لبعض مشايخ القرى لشغل وظائف أعلى فى الإدارة بعكس الحال فى عصر محمد على، مما أدى إلى بروز فئة جديدة داخل المجتمع عرفت بفئة الأعيان، والتى شكل من بينها أغلب أعضاء مجلس شورى النواب عام ١٨٦٦، وقدر لها أن تلعب دوراً هاماً فى الحياة السياسية فيما بعد.

أما من ناحية الشرطة فقد أعاد تنظيم جهازها وعين المسيو "تمستكلى صوليرا" وهو إيطالى الجنسية رئيساً للشرطة وعاونه مجموعة من الأوروبيين بكل من القاهرة والإسكندرية وتم تدريب بعض العسكريين المصريين للانخراط فى هذا الجهاز الجديد، وبالتالى تم الاستغناء عن قواصة الحكومة والقواصة الأجانب(٤٠). ومنح مأمور الضبطية الحق فى عزل رؤساء البلوكات فى حالة تقاعسهم عن أداء مهام وظائفهم(٤١).

وبعد أن تناولنا بالدراسة تطوير الإدارة المصرية فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ينبغى أن نشير إلى جهود الأجانب فى الأنظمة الإدارية التى استحدثها إسماعيل خلال تلك الفترة ومن بين هؤلاء نجد سكرتيره الخاص وكان فرنسياً والمسيو روسو وقد عين مديراً للأشغال العمومية وإليه الفضل فى إنجاز الكثير من مشروعات الرى وكذلك المسيو جران وكان مهندساً للطرق والشوارع

والمسيو فرانسى كبير مهندسى نظارة الأوقاف، كما تولى المسيو رينى إدارة مصلحة الإحصاء، ثم خلفه الإيطالى امتشى Amtcci وأشرف المسيو مارييت على إنشاء المتحف المصرى فى بولاق وكذا المكتبة الخديوية وهما من أهم الآثار المصرية خلال تلك الفترة. وإلى المسيو درانت باشا الفضل فى إقامة دار الأوبرا الخديوية والتى ضارعت الأوبرا العالمية بباريس وتولى ماكيلوب باشا الإنجليزى الإشراف على الموانئ والفنارات المصرية التى توسع إسماعيل فى إنشائها. فإلى هؤلاء جميعاً وغيرهم الفضل الأكبر فى تطوير الإدارة وإنجاز مشروعات التنمية. وهكذا ترك إسماعيل البلاد بعد أن تابع ما بدأه محمد على من وضع أسس النظم الإدارية الحديثة والتى سارت عليها الحكومات المتعاقبة مع بعض التعديلات التى تواكب ظروف العصر وطبيعة المتغيرات الجديدة التى شهدتها البلاد خلال النصف الثانى من القرن التاسع عشر.

الإدارة فترة السيطرة البريطانية ١٨٨٢-١٩١٤م :

عقب الاحتلال البريطانى لمصر، استدعى السفير البريطانى اللورد دافرن Daffern من الآستانة لينظم أوضاع البلاد وفقاً لمصالح بريطانيا الاستعمارية، ولوضع تصور عام للإصلاحات المطلوبة فى كافة المؤسسات الإدارية.

وحين شرع دافرن فى القيام بمهمته وضع نصب عينيه التوفيق بين إطالة فترة الإصلاح والوعود المبذولة من جانب بريطانيا للدول الأوربية بالجلاء الفورى عن مصر بعد استقرار الأوضاع الداخلية، فبدأ بإلغاء المراقبة الثنائية وتعيين مستشار مالى إنجليزى، ثم استدار إلى الجيش فقام بتصفية رجال الثورة العرابية واستبعاد من ساهم فيها. ورأى أن مصر ليست بحاجة إلى قوة عسكرية كبيرة للدفاع عنها، وأن مهمة الجيش يجب أن تنحصر فى إقرار الأمن وحفظ النظام داخل البلاد، فأشار بإنشاء جيش مصرى لا يتجاوز عدده ستة آلاف جندى لهذا الغرض، يتولى قيادته رجل إنجليزى، ويعاونه مجموعة من الضباط الإنجليز، وأوصى

بضرورة السيطرة على الداخلية عن طريق إنشاء بوليس تحت إشراف مفتش عام ومساعد له بمعاونة بعض المفتشين البريطانيين.

كذلك رأى دافرن ضرورة الاهتمام بالإصلاحات القضائية، وإدخال العناصر الأوربية فى المحاكم الأهلية وإسناد وظيفة النائب العمومى إلى محام إنجليزى لمساعدة ناظر الحقانية (وزير العدل) على تنظيم المحاكم الجديدة. (٤٢)

وقد واجه إصلاح الجهاز الحكومى فى مصر عقبتين أساسيتين الاولى هى العقلية الرجعية الوصولية التى كانت تسيطر على الحياة السياسية. أما العقبة الثانية فتتمثل فى سيطرة طائفة الأتراك الشركس على الوظائف البيروقراطية، وبالتالى فقد كان يجب فى المقام الأول – فى رأى كرومر أول مندوب سامى بريطانى فى مصر – إحلال سلطة أخلاقية جديدة محل السلطة القديمة التى لم تهتم كثيراً بالواجب والمسئولية تجاه المجتمع، وبالتالى يجب إقصاء ممثلى الارستقراطية التركية القديمة التى كانت تقاوم كل إقدام على التجديد – المعوقون فى الإدارة منذ عصر محمد على – وذلك بفضل نفوذها شبه الاقطاعى. ولم يكن بقاء هذه الطبقة فى مواقع القيادة عوناً فى وقت من الأوقات بل كان عقبة فى سبيل الأخذ بمبادئ الأخلاق الحديثة فى الحكم. (٤٣)

وقد اقتصر التدخل البريطانى فى السنوات الثمانى الأولى من الاحتلال على مؤسسات الجيش والمالية والاقتصاد، والقيام بإصلاح الإدارة كلها وتغييرها تغييراً شاملاً من القاعدة إلى القمة، وقد دعا تحقيق هذا بعد عام ١٨٩٠م إلى ازدياد تدخل المندوب السامى البريطانى مباشرة فى الشئون السياسية الخاصة بجميع دوائر الحكومة.

وكانت نظارة الداخلية تعد – من وجهة نظر كرومر – موطن الإهمال الحكومى، لذا فقد عرض المصلحون الإنجليز مهمة تعديل نظام الشرطة الداخلى والسلطات المحلية التى تهيمن على الشرطة فى الوقت نفسه عدة مشاريع لتنظيم الشرطة. (٤٤)

ولزيادة قوة الأمن العام ورفع روح النظام فيه، تقرر فى عام ١٨٨٣ تعيين مفتشين من الإنجليز فى الأرياف يشرف عليهم مفتش عام من أبناء جلدتهم فى القاهرة يكون مسئولاً أمام ناظر الداخلية المصرى، وكان المفتش العام - الجنرال فالنتين بيكر Valentine Baker - هو قائد الجيش المصرى فى السودان، وقد حرص على آرائه العسكرية بعد نقله من الشرطة التى اعتاد تنظيمها على أن تكون احتياطياً عسكرياً قد يدعى فى وقت قريب إلى الدفاع عن البلاد ضد غزو رجال المهدى، وكان نظام قوات الأمن يتألف من قسمين مستقلين هما رجال الأمن فى تشكيلات شبه عسكرية ورجال الشرطة.(٤٥)

وقد ظلت شرطة الأرياف، كما هى، تحت سلطة المديرين الذين كانوا يسيطرون فى نفس الوقت على موظفى الحكومة على اختلاف طوائفهم فى الأرياف، ثم تقرر بعد ذلك أن تبتعد الشرطة عن سلطة المأمورين والمديرين، وجعل منها هيئة مستقلة خاضعة لمراقبة المفتشين فى المديريات تحت إشراف المفتش العام الإنجليزى فى القاهرة. وقد عهد إلى الشرطة التحقيق فى الجنايات وفقاً لقانون المرافعات الإنجليزى الهندى، دون النيابة، مما أدى إلى تقليص سلطة المديرين، وبالتالى سيطرة إنجلترا بكل قوتها على جهاز الأمن الداخلى.(٤٦)

وقد عين الجنرال كتشنر مفتشاً عاما فى عام ١٨٩٠، فحدد اختصاصات المفتشين والمديرين تحديداً دقيقاً وظلت الشرطة تحت سلطة المدير، ولكن كان على المدير منذ ذلك الحين أن يصدر أوامره إلى الشرطة بواسطة المفتشين، ولم يكن له أن يتدخل فى مسائل التدريب والتنظيم ولا أن يطلب قوات الأمن إلا فى الأغراض المشروعة، وفضلاً عن ذلك كانت الشكاوى ضد الشرطة تحال إلى ناظر الداخلية الذى كان ينظر فيها بالاشتراك مع المفتش العام.

وقد وضعت سلطات الاحتلال نظاماً لتعيين العمد عام ١٨٩٥م روعى فيه أن يتم اختيار العمد بمعرفة لجنة تشكل فى كل مديرية يكون من بين أعضائها ممثلون عن العمد، ولكنه أخضعهم فى ذات الوقت لسلطة الاحتلال، إذ جعل هذا النظام

تعيين العمد وتأديبهم من سلطة المديرين الذين كانوا تابعين، بدورهم، لمستشار الداخلية الإنجليزى. وأعطت قرارات ١٦ مارس ١٨٩٥، ٢٥ أبريل ١٨٩٨م للعمد بعض السلطات القضائية، فعهد إليهم النظر فى بعض الدعاوى المدنية والجنائية، ثم تدعمت سلطتهم القضائية بصدور قانون "محاكم الأخطاط" فى ٨ يونيو ١٩١٢م، الذى نص على تشكيل محكمة فى كل قرية تتكون من خمسة أعضاء تختارهم السلطات من بين ذوى الأملاك بالقرية للنظر فى القضايا الخاصة بحدود الأطيان ومشاكل الرى والصرف وقضايا الديون فى حدود خمسمائة قرش وقضايا التعويض فى حدود ألف قرش والمشاركة على المحصول فى حدود ثلاثة آلاف قرش، أما ماعدا ذلك فيرفع إلى المحكمة الأهلية، وقد وفرت هذه السلطات الإدارية والقضائية نفوذاً واسعاً للعمد على الفلاحين[٤٧].

وكانت السلطة التنفيذية فى أيدى هيئة من المستشارين والخبراء الإنجليز التى كانت تشكل "العمود الفقرى للإدارة المدنية المصرية" وكانت تضم فى عام ١٨٩١م، ٣٩ موظفاً كبيراً تركزوا فى المالية والجمارك وخفر السواحل والبريد والبوليس والجيش والأشغال العمومية ومصلحة السجون والمحاكم الأهلية والصحة. وقد أضيف لهؤلاء – فيما بعد– مستشار قضائى وقاض ومراقب للأموال المقررة فى نظارة المالية. [٤٨] وكان يعاونهم عدد كبير من مواطنيهم ومن الأوربيين من مختلف الجنسيات وقد زاد عدد هؤلاء الموظفين بمعدل فاق فى سرعته معدل الموظفين من أهل البلاد الذين تضاءلت منزلتهم شيئاً فشيئاً وأبعدوا عن المناصب التى كانوا يشغلونها حتى ذلك الحين. وفى الواقع، كان الإنجليز فى ذلك التسابق إلى الوظائف يفضلون على سواهم، وكانت جميع الوظائف الجديدة المهمة تخصص لهم دون جدال، بل كانوا يخصون أيضاً بالكثير من الوظائف الشاغرة التى كان يشغلها غيرهم من الأوربيين أو من المصريين. [٤٩]

وقد ازداد عدد الموظفين فى الحكومة المصرية من ٩١٣٤ موظفاً فى عام ١٨٩٦ إلى ١٣٢٧٩ موظفاً فى عام ١٩٠٦، وازداد من بين هؤلاء عدد الموظفين الأجانب من ٦٩٠ موظفاً إلى ١٢٥٢ أى نحو الضعف، فى حين أن عدد الموظفين

المصريين قد ازداد من ٨٤٤٤ موظفا إلى ١٢٢٠٧ أى بزيادة نحو ٦٩% فقط. وكان فى عام ١٨٩٦ من بين الموظفين الأجانب ٢٨٦ موظفا بريطانياً فقط، فأصبح عدد الموظفين البريطانيين ٦٦٢ موظفاً فى عام ١٩٠٦ أى بزيادة تقدر بنحو ٢٣١%. ومما يزيد فى قبح هذا الظلم فى التوزيع العددى للموظفين المصريين والأجانب أن أدنى الوظائف كانت من نصيب المصريين وأن جل الوظائف المهمة من نصيب الأجانب. فقد شملت الوظائف المصرية سعاة البريد وعمال السكك الحديدية والتلغراف ونحو ذلك، فى حين أن المناصب الإدارية ذات المسئولية أسندت إلى الأوربيين وخصوصاً الإنجليز. (٥٠)

كان الهدف الرئيسى من تلك السياسة هو حرمان المجتمع المصرى من أن يكون له نصيب أو حظ فى إدارة شئون البلاد وجعل هذه الإدارة جهد المستطاع إدارة بريطانية، حتى يكون هناك ذريعة لإطالة أمد الاحتلال، بدعوى أن المصريين عاجزون عن إدارة شئونهم بأنفسهم، وهو أمر يناقض السياسة المعلنة التى جعلت الترقية والتعليم والإعداد للحكم الذاتى والمحافظة على مصالحهم ومصالح أوروبا قاعدة هذا الاحتلال، وبالتالى أصبح إعداد المصريين وتدريبهم على إدارة شئونهم الداخلية أمراً بعيد المنال. (٥١)

وهكذا بإخضاع الأجهزة التنفيذية العليا للمستشاريين الإنجليز وطدت سلطات الاحتلال النظام والأمن بمراقبة الأجهزة الإدارية فى البلاد عن قرب. وكانت هذه الرقابة الصارمة من جانب هؤلاء تتفق وطبقات مهمة من السكان وخصوصاً فى الفترة المبكرة من الاحتلال، فحين كلف دافرن القنصل البريطانى نويل تمبل مور Noeltemple Moore بتسليط الضوء على شعور الرأى العام فى مصر عام ١٨٨٣، أخبر دافرن بأن – ونتيجة احتكاكه بهؤلاء – الأعيان فى الأرياف والعلماء والتجار كانوا شاكرين لانجلترا انقاذها البلاد من الفوضى، وفضلا عن ذلك فإن المصريين على شدة رغبتهم فى أن يزداد اشتراكهم فى الوظائف العامة، أعربوا عن "رغبة صادقة بالإجماع فى أن يشترك الإنجليز مع المديرين المصريين والقضاة والموظفين على اختلاف مناصبهم ليبقوهم فى طريق الاستقامة والواجب ولكى

يعطوا الثقة للأهالى بأن الحق والعدالة سيحلان من الآن فصاعدا محل الفساد والاستبداد وشريعة الأقوى". [٥٢]

وهناك عامل مهم زاد من شدة نظام الوصاية، فقد نجمت عن التوسع فى مشروعات التنمية الاقتصادية حاجات ومتطلبات إدارية وفنية جديدة تدعو إلى استخدام عدد كبير من المتخصصين الذين لا تستطيع مصر أن تزود الإدارة بأمثالهم، وبالتالى فإن عجز هيئة الموظفين من أهل البلاد، فى تلك الحالة، عن القيام بواجباتهم المتصاعد جعل كل تقدم نحو الاستقلال الذاتى مشكوكا فيه وشجع بالتالى على تركيز السلطة فى أيدى موظفى الاحتلال. وبهذا أرادوا توطيد سيادتهم بالحد من قوة مقاومة المصريين وإضعافها، وذلك بتعزيز قبضتهم على الإدارة والوقوف حجر عثرة فى سبيل نمو المؤسسات السياسية وبالحط من شأن الثقافة الوطنية. [٥٣]

وفيما يتعلق بالإصلاح القضائى، فقد كان القضاء فى مصر يتوزع بين المحاكم المختلطة والقنصلية والشرعية والأهلية. وقد رأى دافرن ضرورة الإسراع فى إقامة نظام للقضاء يضع حداً للإجراءات وطرق التحقيق المتبعة حينذاك وينشئ أساساً قانونياً لإحكام المحاكم. وفى ١٣ نوفمبر ١٨٨٣ صدرت القوانين الجديدة للإصلاح القضائى، القانون المدنى وقانون العقوبات وقانون تحقيق الجنايات وهى القوانين التى كانت حكومة شريف باشا قد أعدتها فى نوفمبر ١٨٨١م، مسترشدة بالقوانين الفرنسية.

وقد بدأ العمل بالقانون المدنى وقانون العقوبات فى أول فبراير ١٨٨٤م فى الوجه البحرى بإنشاء خمس محاكم ابتدائية فى كل محكمة منها خمسة قضاة أحدهم أوربى، ومحكمة استئناف تضم تسعة مستشارين منهم أربعة مستشارين أوربيين وألحقت بكل محكمة مركزية محكمة جزئية برئاسة قاضى واحد تنتدبه المحكمة المركزية من بين أعضائها. وحدد اختصاص المحكمة الجزئية فى القضايا الجنائية بالجنح الصغرى، وفى القضايا المدنية والتجارية، بالمنازعات التى تقل عن مائة جنيه مصرى، وكانت هذه المحاكم الثلاث الجديدة تفصل فى القضايا المدنية

والتجارية والجنائية بدون محلفين، وكانت محكمة الاستئناف نهائية فـى القـضايا المدنية، أما فى القضايا الجنائية فقد كان الطعن فى أحكامها بالنقض جائزاً فى حالة واحدة فقط وهى مخالفة نصوص القوانين. (٥٤)

ونظراً لتعذر وجود عدد كاف من الموظفين ذوى الدراية بالشئون القـضائية والقوانين فقد تعذر إدخال النظام القضائى الجديد فى الوجه القبلى أيضاً، وبالتـالى فقد ظل القضاء الخديوى القديم معمولا به حتى يونيو ١٨٨٩م حين أنشئت ثـلاث محاكم ابتدائية فى الوجه القبلى. (٥٥)

وبكل هذه الإجراءات وغيرها، سيطرت سلطات الاحـتلال علـى الجهـاز الإدارى والقضائى والسياسى فى مصر حتى إعلان الحماية عـام ١٩١٤م، حيـث كانت مصر تحكم بقرارات من وزارة الخارجية البريطانية، وانحـصرت الـسلطة الشرعية فى التصديق على هذه القرارات، بعد أن سيطر المستشارون الإنجليز على معظم الوزارات منفذين تعليمات خارجية بلدهم بدرجة بات معها الوزير المصرى مكلفاً بتنفيذ مشورتهم، وإلا وجب عليه ترك وظيفته، تلك الحقيقـة أكـدها وزيـر خارجية بريطانيا اللورد جرانفيل فى برقيته للحكومـة المـصرية فـى ٤ ينـاير ١٨٨٤. (٥٦)

وبالرغم من تلك الإجراءات التى اتبعتها الإدارة البريطانية لتحقيـق الأمـن والاستقرار فى الشارع المصرى، سواء فى الريف أو المدينـة، فقـد زادت عـدد الجرائم ازدياداً ملحوظاً. ففى عام ١٩٠٦م، وقعت ٣٢٠١ جريمة منها ٧٤١ جريمة قتل، ٣٩٢ جريمة شروع فى قتل، ٤٩٧ سرقة بالإكراه، ٥٢١ جريمة إحراق متعمد كما وقعت ٦٣,٨٥٣ جنحة منها ١٦٥٧٩ قضية سرقة فلا عجب إذا سـلم اللـورد كرومر نفسه "بأن هذا الإزدياد فى الجرائم أشد ما فى موقف مصر كله من وجـوه الإقلاق" . وقد تكلم بعد ذلك عن هذه الزيادة فوصفها بأنها ظاهرة حديثـة، وهـو مجرد تغرير – على حد قول– روزشتين. (٥٧)

ولقد حار كرومر فى تعليل هذه الظاهرة حيرة شـديدة، فنجـده فـى سـنة ١٨٨٤م، وهو يلفت النظر إلى تلك الظاهرة يعزوها إلى إلغاء الكرباج، بينما ثبـت

على لسان اللورد كرومر نفسه أن ذلك الإصلاح الكبير قد ظل زمناً طويلا معلقاً غير نافذ، لأن قوميسيونات الأشقياء، وهى فى الحقيقة محاكم عسكرية، كانت تستعمل الكرباج من عام ١٨٨٥م إلى عام ١٨٩٠م كما تشاء فتارة تستعمله أداة عقاب وتارة أخرى تستعمله أداة تقرير(٥٨).

وقد زادت الجرائم التى يعتبرها القانون جناية من ١٢٩٠ فى عام ١٩٠٠م إلى ١٥٤٨ فى عام ١٩٠١، ٢١٢١ عام ١٩٠٣م، واضطردت فى الزيادة حتى بلغت ٣٥٨٦ جناية فى عام ١٩٠٦م، أى أنها زادت بنسبة ٢٧٧% فيما بين عامى ١٩٠٠، ١٩٠٦م، فى الوقت الذى لم يزد فيه عدد السكان إلا بنسبة ١٦%خلال نفس الفترة. (٥٩)

وقد عاد كرومر ليبين لنا درجة الارتباط بين تقدم الثروة الاجتماعية وزيادة عدد الجرائم بقوله : "إن رخاء الفلاحين غير العادى قد شحذ هممهم وبث فيهم حب الكسب، وهذا من شأنه أن يثير الحسد والخبث والحقد في النفوس، وازدياد الجرائم في مصر يعود إلى هذه الأسباب(٦٠).

على أن ما ذهب إليه كرومر من الربط بين الثروة وزيادة عدد الجرائم بعيد عن الحقيقة والواقع، لأنه يتعذر الحكم على تأثير العوامل الاقتصادية في نمو الجريمة إذا اقتصر البحث على الثروة الإجمالية، فليس المهم هو مجموع الثروة بل المهم هو عدم المساواة أو العدالة فى توزيعها. فالثروة لا تستطيع أن تزيد من الإجرام إلا بطريقة غير مباشرة من خلال الاستياء الذى ينشأ عن سوء توزيع الثروة والإجحاف فيه، فليست الثروة نفسها بل سوء توزيعها هو الذى يضخم فى الوقت نفسه ثروة البعض ويدفع إلى المجتمع بفقراء جدد ويجعل الفقراء القدماء أشد فقراً. إذن فالثروة العامة لم تفعل شيئا سوى زيادة المستائين(٦١).

وخلاصة القول إن الجشع لا يلعب إلا دوراً ثانوياً فى إثارة الجرائم، أنه الشعور بعدم الرضى وبالاستياء، هذا الشعور النابع من فداحة عدم المساواة فى توزيع الثروة والذى يساهم فى ازدياد الجرائم. (٦٢)

الهوامش :

(١) ليلى عبد اللطيف أحمد : الإدارة فى مصر فى العصر العثمانى، ص٥٣.

(٢) هيلين ان ريفلين : الاقتصاد والإدارة فى مصر فى مستهل القرن التاسع عشر، ترجمة أحمد عبد الرحيم مصطفى، ص١١٠.

(*) أثبتت الدراسات الحديثة التى تناولت تلك الفترة واعتماداً على المصادر الأصلية لتاريخ مصر، أن العصر العثمانى لم يكن كله عصر ركود وجمود وتخلف. ومن أهم هذه الدراسات، دراسة الدكتورة نللى حنا، والتى تعد من بين نخبة المتخصصين فى تاريخ العصر العثمانى، ولها دراسات هامة وأصيلة، منها "بيوت القاهرة فى العصر العثمانى" و"تجار القاهرة فى العصر العثمانى – سيرة أبو طاقية شاهبندر التجار" و"ثقافة الطبقة الوسطى فى مصر العثمانية.

(٣) جهادية، أوامر، محفظة (١٧)، أمر عال بتاريخ ٢٣ ربيع الآخر سنة ١٢٢٣هـ/١٨٠٨م، "تعهد وإقرار من محمد على على الاتفاق المنعقد من الوكلاء والمسئولين والأعيان مضمونه أن يكونوا يداً واحدة فى إعادة وتأييد نظام الدولة الذى طرأ عليها بعض أمور مخلة فى السنين الأخيرة لمناسبة حصول منافسات وأغراض شخصية بين الوكلاء وأنه متعهد قلباً وقالباً بشروط هذا الاتفاق والانقياد لما تدون به...".

(٤) معية تركى، دفتر ٦٩، وثيقة ٩٩، بتاريخ ٨ جماد ثان سنة ١٢٥١هـ/١٨٢٥م.

(٥) ديوان خديوى تركى، دفتر ٧٢٩، وثيقة ٤١، بتاريخ ٢٤ شعبان سنة ١٢٤١هـ/١٨٢٥م.

(٦) جهادية أوامر، محفظة (١٧)، أمر عال بتاريخ ١٤ محرم سنة ١٢٤٥هـ/١٨٢٩م.

(٧) كلوت بك، لمحة عامة إلى مصر، ترجمة محمد مسعود، جـ٢، ص ٢٧٨، د.ت.

(٨) معية تركى دفتر ٦٢، وثيقة ٤٠٧، بتاريخ ١٩ شوال سنة ١٢٥٠هـ/١٨٣٤م، دفتر معية تركى بدون رقم، وثيقة ٥٠٧، بتاريخ ٩ جماد آخر سنة ١٢٤٣هـ/١٨٢٧م.

(٩) معية تركى ، دفتر ٦٩، وثيقة ٣٨، بتاريخ ١٦ جماد أول سنة ١٢٥١هـ/١٨٣٥م.

(١٠) أحمد فتحى زغلول : المحاماة، ص ١٥٨، طبعة ١٩٠٠م.

(١١) نفس المرجع.

(١٢) المرجع نفسه، ملحق رقم ٣، ص ٢٧.

(١٣) انظر مواد اللائحة بالتفصيل فى ملحق الدراسة ص .

(١٤) جهادية أوامر، محفظة (١٧)، أمر عال من محمد على إلى مختار بك رئيس المجلس العالى المستجد، بتاريخ غاية جماد أول سنة ١٢٥٠هـ/١٨٣٤م.

(١٥) محمد فؤاد شكرى وآخرون : بناء دولة مصر محمد على، ص ٨.

(١٦) محمد فؤاد شكرى وآخرون، بناء دولة مصر محمد على، ص٨، طبعة ١٩٤٨م.

(١٧) دفتر مجموعة ترتيبات ووظائف الواردة بقانون السياستنامة.

(١٨) دفتر ممجموعة ترتيبات ووظائف الواردة بقانون السياستنامة الصادر فى ربيع الآخر ١٢٥٣هـ/١٨٣٧م. ومواد القانون منشورة فى كتاب أحمد فتحى زغلول، المحاماة، سنة ١٩٠٠م.

(١٩) دفتر مجموعة ترتيبات ووظائف الواردة بقانون السياستنامة الصادر فى ربيع آخر ١٢٥٣هـ/١٨٣٧م.

(٢٠) أحمد عزت عبد الكريم: تاريخ التعليم فى عصر محمد على، النهضة، ١٩٣٨، ص١٠٩.

(٢١) لينان دى بلفون: مذكرات عن أهم أعمال المنفعة التى تمت بمصر، ص٢٥.

(٢٢) كان قد صدر قرار من محمد على إلى بوغوص بك ناظر التجارة بأن يقوم الأجانب العاملون بالحكومة بالإشراف على عمليات استيراد الآلات والخامات اللازمة لمؤسسات الدولة المختلفة.

(٢٣) هيلين ريفلين. ترجمة أحمد عبد الرحيم مصطفى : الاقتصاد والإدارة فى مصر فى مستهل القرن التاسع عشر، ص ١٢٢.

(24) Edward Dicey : The Story of the Khedivate, p.49.

(٢٥) أحمد فتحى زغلول، المصدر السابق، ملاحق، ص ٥٢، وتشتمل هذه اللائحة على عشرة مواد.

(٢٦) لوائح وقوانين، محفظة ٦، لائحة تتعلق بضبط وربط الأجانب بتاريخ ربيع الآخر ١٢٧٤هـ/١٨٥٧م.

(٢٧) أحمد فتحى زغلول، المصدر السابق، ص ٢٠٠.

(٢٨) معية سنية عربى، دفتر بدون رقم، ص٩٢، أمر عال للداخلية بتاريخ ٢٧ صفر سنة ١٢٩٣هـ/١٨٧٦م.

(٢٩) حول لائحة تأسيس المجلس ونظامه، انظر، معية سنية عربى، دفتر ٣٢،جـ١،قيد اللوائح والقرارات والمنشورات، قرار رقم ٥١، ٥٥، ص ٣٦، ص ٤١.

(٣٠) معية تركى، دفتر ٥٣٩ أمر عال رقم ٣، ص ١٤، بتاريخ ٢٩ جماد آخر سنة ١٢٨٠هـ/١٨٦٤م.

(٣١) معية تركى، دفتر ٥٧٣، أمر عال بتاريخ ١٤ محرم سنة ١٢٨٦هـ/١٨٦٩م.

(٣٢) أوامر عربى، معية سنية، دفتر ١٩٠٩، أمر عال رقم ٧ إلى مجلس الصحة بتاريخ ٢٢ ربيع أول سنة ١٢٨١هـ/١٨٦٤م.

(٣٣) معية سنية عربى، دفتر ١٩٤٣، أوامر، أمر عال إلى المجلس الخصوصى بتاريخ ١٦ ربيع أول سنة ١٢٩٠هـ/ ١٨٧٢م.

(٣٤) لوائح وقوانين، محفظة (٦) أمر عال للداخلية رقم ٨٩، بتاريخ ٥ ذى الحجة ١٢٨٩هـ/١٨٧٢م.

(٣٥) معية تركى، دفتر ٥٣٩، ص١٢، أوامر كريمة، أمر عال بتاريخ ١٥ ربيع آخر سنة ١٢٨٠هـ/١٨٦٣م.

(36) Makinzy Walace : Egypt and the Egyptian Question, p.360.

(٣٧) أمين سامى، تقويم النيل، عصر إسماعيل، المجلد الثانى، جـ٣، ص ٤٧٥.

(٣٨) معية تركى، دفتر ٥٢٥، أمر عال إلى رئيس مجلس الأحكام رقم١٣، بتاريخ ٥ شعبان سنة ١٢٧٩هـ/ سنة ١٨٦٣م.

(٣٩) أحمد فتحى زغلول، المصدر السابق، ص ٢١٤.

(٤٠) جورج جندى، جاك تاجر: إسماعيل كما تصوره الوثائق الرسمية، ص ١١٩، طبعة ١٩٤٧، ومما هو جدير بالذكر أننا لم نعثر فى وثائق تلك الفترة على ما يؤيد ما ذهب إليه جورج جندى وجاك تاجر من وجود قواصة (الغفر) أجانب فى الإدارة المصرية، حيث أسندت هذه المهام للقواصة العرب أو المصريين بمعنى أدق.

(٤١) معية تركى. دفتر ٥٣٩، أمر كريم رقم ٤، ص ٢٦بتاريخ ١٨ محرم سنة ١٢٨١هـ/١٨٦٤م.

(٤٢) التقرير العام المرفوع من دافرن إلى اللورد جرانفيل وزير الخارجية البريطانى بشأن الإصلاحات فى مصر، ١٤ فبراير ١٨٨٣.

(٤٣) سعيد ذو الفقار، الإمبريالية البريطانية فى مصر ١٨٨٢-١٩١٤، ص ٣٩، د.ت.

(٤٤) سعيد ذو الفقار، مرجع سابق، ص ٤٢.

(45) Cromener: Modern Egypt, vol.2, p.481

(٤٦) الرافعى : مصر والسودان أوائل عهد الاحتلال، ص ١٥٧، ١٥٨. وكان كل مركز فى الأرياف بين يدى المأمور الذى كان يشرف إشرافاً مطلقاً على جميع الموظفين المحليين وعلى الشرطة أيضاً. وكان المدير يهيمن على جميع الموظفين فى جميع أنحاء المديرية. سعيد ذو الفقار، مرجع سابق، ص ٩٦، هامش (٤٢).

(٤٧) رءوف عباس حامد : النظام الاجتماعى فى مصر فى ظل الملكيات الزراعية الكبيرة، ص ١٣٦، ١٣٧.

(٤٨) أحمد زكريا الشلق: حزب الأمة ودوره فى السياسة المصرية،ص ٣١.

(٤٩) سعيد ذو الفقار، مرجع سابق، ص ١٥٥.

(٥٠) تيوور روزشتين : تاريخ المسألة المصرية ١٨٧٥-١٩١٠، ترجمة عبد الحميد العبادى ومحمد بدران، ص ٢٢٥، طبعة ١٩٨١. وقد عاد كرومر ليؤكد من جديد فى تقريره الأخير (١٩٠٦) أهمية وجود العنصر الإنجليزى فى الإدارة المصرية، وأن استرجاع المفتشين البريطانيين من المديريات سوف يؤدى إلى عواقب وخيمة. تقرير كرومر عام ١٩٠٦، ص ٨.

(٥١) وقد تأكدت النزعة العنصرية عند كرومر عندما قال : "إن ما يعنيه الأوربيون بالحكم الذاتى المصرى يتلخص فى أن المصريين وقد صرفوا عن ميلهم الرجعى، لا يؤذن لهم بحكم أنفسهم إلا بالطريقة التى يراها الأوربيون" Cromer, Modern Egypt, vol.2, 526.

(52) Egypt No.,2, (1883), p.26, from Concul (Moore to Dufferin).

(٥٣) وقد أكد هذه الحقيقة اللورد ملنر فى عام ١٩٢١م؛ عندما قال بأنه "بإطالة الاحتلال البريطانى ازداد عدد الموظفين الإنجليز وتوارى ذلك المبدأ أن هدف الإدارة تدريب المصريين وإعدادهم لإدارة شئون بلادهم بأنفسهم". انظر، Milner: England in Egypt, Press, 1920، تقرير ملنر، رقم (١)، ١٩٢١. نقلا عن سعيد ذو الفقار، ص١١٥

(٥٤) للمزيد من التفاصيل، انظر، لطيفة محمد سالم، النظام القضائى المصرى الحديث ١٨٧٥-١٩١٤م، القاهرة ١٩٨٣م.

(٥٥) سعيد ذو الفقار، مرجع سابق، ص ٤٤.

(٥٦) المقطم، العدد ١٢٣٨، ٨ أبريل ١٨٩٣.

(٥٧) تيودور روزشتين، المرجع السابق، ص٢١٧.

(٥٨) نفسه.

(٥٩) إسماعيل زين الدين : الزراعة المصرية فى عهد الاحتلال، ص ٩٣.

(٦٠) تقرير كرومر لعام ١٩٠٥.

(٦١) سعيد ذو الفقار، المرجع السابق، ص ٩١-٩٣.

(٦٢) نفسه.

لائحة ترتيب المجلس العالى الصادرة بتاريخ

٢٥ ربيع أول سنة ١٢٥٠ هـ/ سنة ١٨٣٤م

المادة الأولى

على ناظر المجلس فى بادئ الأمر ان يتوجه فى صباح كل يوم إلى المجلس العالى عندما لا يكون ولى النعم فى مصر عليه ان يظل فى المجلس إلى وقت الغروب حيث يأمر فى الوقت الملائم بترجمة أوراق المصالح العربية التى ترد يوميا ويتولى محمد أفندى ناظر الدرسخانة الإشراف على الترجمة حتى لا يقع فيها أى سهو أو خطأ ثم تقابل الترجمة على الأصل العربى فى المجلس مرة أو مرتين فى الأسبوع على سبيل الاختيار لمعرفة مبلغ صحتها ولما كان ناظر المجلس مسئولا عما يقع فى المجلس من خطأ و صواب فعليه أن يعنى كل العناية بأمر هذه الترجمة .

المادة الثانية

لما كان الأمر يتطلب الحضور إلى المجلس العالى فى الصباح والبقاء فيه حتى المساء فأنه لمن البداهة أن نظار الدواوين ومن إليهم من رؤساء المصالح المعدودين اليوم من أعضاء المجلس العالى لو راعوا هذه القاعدة لما اتسع لهم الوقت لرؤية شئون المصالح المعهود بها إليهم، فعلى المجلس ، والحالة هذه ان يستقدم إليه النظار ورؤساء المصالح الذين لهم أعمال فى المجلس تستدعى حضورهم إليه حيث ينظر فى الموضع بمواجهة ذاك الناظر أو الرئيس المختص ومتى انتهى النظر فى الموضوع يؤذن له ويعاد إلى مصلحته وكذلك الحال فيما إذا كان لأحد النظار فى أو الرؤساء شأن من الشئون التى تستوجب عرضها على المجلس العالى بنفسه وبعد عرض الأمر وإنهائه يعود إلى مصلحته .

المادة الثالثة

بما أنه ليس من المصلحة أن يداوم على الحضور إلى المجلس العالى الكبراء المعدودون من أعضاء المجلس على نحو ما جاء بيانه بالمادة الثانية فان الضرورة تقتضى بوجود بعض الخبراء بالمجلس، وحيث أن الأفندية ناظر الدرسخانة وناظر الوقائع وناظر الدفترخانة والانختار أغاس (أمين دار الأمتعة) يقيمون على قرب من دائرة المجلس العالى ونظراً لأن أكبر شئون الأفندى ناظر الدرسخانة مرتبطة بالمجلس فليس ثمة اى محذور من مداومة على الحضور إلى المجلس العالى يوميا . ولما كانت الأخبار والحوادث التى تنشر فى الوقائع يندر أن يحررها ناظر الوقائع بقلمه وأنما مهمته التصحيح والتثبيت، فليس هناك ما يحول دون مداومة ناظر الوقائع على الحضور إلى المجلس فى الأوقات المحددة على أنه ليس هنالك ما يمنع من ترددهما على مقر عملهما بين الفينة والفينة لرؤية شئون مصلحتهما بالمجلس العالى، وعملهما فى مصلحتهما ومن الموافق أيضاً أن يدوام على الحضور إلى المجلس العالى كل من أحمد أفندى البوشناق والأفندى المهتر (أمين مفروشات المبانى) إذ انهما غير متقيدين بإدارة مصلحة خاصة .

المادة الرابعة

بما أن أكثر الشئون الجارية رؤيتها بالمجلس العالى هى شئون الأقاليم فمن الإلزام والحالة هذه أن يوجد بالمجلس العالى بعض رجال الإقليم المنتخبين . ثم أن هناك قضايا يمارسها المجلس العالى، تتعلق بحقوق عباد الله ورؤية هذه القضايا والفصل فيها، من اختصاص الشرع الشريف حيث يجب أيضا أن يكون بين أعضاء المجلس عالمان من علماء مصر وبما أنه تعرض على المجلس قضايا تختص بالمشتروات والتجارة فان الأمر يستدعى وجود تاجرين بالمجلس لرؤية مثل هذه القضايا، ولا بد للمجلس العالى من كاتبين ملمين بالأعمال الحسابية ليعهد إليهما فى رؤية الحسابات كما يجب أن يعين للمجلس العالى بعض المعاونين لاستخدامهم فى

تحقيق المواد التى تستوجب التحقيق فعلى كل مديرية أن توفد إلى المجلس العالى شيخا ينتخب من قبل الأهالى على أن يستبدل هؤلاء الشيوخ بغيرهم مرة فى كل سنة بنفس الطريقة (بالانتخاب) أما العالمان فيتم انتخابهما بمعرفة كبار العلماء ويستبدلان بغيرهما مرة كل سنة كالشيوخ وكذلك الحال بالنسبة إلى التاجرين والكاتبين وعلى شورى المعاونة انتخاب المعاونين الذين سيعينون للمجلس، هذا ويجب اتخاذ هذا النظام دستورا للعمل[١].

[١] المصدر : دار الوثائق القومية، دفتر المنتخبات.

أزمة جبل طارق (١٩٥٣ - ١٩٥٤)
فى العلاقات البريطانية الاسبانية

د. حمادة وهبة مسعد أحمد غنا
مدرس التاريخ الحديث والمعاصر
كلية الآداب - جامعة سوهاج

كانت منطقة صخرة جبل طارق سببا دائما فى توتر العلاقات الإسبانية البريطانية منذ عام ١٩٥٣ وحتى عام ٢٠٠٢ . ومن ثم حاولت إسبانيا – خلال تلك الفترة – التفاوض مع الحكومات البريطانية المتعاقبة لإعادة المستعمرة إليها، بيد أن تلك المفاوضات زادت من اشتعال الموقف بين الدولتين خاصة مع تدخل الأمم المتحدة فى المشكلة منذ عام ١٩٦٣.

وتحاول هذه الدراسة إلقاء الضوء على العلاقات البريطانية الإسبانية مع بداية خمسينيات القرن العشرين، وتطورات الأزمة التي أصابت العلاقات بين الدولتين فى عام ١٩٥٣/ ١٩٥٤ من جراء إثارة الحكومة الاسبانية لموضوع مستعمرة جبل طارق، حيث كانت المرة الأولى التى نشطت فيها مدريد بشكل إيجابي للمطالبة بالمستعمرة منذ نهاية القرن الثامن عشر، وذلك من خلال عدة محاور، هي: التطور التاريخي لمشكلة جبل طارق، وإثارة الأزمة فى عام ١٩٥٣، وأزمة زيارة الملكة إليزابيث الثانية لجبل طارق.

ويحاول الباحث خلال هذه الدراسة الإجابة على عدد من التساؤلات منها :

- ما الدوافع والأسباب الحقيقية وراء إثارة مدريد لأزمة جبل طارق فى عام ١٩٥٣ / ١٩٥٤ ؟
- ما الأدوات والوسائل التى استخدمتها مدريد للضغط على لندن لتتخلى عن

جبل طارق؟ وهل نجحت تلك الوسائل ؟

- ما رد الفعل البريطانى – على مستوى كل من الحكومة والبرلمان- تجاه مطالبة اسبانيا باسترداد مستعمرة جبل طارق ؟
- هل تدخلت الولايات المتحدة فى أزمة جبل طارق بين حليفتيها ؟ أما أنها آثرت سياسة الحياد ؟

أما عن الدراسات السابقة فمن خلال البحث في المكتبات وعبر قاعدة البيانات العالمية الخاصة باتحاد مكتبات الجامعات المصرية، وأيضا من خلال الشبكةِ الدولية للمعلومات (الانترنت) ، لم يتوصل الباحث –على قدر علمه- إلا على دراسة واحدة جاءت تحت عنوان Loyalty and Royalty: Gibraltar, the 1953–54 ,Royal Tour and the Geopolitics of the Iberian Peninsula ، وهى دراسة فى الجغرافيا السياسية، لكل من كلاوس دودز Klaus Dodds ، ديفيد لامبرت David Lambert ، بريدجيت روبيسونBridget Robison ، ومن خلال المقدمة تتضح أهداف تلك الدراسة، حيث يقول الباحثون:" تكشف هذه المقالةِ عن الجولة الملكية ١٩٥٣-٥٤ ، وعلى وجه الخصوص التخطيط والاستقبال النهائيِ للملكة فى جبل طارق" ، ومن ثم تتناول دراستهم وصفاً تفصيليًا مصوراً لخطط استقبال الملكة، والأماكن التي تفقدتها خلال إقامتها بالمستعمرة، والخطب التى ألقيت للترحيب بها، ومن ثم لم تتعرض الدراسة بشكل مباشر لأزمة العلاقات بين بريطانيا واسبانيا خلال تلك الفترة؛ إلا فى إشارة عابرة، وبالتالي لا يوجد تشابه بين الدراستين.

وقد اعتمدت الدراسة الحالية على: وثائق وزارة الخارجية البريطانية Foreign Office وتم اختصارها إلى .F.O ، والوثائق الأمريكية Report on United States Foreign Assistance Programs، ووثائق وزارة الخارجية المصرية، كما اعتمد الباحث على عدد من المصادر والمراجع الاسبانية منها جريدتى ABC Madrid و La Vanguardia Española إلى جانب الاستعانة بعدد من المصادر والمراجع العربية والأجنبية المختلفة .

أولا التطور التاريخى لمشكلة جبل طارق :

احتلت بريطانيا العظمى منطقة صخرة جبل طارق Gibraltar [١] فى عام ١٧٠٤ أثناء حرب الوراثة الأسبانية، وأصبح وضعها قانونيا بها بموجب المادة العاشرة من معاهدة اوتريخت Utrecht، التى أنهت تلك الحرب فى عام ١٧١٣، غير أن أسبانيا حاولت جاهدة استردادها أكثر من مرة خلال القرن الثامن عشر[٢]، كما حاول بريمو دى ريفيرا Primo De Rivera [٣] فى عام ١٩٢٣ إقناع بريطانيا بالانسحاب منها على أن يتم استبدل مدينة سبته بها -على الساحل الأفريقى- غير أن لندن رفضت ذلك[٤].

وقد بدأ نمو قاعدة جبل طارق ببناء بريطانيا لقلعتين في الجزء الشمالي من منطقة البرزخ على أراضي تنازلت عنها اسبانيا فيما بين عامى (١٨١٥ - ١٨٥٤)، وفي عام ١٩٠٩، تم بناء سياج على الحافة الشمالية من النصف الجنوبي من البرزخ، حيث احتلت لندن دون سند قانوني حوالي ٨٥٠ مترا، وفي عام ١٩٣٤ بدأ بناء مهبط للطائرات، وبلغ اتساع القاعدة ذروته في عام ١٩٣٨ بتشييد المطار[٥] .

وقبل وصول الحرب العالمية الثانية إلى نهايتها كان هناك قبول بريطانى بأن العلاقات القائمة بين بريطانيا العظمى وإمبراطوريتها لا يمكنها الاستمرار على أسس وبرامج ما قبل الحرب[٦]. ولم تكن جبل طارق استثناءً فى ذلك الاتجاه، فتم إعلان التعديلات الدستورية الخاصة بالمستعمرة في ٢٩ ديسمبر ١٩٤٤ ، والتى نصت على أن يحكم جبل طارق، حاكم عام يعاونه مجلس تنفيذى ومجلس تشريعى، ويرأس الحاكم العام المجلس التشريعي المكون من خمسة أعضاء منتخبين وخمسة آخرين غير منتخبين بينهم ثلاثة موظفين رسميين واثنين معينين بواسطة الحاكم العام" [٧].

أما عن العلاقات البريطانية الاسبانية خلال فترة الحرب وأثرها على جبل طارق؛ فعلى الرغم من إعلان اسبانيا الحياد إلا أن حكومة الجنرال

فرانسيسكو فرانكو[٨] Francisco Franco لم تكن تتمتع بعطف كبير لدى اليسار البريطانى، ومن ثم كانت العلاقات عدائية خلال حكومات حزب العمال عن حكومات حزب المحافظين[٩]، فلم يغفر ذلك الحزب لفرانكو قيامه بحل النقابات العمالية وقضائه على العناصر الاشتراكية رغم أنها كانت تضم عناصر شيوعية[١٠].

وازداد تأزم الموقف بين بريطانيا واسبانيا عندما آزرت الأخيرة قوات المحور بطرق مختلفة، حيث فكر هتلر فى بعض مراحل الحرب المرور بقواته عبر اسبانيا إلى شمال أفريقيا، وأغرت الجنرال فرانكو قبول ذلك العرض محاولته استعادة جبل طارق وتوسيع المنطقة الاسبانية فى مراكش على حساب فرنسا، ولكن الحلفاء أحبطوا ذلك التدبير عندما سارعوا واحتلوا شمال أفريقيا[١١].

ثانيا : إثارة الأزمة فى عام ١٩٥٣

بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية حرصت بريطانيا على فرض عزلة دولية على اسبانيا؛ ولذلك عملت فى مؤتمر بوتسدام -يوليو عام ١٩٤٥- على استبعادها من هيئة الأمم المتحدة، ورغم أنها لم ترَ فائدة كبرى فى قرار المنظمة بسحب سفراء الدول من مدريد فى ديسمبر ١٩٤٦، إلا أنها بادرت بالموافقة عليه. وفى مايو عام ١٩٤٩ رفضت المشروع الذى تقدمت به دول أمريكا اللاتينية للأمم المتحدة والخاص باستعادة حرية تصرفها المطلقة فى علاقاتها الدبلوماسية مع اسبانيا، ولم يعد السفير البريطانى إلى مدريد إلا فى أوائل عام ١٩٥١[١٢].

خفف اشتعال الحرب الباردة من العداء تجاه إسبانيا فى الغرب الأوروبى، وعندما حاولت الولايات المتحدة الأمريكية مع بداية خمسينيات القرن العشرين ضم مدريد إلى حلف شمال الأطلنطى -لاستقطابها بعيدا عن الاتحاد السوفيتى، ولأهمية قواعدها العسكرية- حالت دون ذلك المعارضة البريطانية[١٣]، ومن ثم

جرت مفاوضات بين واشنطن ومدريد أسفرت عن توقيع وزير الخارجية الاسبانية، ألبرت مارتين ارتاخو Alberto Martin Artajo ، مع سفير الولايات المتحدة، جيمس دن James Dunn، في مدريد، ثلاث اتفاقيات ثنائية بين البلدين فى ٢٧ سبتمبر ١٩٥٣، نصت على بناء القواعد العسكرية واستخدامها من قبل واشنطن، فى مقابل تقديم المساعدة الاقتصادية والإمدادات العسكرية الأمريكية إلى اسبانيا[١٤].

وفى ٣٠ سبتمبر ١٩٥٣ أشاد الجنرال فرانكو أمام البرلمان الأسبانى بالاتفاقيات الأمريكية الاسبانية، ووصفها "بأهم إنجاز لسياستنا الخارجية المعاصرة"، مؤكدا أن اسبانيا -منذ الحرب الأهلية وخلال الحرب العالمية الثانية وبعدها- كانت الدولة الأوروبية الوحيدة التى تحذر باستمرار من خطر المد الشيوعي، مما أدى إلى عزلها عن التيار الرئيسي للحياة السياسية فى أوروبا[١٥].

من وقد ثارت مناقشات طويلة داخل البرلمان البريطانى – فى مجلس العموم خاصة- حول تأثير تلك الاتفاقيات [١٦] على العلاقات البريطانية الاسبانية؛ حيث أشار النائب إرنست دافيس Ernest Davies فى ١٣ مايو ١٩٥٣ إلى أنه "من المؤسف فى هذه المرحلة توصل الولايات المتحدة إلى اتفاق مع الجنرال فرانكو حول استخدام القواعد العسكرية والمطارات الاسبانية في مقابل توفير قدر معين المساعدات الاقتصادية، مما يعنى أن الشريك الرئيسي في حلف شمال الأطلنطى يتحالف مع نظام يعادى الديمقراطية بشكل كامل، وهذا يعنى تقويض الغرض الذى من أجله إنشاء الحلف...، رغم أن ديباجة معاهدة الحلف تنص على الحفاظ على الديمقراطية ودعمها في العالم الحر"[١٧].

ورغم إعلان الحكومة البريطانية تأييدها للمعاهدة الأمريكية الأسبانية حيث جاء على لسان ممثلها فى مجلس العموم فى ٨ يونيو ١٩٥٣ "أنها لا ترى بأسًا فيها ما دامت لا تمس النظام الذى يقوم عليه حلف الأطلنطى، ولا يمهد لدخول أسبانيا بنظامها الحالى فيه، ولا يمس وضع بريطانيا العظمى فى جبل

طارق"، ورغم ذلك حاولت لندن بشتى الطرق إحباط تلك المعاهدة[١٨]، حيث أشارت إلى "أن الدول الأوروبية الأعضاء في حلف شمال الأطلنطي لابد أن تتأثر بهذا الاتفاق العسكري المباشر والوثيق بين عضو بارز في التحالف وبلد قلق استراتيجيا"[١٩] .

وارجع البعض المعارضة البريطانية للمعاهدة الأمريكية الاسبانية إلى خوف بريطانيا على مركزها الاستراتيجي، باعتبارها الدولة الكبرى التى تحتل مركز الصدارة فى البحر المتوسط بفضل ما لها من قواعد تمتد ما بين جبل طارق وقناة السويس مارة بقبرص ومالطة، حيث تنطوي هذه المعاهدة علي تواجد الولايات المتحدة الأمريكية فى القواعد الأسبانية الجوية والبحرية مما يضعف المركز الاستراتيجي لجبل طارق - إلى حد ما- بالنسبة لحلف الأطلنطى، كما قد يجعل أسبانيا تصر على أن تتنازل لها بريطانيا عن جبل طارق، وقد تساعدها فى ذلك كل من الولايات المتحدة الأمريكية ودول حلف الناتو[٢٠].

ومن الجدير بالذكر أنه مع بداية عام ١٩٥٣ كان قد بدأ نقاش بين الإدارة والبرلمان البريطانى حول إعادة صياغة العلاقات مع اسبانيا على أسس جديدة تختلف عن تلك التى كانت سائدة خلال الفترة (١٩٤٥ – ١٩٥٢)؛ تقوم على التقارب وتنشيط العلاقات الاقتصادية مع مدريد، وقد عارض ذلك النائب إرنست دافيس الذى أشار إلى " أنه سيكون من المؤسف للغاية تغيير علاقاتنا مع نظام فرانكو على أسس تختلف عما هي عليه الآن، ومن المسلم به، أن العلاقات ليست مرضية في اتجاهات عديدة، ويرجع ذلك إلى إسبانيا نفسها وليس إلى خطأ من جانبنا"[٢١].

وأضاف النائب " أن هناك أسبابًا عديدة تدفعنا إلى رفض تغيير سياستنا تجاه مدريد منها: أن النظام الحاكم هناك قام على أسس فاشستية، ودعم خلال الحرب الأهلية من قبل ألمانيا النازية وإيطاليا الفاشية، وما زال فرانكو يصر على فرض الدولة البوليسية، ولا يسمح بالحرية السياسية، كما أنه لا يمكن قبول

عضوية إسبانيا في العالم الحر وهى ما تزال تمارس الاضطهاد الديني"[٢٢].

وطالب عدد آخر من النواب بتحسين العلاقات مع مدريد، حيث ألمح النائب McGovem .G إلى "أن هناك حكومات دكتاتورية أخرى تتعامل معها بريطانيا بشكل طبيعي؛ فلماذا التشدد فى التعامل مع حكومة فرانكو بالذات"، ودلل على ذلك بحكومتي ستالين –في الاتحاد السوفييتي– وتيتو– في يوغسلافيا– ، "فلماذا نختار دكتاتورًا بعينه للتشدد معه بينما نتودد إلى الآخرين، وهل تسعى بريطانيا لتغيير نمط الحكومات السابقة كما تتطلع لحدوث ذلك فى مدريد؟، وأنه من الأجدى والأنفع تحسين العلاقات مع مدريد حتى لا تقع فى براثن الشيوعية الدولية"[٢٣]، أما النائب ماكجفرن فأشار هو الآخر إلى أن ما يحدث في أسبانيا تحت حكم فرانكو يحدث أكثر منه ألف مرة فى الاتحاد السوفييتى والدول التى تقع تحت سيطرته فى أوروبا الشرقية[٢٤].

وتطرق عدد من أعضاء مجلس العموم إلى العلاقات الاقتصادية بين بريطانيا واسبانيا وخاصة مسألة بيع الأسلحة البريطانية إلى حكومة فرانكو حيث طالب بعض نواب حزب العمال بتشديد القيود – التى خففت أخيرا – على بيع الأسلحة لاسبانيا[٢٥]. فأشار النائب إرنست دافيس إلى " أنه أمر مثير للسخرية أن نضحي بمبادئنا الأخلاقية والسياسية من أجل بعض المكاسب الاقتصادية، ومما يجعل الأمر أكثر سخرية أن تلك المكاسب لا تكاد تذكر"[٢٦]، وتساءل البعض عما إذا كانت الحكومة لا تتوقع أن يقوم الأسبان بهجوم مسلح على جبل طارق[٢٧] .

وقد أكدت الحكومة البريطانية على لسان أنطوني ناتنج Anthony Nutting –وكيل وزارة الخارجية– "أن تلك الأسلحة دفاعية، وليست متقدمة تكنولوجيا، وأن الوضع أصبح يختلف عن عام ١٩٤٦؛ فقد أعادت معظم الدول الأوروبية علاقاتها الدبلوماسية مع اسبانيا، كما سمح لمدريد بالدخول إلى الوكالات المتخصصة فى الأمم المتحدة، مثل منظمة الأغذية والزراعة ومنظمة

الصحة العالمية ومنظمة اليونسكو، والحكومة الحالية تسعى إلى تطوير العلاقات الاقتصادية-وخاصة التجارية- مع اسبانيا التى تمتلك فائضًا لا بأس به من الجنية الإسترلينى ينفق فى العلاقات التجارية بين مدريد ودول الكومنولث، وإلى حد ما، بعض الدول الأوروبية، مما أدى إلى خلق صعوبات أمام تجارتنا مع اسبانيا"(٢٨).

وهكذا مع بداية عام ١٩٥٣ كانت هناك انفراجة نسبية فى العلاقات البريطانية الاسبانية خاصة على الصعيد الاقتصادى، وكان من المتوقع أن تتطور تلك العلاقات أكثر على الصعيد السياسى؛ غير أن مدريد فى ذلك الوقت شنت حملة نشطة للمطالبة باستعادة جبل طارق، وازداد الموقف اشتعالا مع الإعلان عن قيام الملكة إليزابيث الثانية Elizabeth II يرافقها زوجها الأمير فيليب -دوق أدنبرة- بزيارة عدد من مناطق الكومنولث المختلفة تنتهي بجبل طارق فى مايو ١٩٥٤؛ فتوترت العلاقات أكثر حتى كادت تحدث قطيعة دبلوماسية بينهما.

وقبل التطرق إلى تفاصيل تلك الأزمة يرى الباحث أنه من الأهمية تفسير لماذا اختارت الحكومة الاسبانية هذا التوقيت للمطالبة باسترداد منطقة جبل طارق؟؛ فقد ظلت مدريد نحو ٢٥٠ عاما لا تحرك ساكنا تجاه تلك القضية، بل لقد كان هناك -دائما- حضور دبلوماسي اسبانى خلال الزيارات الملكية السابقة إلى منطقة جبل طارق حتى الحرب الأهلية الاسبانية.

وقد رأى البعض أن هناك دوافع عديدة وراء إثارة مدريد لأزمة جبل طارق والمطالبة بها فى عام ١٩٥٣ منها: التدهور السياسى الذى أصاب بريطانيا فى أعقاب الحرب العالمية الثانية، وكسر العزلة الدولية المفروضة على اسبانيا عقب الحرب العالمية الثانية، خاصة مع السياسة الجديدة الناشطة التى انتهجتها مدريد فى علاقاتها الدولية والتى تم تتويجها بالمعاهدة الأمريكية الإسبانية فى ٢٧ سبتمبر ١٩٥٣، وكذا المفاوضات المصرية البريطانية حول

قناة السويس، وإعلان بريطانيا عزمها على ضم صخرة جبل طارق إليها نهائيا خلال الزيارة الملكية، وأخيرا توجيه الرأى العام الإسبانى نحو قضية وطنية لشغله عن الأوضاع الداخلية المتردية(٢٩). ويرى الباحث أن هناك أهمية كبرى لتحليل تلك الدوافع حتى يتسنى استخلاص الدافع أو الدوافع الحقيقية وراء إثارة تلك الأزمة من جانب الجنرال فرانكو.

الضعف البريطانى مثل أحد تلك الأسباب؛ فرغم خروج بريطانيا منتصرة فى الحرب العالمية الثانية غير أنها فقدت هيبتها، ولم تعد لها السلطة التي كانت تتمتع بها قبل الحرب، كما ضعفت كثيرا، صناعيا وتجاريا واقتصاديا، فتردت من قوة عالمية عظمى إلى قوة من الدرجة الثانية، وزاد من ضعفها المشاكل العديدة التى كان عليها مواجهتها فى جميع أرجاء إمبراطوريتها، نتيجة ازدياد الوعي القومي، حتى فى أكثر تلك المناطق تخلفا(٣٠).

ومثلت السياسة الجديدة التى انتهجتها مدريد مع بداية عام ١٩٥٢ - والتى قوامها الخروج من العزلة المفروضة عليها وتوثيق عرى العلاقات مع دول العالم المختلفة والذى بلغ ذروته بتوقيع المعاهدة الأمريكية الإسبانية - أحد تلك الدوافع (٣١)، حيث كان من نتائجها المباشرة القضاء على الضغوط الداخلية والخارجية على نظام فرانكو الذى ازداد ثقة بالنفس، حيث شعر بقوتها وبأهميتها الإستراتيجية للدول الغربية، واعتبر تلك المعاهدة أحد عوامل القوة لمطالبة اسبانيا باسترداد جبل طارق(٣٢) .

شجع الحكومة الاسبانية أيضا على المطالبة بجبل طارق المفاوضات البريطانية المصرية حول قاعدة قناة السويس؛ حيث رأت مدريد وجوه شبه كبيرة بين مشكلتى قناة السويس وجبل طارق (٣٣)، ومن ثم كانت تنتهز كل فرصة تثار فيها مشكلة القناة لإثارة موضوع جبل طارق، وهو ما فعله فرانكو فى ١٠ أغسطس ١٩٥٣ - عندما أدلى بتصريحات إلى مجلة أريبا "Arriba" قال فيها "إن سيادة مصر على القناة يجب أن لا تكون موضع شك أو بحث"(٣٤)،

ومما شجع مدريد أكثر على ذلك الدور الأمريكى الفعال فى مفاوضات الجلاء بين لندن والقاهرة[٣٥].

ومن تلك العوامل أيضا ما أشاعته بريطانيا عن عزمها على ضم صخرة جبل طارق إليها بصفه نهائية أثناء زيارة الملكة إليزابيث الثانية، بمناسبة الاحتفال بمرور ٢٥٠ عاما على احتلالها، حيث كانت هناك ترتيبات لإقامة احتفالات يتم خلالها افتتاح المجلس التشريعى للمستعمرة رسميا[٣٦] ، مما أوحى لمدريد –مع التأكيد على زيارة الملكة– بسعي لندن لضم المستعمرة إليها فعليا .

وقد رأت الحكومة البريطانية أن مدريد أثارت مشكلة جبل طارق، فى ذلك الوقت لصرف الرأى العام عن المشاكل الداخلية التي يعانيها المواطن الإسبانى –من كبت للحريات وتدهور اقتصادى– إلى مشكلة خارجية ذات دوافع وطنية [٣٧].

وبعد هذا العرض الموجز لمجموعة الدوافع وراء إثارة الجنرال فرانكو لمشكلة جبل طارق فى عام ١٩٥٣ يرى الباحث أنها جميعا كانت عوامل مساعدة شجعت وحفزت مدريد على إثارة المشكلة فى ذلك الوقت؛ غير أن الدافع الأول والسبب الحقيقى –ربما– يعود إلى محاولة الجنرال فرانكو صرف الرأى العام الإسبانى عن المشاكل الداخلية، حيث كان نظامه الفاشستى مهددا بالسقوط عقب الحرب العالمية الثانية؛ ولكن عدم توفيق، وتطرف الدول الغربية أسهم فى تجميع الرأى العام الداخلي حوله، والذي بلغ ذروته خلال الفترة (١٩٤٥ – ١٩٤٨)[٣٨].

ورغم الانهيار الذى أصاب الاقتصاد الإسبانى مع بدايات خمسينيات القرن العشرين؛ فقد كان النظام مدعوما من الجيش، والكنيسة الكاثوليكية، وكبار ملاك الأراضى، والأوساط الصناعية والمالية، وكذلك جمهور كبير من الحرفيين والتجار وصغار المقاولين، غير أنه مع مرور الوقت تراجع هذا الدعم نتيجة تغير الظروف الدولية وعودة العلاقات الخارجية؛ فتدهورت شعبية النظام

الذى ظهرت نقاط ضعفه خاصة الاقتصادية – التى تعتمد على سياسة الاكتفاء الذاتي والتي تتطلب تدخل الدولة على نطاق واسع– (٣٩).

وإذا كان حزب الفالانج (٤٠) Falange –الذى يعتمد على الشبيبة الاسبانية– أحد عوامل قوة النظام السياسى عقب الحرب الأهلية الاسبانية؛ فإن نفوذه كان قد بدأ فى التدهور مع عام ١٩٥١؛ خاصة مع ظهور حركات وجماعات طلابية داخل الجامعة وخارجها بعيدة عن سيطرته تطالب بالإصلاح وعودة الحريات السياسية (٤١).

ومع بداية خمسينيات القرن العشرين دفع تدهورُ شعبية النظام ومطالبة جميع الفئات بالإصلاح، الحكومةَ الاسبانية لتحاول الظهور بمظهر النظام السلطوي، المعاد للشيوعية، ولكنها غير فاشستية، ومشغولة فقط بعظمة اسبانيا وبمصير أبنائها(٤٢). ومن ثم يعتقد الباحث أن فتح ملف قضية جبل طارق كان أحد الحلول المطروحة أمام نظام الجنرال لفك طلاسم تدهور شعبيته.

وهكذا أصبحت قضية جبل طارق على جدول الأعمال بين لندن ومدريد مع بداية عام ١٩٥٣، حيث استغلت الأخيرة إضرابات العمال الأسبان العاملين فى جبل طارق للمطالبة بعودة المنطقة إلى البلد الأم ، وقد أشار البعض إلى أن تلك الإضرابات كانت من تدبير الحكومة الاسبانية، فقد ظل هؤلاء العمال لفترة طويلة يعملون لدى الشركات البريطانية دون تدخل من قبل مدريد للمطالبة بتحسين أوضاعهم .

بدأت الإضرابات العمالية بسبب تأخر الرواتب، وتطورت سريعا للمطالبة بتحسين أوضاع العمال الأسبان الاقتصادية والمعيشية، ومساواتهم بزملائهم من البريطانيين والفرنسيين(٤٣)؛ فمع بداية يناير ١٩٥٣ اضرب عمال شركتى جون هاوارد John Howard وهيل هيجز Hill Higgs – المتخصصتين فى بناء الأنفاق– ، واستمرت المفاوضات بين مندوبى العمال والشركتين بتدخل الحاكم العام البريطانى والقنصل الإسبانى فى جبل طارق

واتحاد العمال ومندوبي وزارة العمل والشئون الأجتماعية خلال الفترة (١٠-١٦) فبراير ١٩٥٣ ثم توقفت دون التوصل إلى حل مُرضٍ للطرفين [٤٤].

وفى ١٩ فبراير ١٩٥٣ دخل نحو ٣٠٠ عامل اسبانى من عمال شركتى جون هاوارد وهيل هيجز فى إضراب مفتوح حتى الاستجابة لمطالبهم، وتبع ذلك إضراب معظم العمال الأسبان فى باقي الشركات العاملة بجبل طارق، وقد هددت بعض الشركات بفصل العمال والاستغناء عنهم نهائيا إذا لم يعودوا إلى العمل فى موعد أقصاه ٢٣ فبراير ١٩٥٣، بل هددت بعضها بإطلاق النار على المضربين؛ فرفض العمال تلك التهديدات، وأكدوا على استمرارهم فى الإضراب حتى تنفيذ مطالبهم[٤٥] .

وتحول الأمر من قضية عمال مضربين إلى قضية وطنية عندما أعلنت الحكومة الاسبانية دعمها لقضيتهم أولا بتدخل القنصل الإسبانى فى الموقف، وثانيا بإعلان اتحاد نقابات العمال الأسبان تضامنه الكامل مع العمال المضربين فى ٢١ فبراير ١٩٥٣، ومن ثم جمعت إعانات مالية بلغت نحو مائة ألف بيزيتا اسبانية لكي ينفق منها العمال -خلال فترة إضرابهم- إلى أن يسوى النزاع بينهم وبين الشركات البريطانية، كما أصدرت النقابات الاسبانية المختلفة برقيات تتضامن فيها مع العمال فى نضالهم ضد الشركات البريطانية[٤٦]، وبعث الحاكم العام الإسبانى فى قادش Cádiz برسالة للعمال يبدى فيها عطف وعناية السلطات الأسبانية بقضيتهم[٤٧].

وتأزم الموقف عندما قامت سلطات جبل طارق البريطانية بإلقاء القبض على نحو ٦٠٠ من العمال الأسبان، وقامت بتأجيل زيارة الحاكم العام الإسبانى لمنطقة المغرب الاسبانية إلى جبل طارق والتى كان من المقرر لها بداية مارس ١٩٥٣ ، وعلى أثر ذلك راحت الصحف الأسبانية تهاجم بريطانيا، وأعادت فتح قضية السيادة على جبل طارق. وما لبثت الحملة أن ازدادت عنفا عندما أعلن مسئول فى حزب الفالانج انتظار الشبيبة الأسبانية الأمر للتوجه إلى جبل طارق

لاسترداده[٤٨] .

وفى ٢٥ فبراير ١٩٥٣ أصدرت سلطات جبل طارق البريطانية بيانًا رسميًا عن تطورات الموقف جاء فيه " لقد بدأ بناء عدد من الأنفاق من قبل شركة جون هاوارد منذ حوالى ثمانية أشهر، ومع بداية يناير ١٩٥٣ طلبت السلطات من الشركة تحسين ظروف العمل، وتقليص عدد الساعات، فقامت الشركة بتشكيل ثلاث ورديات للعمل بدلا من ورديتين، ومن ثم تقلصت ساعات العمل من اثنتى عشرة ساعة إلى ثمانى ساعات"[٤٩].

وأضاف البيان " ولم يلق التعديل استحسانًا من العمال؛ لأنه أدى إلى تخفيض الأجور، وطالبوا بالعودة إلى نظام الورديتين، وفى ٣٠ يناير ١٩٥٣ اضرب عدد منهم غير أن مطالبهم لم تكن مدعومة من قبل كل من اتحاد عمال جبل طارق – ومقره مدينة لا لينيا La Linea – أو القنصل الإسبانى، وبعد أربعة أيام تقدم العمال بطلبات جديدة...، واجتمع ممثلو كل من الشركة والعمال خلال يومي (١٠ ، ١١) فبراير ١٩٥٣ لمناقشة تلك الطلبات بحضور مندوبي وزارة العمل والرعاية الاجتماعية والقنصل الإسبانى ، غير أن المفاوضات فشلت بسبب الاختلاف بين العمال والشركة حول الأجور والتعويضات"[٥٠] .

وفى ٢٦ فبراير ١٩٥٣ أعلن معظم اتحادات العمال فى جميع أرجاء اسبانيا دعمه لعمال جبل طارق ضد الجبروت والظلم البريطانى، وانهالت برقيات الدعم من تلك الاتحادات على اتحاد عمال جبل طارق فى مدينة لا لينيا الاسبانية، فأرسل رئيس اتحاد عمال جزر الكناريا ببرقية يعلن فيها تضامنه الكامل مع قضية العمال، ورفض الاتحاد للمعاملة البريطانية دون الإنسانية للعمال ، أما رئيس اتحاد عمال المعادن Almadén, فقد بعث ببرقية يعرب فيها عن دعمه لقضية العمال "ويحيى فيهم الموقف الرجولى"[٥١] .

وعمدت بريطانيا إلى عدد من الإجراءات للتخفيف من حدة الحملات الاسبانية الموجهة ضدها، كان في مقدمتها: محاولة التفاهم مع العمال

المضربين؛ فبدأت المفاوضات من جديد بين ممثلي كل من العمال والشركات فى ١٠ مارس ١٩٥٣ برعاية الجنرال ماك ميلان Mac Millan ، الحاكم العام البريطانى، الذى وعد بحل الموقف، ومن ثم تعهد ممثلو العمال بالعودة إلى العمل[٥٢] ، وفى ١٦ مارس صدر بيان رسمي من قبل السلطات البريطانية بزيادة الأجور، وقبول معظم مطالب العمال، وجاء في ختام البيان " إن الحكومة البريطانية مهتمة بدراسة تدابير تشريعية من شأنها تحسين الظروف الحالية للعمال الأسبان الذين يدخلون الصخرة يوميا للعمل بها، كما أن حكومة صاحبة الجلالة الملكة ترغب فى معاملة العمال من جميع الجنسيات العاملين تحت سلطاتها بطريقة منصفة وعادلة " [٥٣] .

وقد أبدت الحكومة البريطانية رغبتها فى زيارة عدد من قطع الأسطول البريطاني للموانئ الأسبانية زيارة مجاملة؛ ولكن محاولة التقارب تلك ما لبثت أن فشلت بسبب التقارب البريطانى اليوغوسلافى، حيث أثارت زيارة المارشال تيتو إلى لندن فى ١٦ مارس ١٩٥٣ ثائرة مدريد[٥٤]؛ كما طرحت خلال مناقشات مجلس العموم فكرة توجيه دعوة رسمية أو غير رسمية إلى الجنرال فرانكو لزيارة لندن[٥٥]، وأخيرا تم التأكيد مرة أخرى من قبل الحكومة البريطانية على زيارة عدد من قطع الأسطول البريطانى للموانئ الاسبانية فى ربيع عام ١٩٥٤ تأكيد على العلاقات الطيبة بين البلدين [٥٦].

عقب تلك الأحداث أدركت بريطانيا أن الحكومة الاسبانية اكتسبت الثقة بنفسها بعد خروجها من العزلة خاصة مع توقيع المعاهدة الأمريكية الاسبانية، وأنها قد تثير لها فى المستقبل مشاكل عديدة، ومن ثم سعت إلى زعزعة تلك الثقة وإفساد العلاقات بين مدريد وواشنطن؛ فأوعزت إلى عملائها بإثارة ما اتفق عليه فى مؤتمر يالتا بشأن التنديد بنظام فرانكو وحرمانه من دخول هيئة الأمم المتحدة، بل العمل على تشجيع كل حركة انقلاب ضده، غير أن هذه المحاولة فشلت عندما أعلن إيزنهاور رفضه لكل الاتفاقات السرية التى عقدت فى "يالتا وبوتسدام"[٥٧].

وقد استغل الجنرال فرانكو الاستعدادات البريطانية الخاصة بالاحتفال بمرور ٢٥٠ عاما على احتلال جبل طارق وقام بتصعيد الموقف مع لندن عندما أدلى بتصريح إلي مدير جريدة "اريبا" "Arriba" الاسبانية فى الرابع من أغسطس ١٩٥٣ تناول فيه مشكلة جبل طارق، وقد تميز هذا التصريح بالشدة والعنف " إذ اتهم السياسة البريطانية بالدس وسوء النية والأنانية والروح الاستعمارية التي عفا عليها الزمن "، وبالتراجع عن وعد قطعته على نفسها – خلال الحرب العالمية الثانية– بتسليم الصخرة إلى اسبانيا(٥٨) .

وأشار الجنرال إلى أن مشكلة صخرة جبل طارق ترجع إلى تراخى الحكومات الاسبانية السابقة فى المطالبة بها، غير أن الوضع تغير تماما مع حرص الكتائب على استعادتها، فهي بمثابة خنجر فى ظهر اسبانيا، وعلى لندن أن تتخيل ماذا سيكون شعور الأمة البريطانية لو أن ميناء بورتسموث Portsmouth أو أى ميناء انجليزي آخر كان في أيدي الاتحاد السوفيتى، كما أن أهمية جبل طارق الإستراتيجية قد انتهت بالنسبة لحلف شمال الأطلنطى بسبب القواعد العسكرية الغربية المنتشرة فى شبه الجزيرة الأيبيرية، كما أن الحكومة الاسبانية لن تترك العمال الأسبان تحت رحمة وسيطرة الشركات البريطانية مرة أخرى(٥٩).

وأضاف فرانكو "أن بريطانيا وعدت فى مناسبتين على الأقل التخلي عن جبل طارق، أولهما من قبل دبلوماسي بريطاني إلى السفير الاسباني في عام ١٩٤٠. وأخراهما على لسان السير ونستون تشرشل فى العام التالي خلال حفل غداء بالسفارة الاسبانية"(٦٠)، وأنه إذا لم تتحقق الآمال الاسبانية باستعادة الصخرة، "فلا شك في أننا سنستخدم كل وسيلة لوضع حد لهذه الحالة، وعند ذلك ستدرك بريطانيا الخطأ التى تمادت فيه، وعندما تريد تصحيحه سيكون الأوان قد فات"(٦١).

وكشف فرانكو فى الجلسة الافتتاحية للبرلمان الإسبانى فى ١١ أغسطس

١٩٥٣ عن تفاصيل الوعد البريطاني إبان الحرب العالمية الثانية بمساعدة أسبانيا على حل مشكلاتها الخارجية، وعدم التعرض لها فى المحيط الدولى لتحتل مكانها باعتبارها دولة من دول البحر المتوسط [٦٢]، وفى حفل السفارة الأسبانية بلندن الذى حضره تشرشل -رئيس الوزراء حينئذ- وانطونى إيدن -وزير خارجيته- وصمويل هوار Samuel Hoare [٦٣] سفير بريطانيا فى أسبانيا ولورد هنرى كروفت Henry Croft -الوكيل البرلماني للوزارة الحربية- وغيرهم من الشخصيات البريطانية البارزة، والسفير الأمريكي بلندن، وأن هؤلاء جميعًا شهود على ما قاله تشرشل فى الاجتماع بأن بريطانيا لا تدين بفضل ما لفرنسا، وأن الحرب أضعفتها كما أضعفت ايطاليا، وهذا كله يفتح باب الأمل أمام أسبانيا لتكون دولة قوية من دول البحر المتوسط، وأن بريطانيا يسرها أن تنظر بعين العطف إلى مطالب أسبانيا فى مراكش.

وقد علق دى البا De Alba - السفير الأسبانى- على كلام تشرشل بأن المشكلة الأولى والأهم بالنسبة لأسبانيا هي مشكلة جبل طارق؛ فوعد تشرشل حينئذ بأن تنظر بريطانيا فى حل تلك المعضلة بصورة ودية ترضى أسبانيا[٦٤]، وكان الثمن الذي تطلبه لندن ودول الحلفاء مقابل تلك الوعود هو ألا تفتح مدريد الطريق أمام القوات الألمانية، حيث أكد تشرشل أن أسبانيا بعملها هذا ستؤدى خدمة كبرى للحلفاء قد تفوق اشتراكها فى الحرب فعليا[٦٥] .

ولم يكد نبأ ذلك الاستشهاد يصل إلى لندن حتى تصدى صمويل هوار بتكذيبه في رسالة بعث بها إلى جريدة التايمز نفى فيها حدوث الاجتماع وصدور تصريح بريطاني بالمعنى الذى أشار إليه فرانكو، فبادرت وزارة الخارجية الأسبانية بإذاعة بيان مفصل حول الظروف والملابسات التى اكتنفت الاجتماع وما سبقه وما تلاه من تصريحات للمسئولين البريطانيين في هذا الشأن، كما تضمن البيان نص البرقية التي بعث بها الدوق دى ألبا السفير الأسباني إلى وزير خارجيته[٦٦].

وفى ٣١ أكتوبر ١٩٥٣ أشار فرانكو – فى لقائه بشبيبة حزب الفالانج خلال الاحتفالات الوطنية الاسبانية – إلى أهمية استرداد الصخرة، وأكد على أن اسبانيا خرجت منتصرة من مؤامرة دولية لعزلها، "وأننا يجب أن نظل في حالة تأهب ويقظة "، وعقب ذلك اللقاء وبموافقة الحكومة خرجت مظاهرة حاشدة من شبيبة الفالانج طافت بالعاصمة مدريد – وكان يقودها رايموندو فيرنانديز كويستا Raimundo Fernández-Cuesta سكرتير عام الحزب– تطالب باسترداد جبل طارق(٦٧).

ولعل ما سبق يوضح أن الجنرال فرانكو استغل المظاهرات العمالية – وإن أشار البعض أنها كانت من تدبيره – لإثارة حملة نشطة للمطالبة باسترداد جبل طارق دون سابق إنذار فى وقت كانت فيه كل المؤشرات والدلائل تشير إلى تحسن ملحوظ فى العلاقات البريطانية الاسبانية. ويبدو أن لندن أصيبت بصدمة كبرى من جراء تلك الحملة الاسبانية؛ حيث كانت تعتقد أن مدريد لن تفكر فى المطالبة بجبال طارق لفترة طويلة لعدة أسباب منها: الضعف الاسباني الناتج عن الحرب الأهلية، والعزلة الدولية، وكذلك شكل نظام الحكم والمتمثل فى الديكتاتورية العسكرية والتى لا تتفق مع روح الديمقراطية السائدة فى أوروبا خلال مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية (٦٨).

ثالثا : أزمة زيارة الملكة إليزابيث الثانية لجبل طارق :

عقب وفاة الملك جورج السادس خلفته الملكة إليزابيث الثانية في الحكم حيث جرى تتويجها في الثاني من يونيو ١٩٥٣، وكان قد أعلن فى الأول من ابريل –من العام نفسه– عن قيامها برفقة زوجها الأمير فيليب دوق أدنبرة برحلة ملكية إلى مناطق الإمبراطورية المختلفة، وقد تضمن برنامج الرحلة المرور بجزر برمودا، وجامايكا وفيجي وتونجا ونيوزيلندا وأستراليا وأفريقيا ومالطة، والانتهاء بالمرور بجبل طارق فى طريق العودة إلى بريطانيا خلال يومى (١٠–١١) مايو ١٩٥٤(٦٩).

وقد استغلت الحكومة الاسبانية تلك الزيارة الملكية لإثارة موضوع جبل طارق، فقام الدوق ميجيل بريمو دي ريفيرا Miguel Primo de Rivera –السفير الأسبانى فى لندن– بلقاء وزير الخارجية البريطانية انطونى إيدن فى ١٢ يناير ١٩٥٤ وأبلغه "تحذيرا وديا" من قبل الحكومة الاسبانية حول الأثر غير الطيب الذى ستتركه رحلة الملكة فى نفوس الأسبان، وطالب بإلغائها [٧٠]، وقد رد إيدن بأن الحكومة البريطانية غير مستعدة لمناقشة ذلك الموضوع، وأنها لا تقبل بأي حال من الأحوال أن تملى عليها دولة أجنبية شروطًا بشأن زيارة جلالة الملكة إلى أي من أراضيها [٧١].

وفي ١٧ يناير ١٩٥٤ كشفت وزارة الخارجية البريطانية عن ذلك اللقاء؛ فصدر بيان عن وزارة الخارجية الاسبانية فى ١٩ يناير ١٩٥٤ يتهم لندن بأنها تعمدت إذاعة نبأ ذلك الاتصال مع أن الأمر لا يخرج عن كونه مسعى دبلوماسيا كان العرف يقضى ألا يذاع لاسيما وأن مدريد أرادت المحافظة على كرامة الملكة حتى لا تتعرض خلال زيارتها لمظاهرات عدائية يمكن تفاديها باستبعاد جبل طارق من برنامج الرحلة، كما تم الأمر بالنسبة لبعض ممتلكات التاج الأخرى[٧٢].

وأضاف البيان "أن الدوق دي ريفيرا عبر عن استياء الشعب الاسباني من إدراج حصن جبل طارق في خط سير الجولة الملكية" ، وألمح بأن هذا القرار جانبه الصواب، وسيوثر تأثيرًا سلبيًّا على العلاقات الأنجلواسبانية، وأنه لا محالة سيؤدى إلى تصاعد الاحتجاج الوطني من قبل الشعب الإسباني الذى ينظر إلى جبل طارق على أنها جزء لا يتجزأ من الأراضي الإسبانية، والذى لا يتخلى عن المطالبة بها"[٧٣].

وأكد البيان الإسبانى أن السفير أعرب أيضا عن رأي الحكومة الاسبانية فى عدم إدراج الحكومة البريطانية لعدد من مناطق الكومنولث – مثل جويانا البريطانية ، وقبرص، وغيرها من الأماكن – فى الجولة الملكية بسبب حساسية

الرأي العام للوجود البريطانى فى تلك المناطق، وأن ذلك من شأنه أيضا تبرير التخلي عن الزيارة المقترحة لجبل طارق، وأوضح البيان أنه تم الاتفاق على عدم نشر الموضوع الرئيسي للنقاش على الرأى العام [٧٤].

وقد نالت زيارة السفير الإسبانى للخارجية البريطانية اهتمام البرلمان البريطانى الذى طلب من وزارة الخارجية إيضاحا حول تلك الزيارة؛ فرد إيدن – وزير الخارجية – كتابيا على مجلس العموم فى ١٩ يناير ١٩٥٤ ليؤكد على أن الحكومة ليس لديها نية الموافقة على أي تغيير في وضع جبل طارق أو فتح نقاش حول هذا الموضوع مع أية دولة أجنبية [٧٥] .

ورغم ذلك فقد وجه كل من النائبان أ. هندرسون A. Henderson وإرنست دافيس سؤالا للحكومة البريطانية حول تلقيها اعتراضات رسمية من قبل الحكومة الإسبانية فيما يخص الزيارة الملكية المرتقبة إلى جبل طارق . فتولى سلوين لويد الرد عن الحكومة حيث أشار إلى " أن السفير الاسباني زار الخارجية البريطانية في ١٢ يناير ١٩٥٤، وابلغ ما وصفه بـ "تحذيرًا وديًّا" جاء فيه "أن زيارة الملكة إلى جبل طارق فى مايو القادم من شأنها إثارة الاستياء العام في اسبانيا "، وأضاف لويد " وقد أبلغه وزير الخارجية بأن الحكومة البريطانية ترفض مناقشة موضوع زيارة الملكة إلى أى من أراضيها مع أي دولة أجنبية"[٧٦].

أما النائب هندرسون فرغم تأكيده على دعم البرلمان للحكومة ضد أية ضغوط غير لائقة من قبل مدريد؛ إلا أنه طالب الحكومة باتخاذ الاحتياطات اللازمة فى ضوء ما سمِّى"بالتحذير الودي" من قبل الحكومة الاسبانية لمنعها من تنظيم مظاهرات معادية فى مستعمرة جبل طارق أثناء زيارة الملكة لها [٧٧].

بينما اتفق النائبان إرنست دافيس وباتريك ميتلاند Patrick Maitland على أن الزيارة التي قام بها السفير الاسباني إلى الخارجية البريطانية لا تثبت فقط فشل سياسة الحكومة تجاه إسبانيا فحسب بل ضعف الدبلوماسية البريطانية

فى منطقة البحر الأبيض المتوسطِ ككل مما أدى إلى توجيه تلك الإهانة إلى لندن من قبل مدريد [٧٨].

وأثناء لقاء الجنرال خوسيه كويستا مونيريو José Cuesta Monereo الحاكم العسكري الإسبانى لمنطقة جبل طارق، بالجنرال مـاك مـيلان، حـاكم الصخرة البريطاني، فى ٢٣ يناير ١٩٥٤ تطرق الحديث إلى زيـارة الملكـة؛ فأشار ميلان إلى أن الزيارة ليست رسمية، وهى ببساطة تحية من قبل الـسكان للملكة أثناء توقف اليخت الملكى للتزود بالمؤن والوقود فى طريق العودة إلـى بريطانيا، وفي ٢٣ فبراير من العام نفسه، بث راديو جبل طـارق بيانـًا عـن الزيارة غير أنه لم يصفها بأنها غير رسمية[٧٩] .

وقد حاولت الحكومة الاسبانية الاستعانة بالولايات المتحدة للضغط علـى لندن لصرف نظرها عن مرور الركب الملكى بجبل طارق، وأوضحت مدريـد لواشنطن مدى شعور العداء والغضب الذى تفيض بـه نفـوس الأسـبان، وأن الموقف قد يتطور تطورا سيئا، والمصلحة تقتضى أن تلغى الملكة تلك الزيارة، غير أن حكومة إيزنهاور رفضت التدخل فى الموقف بين حليفتيها، وأعلنت أن موضوع جبل طارق ما هو إلا شأن داخلي بين بريطانيا وأسبانيا[٨٠].

وعقب ذلك اشتعلت مظاهرات طلابية عنيفة ضد بريطانيا استمرت لمدة أسبوع فى جميع أرجاء اسبانيا، وكان يتزعمها حزب الفالانج [٨١]، وقـد بـرر الحزب تلك المظاهرات بأن لندن تعمدت -بسوء نية- إذاعة أنباء الاتصال الذى تم بين السفير الأسبانى ووزير الخارجية البريطانية لتزيد المشكلة اشتعالا، فـى الوقت الذى بدأ الخلاف يدب فيه بين اسبانيا وفرنسا [٨٢] حول مراكش[٨٣].

وقد بدأت المظاهرات فى مدينة غرناطة فى ٢١ ينـاير ١٩٥٤ حيـث تظاهر عدد كبير من الطلاب مطالبين بعودة جبل طارق إلى اسبانيا [٨٤]، وفـى اليوم التالي ماجت معظم المدن الاسبانية بمظاهرات معادية لبريطانيـا ؛ ففـي برشلونة حطم المتظاهرون نوافذ القنصلية البريطانية والمعهد البريطاني. وفـي

قرطبة، سار الطلاب في الشوارع مطالبين بإعادة جبل طارق إلى اسبانيا، في حين تحطمت نوافذ القنصلية البريطانية في غرناطة ونصب العلم الاسباني فوق المبنى(٨٥). واختصت مدريد بالاضطرابات الأكثر خطورة، فى ذلك اليوم، حيث خرج عدة آلاف من الطلاب يقودهم حزب الفالانج حاملين الأعلام الإسبانية، وتظاهروا خارج السفارة البريطانية وحطموا نوافذها قبل أن تفرقهم الشرطة(٨٦).

ويبدو أن إعلان الحكومة الأمريكية الحياد فى أزمة جبل طارق شجع مدريد على الاستمرار فى إشعال الموقف خاصة مع إعلان جون فوستر دالاس فى مؤتمر صحفي عُقِدَ بواشنطن فى ٢٤ يناير ١٩٥٤، "أن الولايات المتحدة فى موقف دقيق إزاء حليفتيها، ولذلك ترى أن موضوع جبل طارق ما هو إلا شأن داخلي بين بريطانيا وأسبانيا" (٨٧)، فلم تطلب واشنطن من اسبانيا ضبط النفس أو السيطرة على المظاهرات بل لقد فهمت مدريد أن واشنطن تميل إلى جانبها، ومن ثم اشتعل الموقف أكثر.

واشتعلت مظاهرة ثانية بمدريد فى ٢٥ يناير ١٩٥٤ كانت أكثر عنفا من السابقة احتشد خلالها نحو ٣٠٠٠٠ طالب، ورغم التواجد المكثف لرجال الشرطة لحماية السفارة البريطانية؛ فقد اعتدى المتظاهرون على السفارة والبنك البريطاني المجاور لها، واضطرت الشرطة لاستخدام الخراطيش والهراوات لتفريقهم، وأدى ذلك إلى إصابة نحو ٣٠ متظاهرًا و ١٨ فردًا من عناصر الشرطة، كما تم اعتقال عدد من المتظاهرين، وخلال تلك التظاهرات رددت الشعارات المعادية لبريطانيا والمطالبة بعودة جبل طارق إلى اسبانيا(٨٨).

وفى اشبيلية – فى اليوم نفسه – تظاهر نحو ٣٠٠٠ طالب وطالبة، قذفوا خلالها القنصلية البريطانية بالبرتقال وهم يرددون، " فرانكو فرانكو نريد جبل طارق"، وفى اليوم التالي – ٢٦ يناير ١٩٥٤ – خفت حدة المظاهرات بعض الشيء حيث اشتعلت فقط فى مدينة فالنسيا Valenci ، وكانت ترفع الشعارات السابقة نفسها(٨٩).

وردا على تلك المظاهرات قدمت الحكومة البريطانية عن طريق سفيرها فى مدريد السير جون بلفور John Balfour احتجاجين شديدي اللهجة إلى الحكومة الاسبانية حول الأضرار التى أصابت الممتلكات البريطانية، وحملت مدريد مسئولية حماية الرعايا والممتلكات البريطانية فى اسبانيا(٩٠) .

وطرحت حول تلك المظاهرات عدد من الأسئلة داخل البرلمان البريطانى؛ فوجه النائب إرنست دافيس فى ١٥ فبراير ١٩٥٤ سؤلا إلى وزير الدولة سلوين لويد جاء فيه "هل تلقت حكومة صاحبة الجلالة ردا من الحكومة الاسبانية على الاحتجاجات التى قدمت عن طريق السفير البريطانى حول المظاهرات الأخيرة المناهضة لبريطانيا في مناطق مختلفة من اسبانيا. فرد وزير الدولة بأن السفير البريطانى في مدريد تلقى مؤخرا رسالة من وزير الخارجية الإسبانية أكد فيها على أن السلطات الاسبانية اتخذت تدابير فعالة لضمان النظام العام وحماية الممتلكات البريطانية، وأكد أيضا أسف الحكومة الاسبانية حول الأضرار الطفيفة التى وقعت" ، فعلق دافيس " إن السبب الرئيس فى الموجة المثارة الآن للمطالبة بجبل طارق من قبل اسبانيا يرجع فى المقام الأول إلى سياسة الحكومة الحالية القائمة على استرضاء فرانكو بدلا من اتخاذ إجراءات قوية تجاهه " (٩١) .

وأكدت المصادر المختلفة على أن الحكومة الاسبانية نظرت إلى تلك المظاهرات بشيء من الارتياح، وأن فرانكو يستخدم مشكلة جبل طارق، لصرف الرأى العام عن المشاكل الداخلية التي يعانيها، وردا على ذلك شنت الصحف البريطانية هجمات عنيفة نددت خلالها بحكومة فرانكو، وأشارت بعض الصحف الأخرى إلى الرخاء الذى تدره منطقة جبل طارق على السكان الأسبان القاطنين حولها، وأن حوالى ٤٠ ألف أسبانى يعيشون على التعامل أو العمل فى جبل طارق، ورأت غيرها أن فرانكو قد ازداد ثقة بالنفس بعد عقده للمعاهدة الأمريكية الاسبانية، ولذلك فهو يثير المشاكل لبريطانيا فى جبل طارق من ناحية ولفرنسا فى مراكش من ناحية أخرى(٩٢).

وأصدرت الحكومة الإسبانية في ٢٨ يناير ١٩٥٤ بيانًا جاء فيه "إن المظاهرات التي جرت كانت في البداية من وحي مدريد لدوافع وطنية عليا، ولكنها أدت إلى الحوادث المؤلمة التي استنكرها الجميع"، وأضاف البيان " أنه يجري التحقيق فى ملابسات الحادث للوقوف على الحقائق، وتحديد على من تقع مسئولية أعمال الشغب، ولكن من الواضح.. أن هناك عناصر دخيلة اختلطت بالطلبة بهدف إفشال نواياهم النبيلة"(٩٣).

حمل البيان الإسبانى شيئًا من الصلف، وربما يعود ذلك إلى الموقف الأمريكى السابق الذى دعمه تصريح جديد لويلسون –وزير الدفاع الأمريكى– أثناء زيارته للندن فى ٢٨ يناير ١٩٥٤م، – والذي قال فيه " إن وجود قواعد حربية فى دولة أجنبية يستلزم ضرورة التعاون بين الطرفين"، وأن توافر حسن النية هو كل شيء في هذه الأحوال "– لقد شجعت تلك الكلمات مدريد على المضي قدما في تصعيد مشكلة جبل طارق، ولم تحاول الاعتذار عما أصاب المنشآت البريطانية من اعتداء، حيث رأى فرانكو أن الولايات المتحدة لن تخاطر، باتخاذ موقف معاد له أو حتى موقف فيه بعض الميل نحو حليفتها الكبرى بريطانيا، لما فى ذلك من تهديد مباشر وخطير لمستقبل قواعدها فى أسبانيا(٩٤) .

وردا على البيان الإسبانى أعلنت هيئة أركان البحرية البريطانية فى ٢٨ يناير ١٩٥٤ إلغاء زيارات بعض وحداتها البحرية، التى كان من المقرر تنفيذها في ربيع ١٩٥٤، إلى الموانئ الإسبانية، وفى الوقت نفسه أكدت الحكومة البريطانية على استمرار خطط زيارة الملكة إلى جبل طارق دون تغيير(٩٥).

وتطرق البرلمان البريطانى إلى موضوع الزيارة الملكية لمنطقة جبل طارق حيث طلب النائب فليتشر E. Fletcher من وزير الدولة للشئون الخارجية فى ٨ فبراير ١٩٥٤ توضيح هل جرت مباحثات بين حكومة جلالة الملكة والحكومة الإسبانية فيما يتعلق بالزيارة الملكية المرتقبة للملكة إلى جبل

طارق. فكان جواب وزير الدولة سلوين لويد بأنه لم يتم شيء بهذا الخصوص(٩٦) .

وقد مثلت القنصلية الاسبانية فى جبل طارق إشكالية لحكومة مدريد؛ فكيف ترفض زيارة الملكة للمستعمرة ويكون القنصل الإسبانى هناك فى استقبالها؟، وكيف يرفع العلم الإسبانى على القنصلية تحية للملكة؟، ومن ثم اتخذ مجلس الوزراء الإسبانى قرارا فى ٩ ابريل ١٩٥٤ بإغلاق القنصلية نهائيا فى جبل طارق (٩٧)، والذى نفذ في الأول من مايو ١٩٥٤، وكان السبب المعلن لذلك القرار هو أن حجم التعاملات التجارية بين اسبانيا وجبل طارق لم يعد مبرر للاحتفاظ بها(٩٨).

وفى ٧ مايو ١٩٥٤ كشفت سلطات جبل طارق البريطانية عن مؤامرة دبرها عدد من أنصار اسبانيا بالمستعمرة تهدف إلى ارتكاب عدد من الأعمال التخريبية خلال زيارة الملكة، منها : تفجير أحد الأنفاق، التي تشيدها هيئة أركان البحرية فى الجزيرة، بالإضافة إلى عدد من مخازن النفط وعدد من حظائر الدبابات، وأنه تم القبض على عدد من الأشخاص المتورطين في تلك المؤامرة(٩٩).

وعلى أثر ذلك اتخذت عدة إجراءات أمنية منها : خضوع جميع العمال الأسبان -الذين يعبرون يوميا الحدود للعمل في جبل طارق والبالغ عددهم نحو ١٢٠٠٠ عامل – لفحص دقيق ومستفيض لوثائقهم، كما لم تصدر السلطات أية تصاريح للدخول أو خروج من المستعمرة قبل موعد الزيارة الملكية بيومين، ولم يسمح لأولئك الذين دخلوا المستعمرة، من العمال الأسبان -سواء عمال الفنادق أو أولئك الذين يعملون في الخدمات العامة الأساسية- بالعودة حتى مغادرة الركب الملكي لجبل طارق(١٠٠) .

وفى العاشر من مايو ١٩٥٤ وصلت الملكة يرافقها دوق ادنبره إلى جبل طارق في زيارة استغرقت يوما واحد، افتتحت خلاله رسميا المجلس التنفيذي

والمجلس التشريعي لسكان جبل طارق [١٠١]. وعقب ذلك وضعت السلطات الاسبانية خطة طويلة الأجل لعزل الصخرة وعرقلة الحياة الاقتصادية بها . فقامت بإغلاق الحدود بين اسبانيا والصخرة غير أنها استمرت فى فتحها أمام العمال[١٠٢]، إلا أنها انتهجت سياسة قوامها تقليص عددهم تدريجيا، وإن كان بشكل غير ملحوظ، حيث لم تكن تسمح بتجديد تصاريح العمل المنتهية[١٠٣].

وفى ١٦ مايو ١٩٥٤ أشار الجنرال فرانكو فى مقال لجريدة أريبا Arriba إلى أن زيارة الملكة إليزابيث إلى جبل طارق أضافت توترا جديدا فى العلاقات الإسبانيةِ البريطانية، غير أنها وحدت الأسبان على قرار واحد "بأنه لا يجوز استمرار معيشة جبل طارق على حساب أسبانيا، ومن ثم سيتم القضاء نهائيا على عمليات التهريب، " ولن تصبح المنطقة الاسبانية المحيطة بالمستعمرة مرة أخرى مسرحا لاستجمام وعربدة الجند البريطاني" . وأشار فى نهاية حديثه إلى التعهد البريطانى أثناء الحرب العالمية الثانية بعودة قلعة جبل طارق إلى اسبانيا فى مقابل الحياد فى الحرب [١٠٤] .

وقد أثيرت داخل البرلمان البريطانى فى ٢٠ مايو ١٩٥٤ عدد من الاستجوابات لرئيس مجلس الوزراء حول تلك التصريحات حيث طلب كل من إرنست دافيس و غ. Jeger من تشرشل –رئيس الوزراء – توضيح ظرف محاولة حكومته التنازل عن جبل طارق إلى اسبانيا في مقابل مساعدة الأخيرة لها في الحرب العالمية الثانية، وما هي الشروط التي تضمنتها تلك الوعود[١٠٥]. فكان جواب تشرشل بأنه لم تقدم أية وعود لمدريد للتنازل عن جبل طارق خلال الحرب[١٠٦].

وعندما تساءل إرنست دافيس " لماذا لم تتخذ الخطوات اللازمة لإعطاء تعليمات إلى سفيرنا في مدريد للاعتراض على تصريحات الجنرال فرانكو لجريدة "أريبا" غير الدقيقة، وتشويه التاريخ " . فرد رئيس الوزراء "لقد رأيت تلك المقالة، ولكن الحقيقة كما جاء في جوابي". وعند ذلك سأل أ. هندرسون

رئيس مجلس الوزراء إذا كان من الممكن عـرض الـنص الكامـل للمـذكرة المؤرخة في ٢٦ يونيو ١٩٤٠ على البرلمان البريطاني، والتي بعث بها وزيـر الدولة للشئون الخارجية إلى رئاسة الوزراء فيما يتعلق بمركز جبل طارق(١٠٧).

وتطرق تشرشل فى رده على السؤال السابق إلى كيفية صياغة مـذكرة وزارة الخارجية " بأنه أثناء الحرب تمت الإشارة إلى الموقف الإيجابى لإسبانيا في البحر الأبيض المتوسطِ، وتم توزيع مذكرة رسميةٍ بين الإدارات المختلفة في يونيو ١٩٤٠ لتقرير سياسة الحكومةَ تجاه إسبانيا لإعْطـاء رد حاسـم حـول الإدّعاءاتِ الإسبانيةِ فى جبل طارق، وقد قررت مذكرة وزارة الخارجية فى ٢٦ يونيو ١٩٤٠ أنه يُمْكِنُ إخبار الأسبان بأَن بريطانيا مستعدّة بعد الحربِ لمناقـشة المسائل ذات الاهتمام المشترك بين البلدين". وأضاف تـشرشل وقـد قـررت الخارجية وبشكل حاسم، "أن يَحْذفَ من هذا العرضِ أية إشارة محـددة حـول منطقة صخرة جبل طارق"(١٠٨).

وفى ٢١ مايو ١٩٥٤ أصدرت وزارة الخارجية الاسبانية بيانًا أشـارت فيه إلى أن الحكومة البريطانية أكدت فى مناسبات عديدة خلال الفترة (١٩٤٠-١٩٤٢) موافقتها على إعادة جبل طارق إلى اسبانيا منها: مذكرة تشرشل فـي ٢٦ يونيو ١٩٤٠ إلى وزارةِ الخارجية الإسبانيةِ، والمرة الثانية كانـت وعـدًا واضحًا ومؤكّدًا إلى السفيرِ الإسباني في لندن مِن قِبلِ سكرتيرِ اللجنة البرلمانيـة للشئون الخارجيةِ "النظر لاحقًا في كُلِّ مشاكلنا وتطلّعاتنـا، بمـا ذلـك جبـل طارقِ"(١٠٩).

أما المرة الثالثة فكانت أثناء المحادثات غير الرسمية التى جـرت بـين وزيرِ المستعمرات البريطانيِ والسفيرِ الإسبانيِ في ١٤ سبتمبر ١٩٤٠ والـذي أشار فيها الوزير إلى أنه حَثَّ رئيسَ الوزراء مرارًا وتكـرارًا لتَبنّـي سياسـة تَحريض إسبانيا على احتلال المغرب الفرنسي؛ والمرة الرابعـة فـي خطـاب لتَشرشِلِ في جلسة سرية لمجلس العمومِ في ٩ أكتوبر ١٩٤٠، التي أشارَ فيهـا

إلى رغبةِ بريطانيا فى أن تحتل إسبانيا في المستقبلِ مكانهــا الــشرعيِ كقــوّة عظمى فى البحر الأبيض المتوسطِ؛ والمرة الخامسة وعد مِن قِبل تَشرشِل إلــى السفيرِ الإسبانى فى ٢ أكتوبر ١٩٤١ "بأنَّ بريطانيا بعــد الحــربِ ســتمارس ضغوطًا قويَةً على فرنسا لتحقيق المطالب المشروعةَ لإسبانيا في شمال أفريقيا"، والمرة السادسة بيان فى ٢٦ نوفمبر ١٩٤٢ من قبل تَشرشِل ذكر فيه "أنَّ فرنسا وإيطاليا أضعفتهما الحربِ، وهذا يفتح باب الأمل أمام أسبانيا لتحل محلهما"(١١٠).

وفى ٢٦ مايو ١٩٥٤ أعلنَت السلطات البريطانية إغلاق صــخرة جبــل طارق أمام السياحة الأسبانية، غير أن هذا الإجراء لم يُؤثر على العُمالِ الأسبان في المستعمرة (١١١). والملاحظ أن العلاقات سرعان ما تحسنت ســريعا عقــب زيارة الأميرة مارجريت Margaret فى نهاية سبتمبر إلى مدريد ، حيث قامــت فى ٢٨ سبتمبر ١٩٥٤ بتفقد فيلق التمريض النسائى التابع للجيش الملكــي فــى جبل طارق، ثم قامت بزيارة السفارة البريطانية فــي مدريــد. والملاحــظ أن الصحافة الإسبانية لم تعلق على تلك الزيارة، وكان ذلك مؤشــرا علــى تهدئــة الحكومة الاسبانية للموقف (١١٢).

ويبدو أن الجنرال فرانكو أدرك أن الأزمة المثارة قد استنفذت أغراضها، كما أدرك صعوبة الاعتماد على الدعم الأمريكى فى المطالبة بجبل طارق خلال تلك الفترة، فالولايات المتحدة لن تضحى بحليفتها الأولى من أجل اسبانيا؛ خاصة أنها منذ بداية خمسينيات القرن العشرين كانت تسعى إلى إيجاد آلية للدفاع عــن غرب أوروبا (١١٣) ضد الهجوم المحتمل من قبل القوات السوفيتية فى وقت كان فيه حلف الأطلنطى ما زال فى طور النشأة، واعتمدت على لندن فى ذلك(١١٤). ومن ثم أعلنت واشنطن أكثر من مرة حيادها فى مشكلة جبل طارق حتى لا تثير بريطانيا، ومن ثم تنسحب الأخيرة من مشروع الدفاع الأوروبى مما يؤدى إلــى فشله.

ومع غياب الدعم الأمريكى واستنفاد أزمة جبل طارق لإغراضها –فــى ذلك الوقت– من وجهة نظر فرانكو؛ فقد كان عليه التخفيف من حدة التوتر مــع

بريطانيا، ومن ثم تصدرت الصحف المطبوعة في مدريد فى الخامس من ديسمبر ١٩٥٤ فى مقابلة صحفية معه قال "ونحن نعتقد أن جبل طارق هو خطاب ائتمان حقيقي وثابت، ولكن قد يتم تأخير سداده بعض الوقت، ولكن في النهاية سيتم تحريرها"(١١٥).

وهكذا أغلق الجنرال فرانكو أزمة استمرت نحو عامين أدت إلى توتر حاد فى العلاقات البريطانية الاسبانية، وقد بدأتها مدريد بتصعيد مطالب العمال الأسبان فى جبل طارق فى فبراير ١٩٥٣ ، وتطور الموقف إلى المطالبة بالمستعمرة البريطانية، ثم اشتعل الموقف أكثر بالاعتراض الإسبانى على زيارة الملكة إليزابيث الثانية للمستعمرة خلال الفترة (يناير – مايو) ١٩٥٤، ثم قامت مدريد مرة أخرى بإغلاق ملف الصخرة فى ديسمبر ١٩٥٤ إلى حين، حيث ستقوم بإثارتها مرة أخرى فى عام ١٩٥٦ .

الخاتمة

خرجت هذه الدراسة بعدد من النتائج، أهمها :

- يؤرخ عام ١٩٥٣ لأول محاولة جادة – فى التاريخ المعاصر– من قبل اسبانيا للمطالبة بصخرة جبل طارق، فمنذ نهاية القرن الثامن عشر لم تطالب الحكومات الاسبانية المتعاقبة بخروج بريطانيا العظمى منها إلا فى عام ١٩٢٣ عندما حاول بريمو دى ريفيرا إقناع لندن بالانسحاب منها على أن يتم استبدال مدينة سبته بها، كما أثارها الجنرال فرانكو خلال الحرب العالمية الثانية .

- تدهور العلاقات البريطانية الاسبانية منذ نهاية الحرب الأهلية الاسبانية فى عام ١٩٣٩؛ ورغم إعلان اسبانيا الحياد فى الحرب العالمية الثانية، إلا أن حكومة الجنرال فرانكو لم تكن تتمتع بعطف كبير لدى اليسار البريطانى، وازداد تأزم العلاقات عندما آزرت اسبانيا قوات المحور بطرق مختلفة، ولذلك حرصت بريطانيا على فرض عزلة دولية عليها استمرت حتى أوائل

عام ١٩٥١، غير أن الحرب الباردة خففت من العداء تجاهها ومن ثم حاولت الولايات المتحدة الأمريكية ضمها إلى حلف شمال الأطلنطى، ولكن حال دون ذلك المعارضة البريطانية، ومن ثم جرت مفاوضات بين واشنطن ومدريد أسفرت عن توقيع المعاهدة الأمريكية الاسبانية فى ٢٧ سبتمبر ١٩٥٣ .

- أنه مع بداية عام ١٩٥٣ كانت هناك انفراجة نسبية فى العلاقات بين لندن ومدريد خاصة على الصعيد الاقتصادي، وكان من المتوقع أن تتطور تلك العلاقات على الصعيد السياسى؛ غير أن مدريد فى ذلك الوقت شنت حملة نشطة للمطالبة باستعادة جبل طارق استمرت حتى نهاية عام ١٩٥٤.
- دلت الدراسة على أن هناك دوافع عديدة وراء إثارة مدريد لأزمة جبل طارق والمطالبة بها فى عام ١٩٥٣ غير أن الدافع الأول والسبب الحقيقى يعود إلى محاولة الجنرال فرانكو صرف الرأى العام الإسبانى عن المشاكل الداخلية، فمع بداية خمسينيات القرن العشرين تدهورت شعبية النظام وطالبت جميع طوائف المجتمع بالإصلاح، مما دفع الحكومة الاسبانية لتحاول الظهور بمظهر النظام الذى يبحث عن عظمة اسبانيا. ومن ثم كان فتح ملف قضية جبل طارق أحد الحلول المطروحة أمام نظام الجنرال لفك طلاسم تدهور شعبيته.
- أكدت الدراسة أن لندن أصيبت بصدمة كبرى من جراء الحملة الاسبانية للمطالبة بجبل طارق؛ حيث كانت تعتقد أن مدريد لن تفكر فى المطالبة بجبل طارق لفترة طويلة لعدة أسباب منها: الضعف الاسباني الناتج عن الحرب الأهلية، والعزلة الدولية، وكذلك شكل نظام الحكم والمتمثل فى الديكتاتورية العسكرية والتى لا تتفق مع روح الديمقراطية السائدة فى أوروبا خلال مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية.
- كشفت الدراسة عن الوسائل والأدوات التى استخدمها الجنرال فرانكو

للضغط على بريطانيا للتخلى عن مستعمرة جبل طارق: منها إثارة المظاهرات العمالية مع بداية عام ١٩٥٣ داخل الصخرة، كما استخدم الإعلام والسلك الدبلوماسى الإسبانى، وتنظيم المظاهرات فى المدن الاسبانية المختلفة، للمطالبة بالصخرة والاعتراض على زيارة الملكة إليزابيث الثانية إلى جبل طارق فى مايو ١٩٥٤؛ وأخيرا حاولت الحكومة الاسبانية الاستعانة بالولايات المتحدة للضغط على لندن للانسحاب من جبل طارق خاصة مع عقد المعاهدة الأمريكية الاسبانية؛ غير أن حكومة إيزنهاور أعلنت أكثر من مرة حيادها، وأن جبل طارق ما هو إلا شأن داخلي بين بريطانيا وأسبانيا.

- أثبتت الدراسة الاختلاف بين الحكومة والبرلمان البريطانى فى التعامل مع الأزمة؛ فقد استخدمت حكومة تشرشل طرق شتى للتعامل مع فرانكو منها: المناورة ، والتعامل برفق وتنشيط العلاقات الاقتصادية وزيارة بعض قطع الأسطول إلى الموانئ الاسبانية، والإيقاع بين واشنطن ومدريد، كما استخدمت الدبلوماسية، وأخيرا هددت بقطع العلاقات مع اسبانيا. أما البرلمان البريطانى؛ فعلى الرغم من تأييد عدد من أعضاء مجلس العموم للحكومة؛ إلا أن الغالبية كانت تطالب بالتعامل بشدة مع فرانكو، وأرجعت مطالبة مدريد بمستعمرة جبل طارق إلى ضعف حكومة تشرشل وتساهلها فى التعامل مع مدريد.

- مع غياب الدعم الأمريكى واستنفاد أزمة جبل طارق لإغراضها -فى ذلك الوقت- كان على الحكومة الاسبانية التخفيف من حدة التوتر مع بريطانيا خاصة مع توتر العلاقات الاسبانية الفرنسية، ومن ثم أغلق الجنرال فرانكو فى الخامس من ديسمبر ١٩٥٤ أزمة المطالبة بعودة الصخرة إلى حين، حيث سيقوم بإثارتها مرة أخرى فى عام ١٩٥٦ .

هوامش الدراسة

(١) جبل طارق مستعمرة بريطانية على الشاطئ الجنوبي لإسبانيا تبلغ مساحتها نحو ٦كم٢، وهى ذات أهمية عسكرية، بسبب موقعها الجغرافي المشرف على مضيق جبل طارق. وقد خضعت المنطقة للحكم العربي منذ الفتح الإسلامي لبلاد الأندلس، إلى أن سقطت في يد الإسبان عام ١٤٦٢م، واستولت عليها بريطانيا فى عام ١٧٠٤، وقد فكرت لندن في عام ١٩٦٤، منحها الاستقلال، فاعترضت مدريد على ذلك وطالبت بإعادتها إليها، وقد أيدتها الأمم المتحدة عام ١٩٦٥ فى ذلك، فقامت بريطانيا بإجراء استفتاء بين السكان، جاء فى صالح استمرار السيطرة البريطانية، فقامت إسبانيا بإغلاق حدودها مع جبل طارق عام ١٩٦٩، لكنها عادت وفتحتها عام ١٩٨٥، ولا يزال الخلاف قائماً عليها بين الدولتين. هيئة الموسوعة العربية: الموسوعة العربية: المجلد السابع ، دمشق ، ص ٤٧٤ .

(٢) فشلت القوات الاسبانية خلال القرن الثامن عشر مرتان - الأولى عام ١٧٢٧ والأخيرة خلال (١٧٧٩- ١٧٨٣) - فى استعادة جبل طارق ومنذ ذلك الحين رسخ فى الأذهان أن صخرة جبل طارق حصن منيع لا يقهر. محمد رفعت : تاريخ حوض البحر المتوسط وتياراته السياسية ، لجنة البيان العربى، القاهرة ، ١٩٤٩ ، ص ٨٨ .

(٣) قائد عسكري إسباني (١٨٧٠ - ١٩٣٠) تخرج فى أكاديمية طليطلة Toledo العسكرية عام ١٨٨٨، وفى عام ١٩٢٣ قاد انقلاباً عسكرياً، وغدا حاكماً دكتاتورياً على اسبانيا حتى عام ١٩٣٠، إلا أن سوء الأوضاع المالية، وتخلي الجيش عن مساندته وفقدان الثقة بحكومته، أرغمه على تقديم استقالته، وما لبث أن توفي في باريس عام ١٩٣٠. هيئة الموسوعة العربية: الموسوعة العربية: المجلد الخامس، ص ٧٩ .

(٤) محمد رفعت : المرجع السابق ، ص ص ٨٨ - ٩٢ .

(5) OfIcina De Asuntos De Gibraltar: La cuesti La Cuestión De Gibraltar, Direccion General De Politica Exterior Para Europa Y America Del Norte, Madrid, 2008, p. 10.

(٦) دار الوثائق القومية بالقاهرة : الأرشيف السرى الجديد لوزارة الخارجية المصرية ، محفظة ٥٩٥ ، ملف ١/٧/٢٠٠ جـ٤، تقرير رقم ١٢ ، من السفير المصرى بواشنطن إلى وكيل وزارة الخارجية ، ٢٩ يناير ١٩٥٤ .

(٧) دار الوثائق القومية بالقاهرة : الأرشيف السرى الجديد لوزارة الخارجية المصرية، محفظة ٥٩٥ ، ملف ١/٧/٢٠٠جـ٤، تقرير رقم ١٢ ، من السفير المصرى بواشنطن إلى وكيل وزارة الخارجية، ٢٩ يناير ١٩٥٤ .

(٨) فرانسيسكو فرانكو(٤ ديسمبر ١٨٩٢ - ٢٠ نوفمبر ١٩٧٥)، قاد انقلابا عسكريا ضد حكم الجبهة الشعبية الذي كانت تحكم إسبانيا والمكونة من حكم الديمقراطيين والاشتراكيين، ومن ثم اشتعلت الحرب الأهلية الإسبانية، والتى استمرت خلال (١٩٣٦ - ١٩٣٩) ، وانتهت بانتصاره بمساعدة أساسية من هتلر وموسوليني، وقد حكم فرانكو إسبانيا حكما ديكتاتورياً لمدة ستة وثلاثين عاماً متواصلة حتى وفاته سنة ١٩٧٥. هيئة الموسوعة العربية: الموسوعة العربية: المجلد الرابع عشر، ص ٣٦٥ .

(٩) ك . م. وورهاوس : السياسة الخارجية البريطانية بعد الحرب العالمية الثانية ، حسين القبانى ، الدار المصرية العامة للتأليف والترجمة ، القاهرة ، د. ت.، ص ١٦٠ .

(١٠) دار الوثائق القومية بالقاهرة : الأرشيف السرى الجديد لوزارة الخارجية المصرية، محفظه ٥٩٥، ملف ٢٠٠ /١/٧/حـ٤ ، مذكرة رقم ١٢، السفير المصرى فى لندن إلى وكيل وزارة الخارجية، ٢٩ يناير ١٩٥٤ .

(١١) جلال يحيى ، محمد نصر مهنا : الموانى ومشكلاتها فى العلاقات الدولية ، دار المعارف ، القاهر ١٩٨٠ ، ص ١٣٩ ، ١٤٠ .

(١٢) ك . م. وورهاوس: المرجع السابق، ص ١٦٠ .

(١٣) دار الوثائق القومية بالقاهرة : الأرشيف السرى الجديد لوزارة الخارجية المصرية، محفظة ٦٤١ ، ملف ٢٠٨/١/٧/جـ٤ ، تقرير رقم ٥٥ ، من السفير المصري بلندن إلى وكيل وزارة الخارجية، ١٠ يونيو ١٩٥٣ .

(14) Report on United States Foreign Assistance Programs, Western Europe II, Washington, 1957, p. 56 .

(15) Morris D.S., Haigh R.H.: Britain, Spain And Gibraltar 1945-90 ,The Eternal Triangle ,Routledge , London , 1992 , p. 4.

(١٦) - تضاربت ردود الأفعال تجاه المعاهدة الأمريكية الاسبانية؛ فوصفها المتحدث الرسمى باسم الخارجية الفرنسية "أنها قضية اسبانية أمريكية بحتة، وأن باريس كانت على علم بتلك المفاوضات من خلال واشنطن" . أما موسكو فأدانت الاتفاق ووصفته بأنه "تحالف عسكري مفتوح بين الولايات المتحدة واسبانيا فرانكو" وأنها محاولة من جانب الولايات المتحدة لضم اسبانيا إلى كتلة الحرب في أوروبا" ، وأن تلك المعاهدات الثنائية ما هى إلا جسرا موصلا إلى حلف شمال الأطلنطى . دار الوثائق القومية بالقاهرة : الأرشيف السرى الجديد لوزارة الخارجية المصرية، محفظه ٦٠٤، ملف ٢٠٣ /١/٧/جـ٦، تقرير من مستشار السفارة المصرية فى واشنطن إلى وكيل وزارة الخارجية،

١٠ نوفمبر ١٩٥٣؛ وانظر أيضا
Morris D.S. and Haigh R.H.: Op. Cit., p. 4, 5.

(17) Hansard , 13 May 1953 , Commons Sitting , Vol. 515 , p. 1343 , 1344 .

(١٨) دار الوثائق القومية بالقاهرة : الأرشيف السرى الجديد لوزارة الخارجية المصرية ، محفظة ٦٤١ ، ملف ١/٧/٢٠٨جـ٤ ، تقرير رقم ٥٥ ،من السفير المصري بلندن إلى وكيل وزارة الخارجية ، ١٠ يونيو ١٩٥٣ .

(19)Morris D.S. and Haigh R.H.: Op. Cit. , p. 4 .

(٢٠) دار الوثائق القومية بالقاهرة : الأرشيف السرى الجديد لوزارة الخارجية المصرية، محفظة ٦٤١ ، ملف ١/٧/٢٠٨جـ٤ ، تقرير رقم ٥٥ ،من السفير المصري بلندن الى وكيل وزارة الخارجية، ١٠ يونيو ١٩٥٣ .

- Hansard, 13 May 1953, Commons Sitting, Vol. 515, pp. 1344 - 1347. 1

(٢٢) أشار النائب إرنست دافيس " بأنه كانت هناك أسئلة عديدة داخل قاعة المجلس منذ أكثر من عام – عام ١٩٥٢– بشأن الهجوم على الكنيسة البروتستانتية البريطانية في اشبيلية. وقدمت احتجاجات عديدة إلى الحكومة الإسبانية. لم تلق استجابة، ولم تتخذ أية خطوات لمنع اعتداءات أخرى من هذا القبيل".

Hansard, 13 May 1953, Commons Sitting , Vol. 515 , pp. 1344 - 1347.

(23) Ibid, 13 May 1953 , Commons Sitting , Vol. 515 , p. 1351 .

(24) Ibid , p. 1358 .

(٢٥) دار الوثائق القومية بالقاهرة : الأرشيف السرى الجديد لوزارة الخارجية المصرية، محفظه ٥٩٥ ، ملف ٢٠٠ /١/٧حـ٨ ، مذكرة رقم ١٢، السفير المصرى فى لندن إلى وكيل وزارة الخارجية، ٢٩ يناير ١٩٥٤ .

(26) Hansard, 13 May 1953 , Commons Sitting , Vol. 515, p. 1347 .

(٢٧) دار الوثائق القومية بالقاهرة : الأرشيف السرى الجديد لوزارة الخارجية المصرية، محفظه ٥٩٥، ملف ٢٠٠ /١/٧حـ٨ ، مذكرة رقم ١٢، السفير المصرى فى لندن إلى وكيل وزارة الخارجية، ٢٩ يناير ١٩٥٤ .

(28) Hansard, 13 May 1953 , Commons Sitting , Vol. 515, pp. 1378 - 1380 .

(٢٩) دار الوثائق القومية بالقاهرة : الأرشيف السرى الجديد لوزارة الخارجية المصرية، محفظة ٦٤١ ، ملف ١/٧/٢٠٨جـ٤ تقرير رقم ٢٩، من السفير المصري فى اسبانيا إلى وكيل وزارة الخارجية، ١٠ أغسطس ١٩٥٣

(٣٠) نفسه ، محفظه ٥٩٥ ، ملف ٢٠٠ /١/٧/احـــ٨ ، مذكرة رقم ١٢، السفير المصرى فى لندن إلى وكيل وزارة الخارجية، ٢٩ يناير ١٩٥٤ .

(٣١) حرصت الخارجية الاسبانية على توثيق العلاقات مع منطقة الشرق الأوسط حيث قضى البرت مارتين ارتاخو -وزير الخارجية الإسبانية- مع بداية عام ١٩٥٢ نحو ثلاثة أشهر فى البرتغال والولايات المتحدة ومنطقة الشرق الأوسط، وقد عملت بريطانيا على إحباط جهود اسبانيا للخروج من عزلتها ، فأوعزت إلى رجالها فى العراق والأردن بأن يقفوا من الزيارة موقفا سلبيا لا يتعدى حدود المجاملات ، وقد استمرت زيارته للمنطقة العربية نحو خمسة وعشرين يوما عاد بعدها إلى مدريد فى ٢٩ ابريل ١٩٥٢ ، ليؤكد على أهمية تلك الزيارة بالنسبة لمستقبل العلاقات الودية بين اسبانيا وتلك الدول؛ انظر دار الوثائق القومية بالقاهرة : الأرشيف السرى الجديد لوزارة الخارجية المصرية، محفظة ٦٤١ ،ملف ١١٧\١٢٠٨جـــ٤ تقرير رقم ٢٧ ،من السفير المصري فى اسبانيا إلى وكيل وزارة الخارجية ، فى ٤ أغسطس ١٩٥٣ ؛ انظر أيضا. ABC , Madrid, 30 de April de 1952

(٣٢) دار الوثائق القومية بالقاهرة : الأرشيف السرى الجديد لوزارة الخارجية المصرية، محفظه ٥٩٥، ملف ٢٠٠ /١/٧/احـــ٨، مذكرة رقم ١٢، السفير المصرى فى لندن إلى وكيل وزارة الخارجية، ٢٩ يناير ١٩٥٤ .

(٣٣) حاولت الحكومة الاسبانية تطوير علاقاتها الدبلوماسية مع القاهرة فوصلها السفير الإسبانى الماركيز سانتا كروز فى ٢٢ ابريل ١٩٥٣ ، وقد علقت على ذلك يونايتد برس "بأنه من أفضل رجال السلك الدبلوماسى الإسبانى، وكذا سفير القاهرة فى مدريد حسين عزيز". A. B. C(Madrid) . : 23 Apr. 1953 , p. 22 .

(٣٤) دار الوثائق القومية بالقاهرة : الأرشيف السرى الجديد لوزارة الخارجية المصرية، محفظة ٦٤١ ، ملف ١/٧/٢٠٨جـــ٤ تقرير رقم ٢٩، من السفير المصري فى اسبانيا إلى وكيل وزارة الخارجية، ١٠ أغسطس ١٩٥٣

(٣٥) - لمزيد من التفاصيل عن الدور الأمريكى فى مفاوضات الجلاء البريطانى عن مصر انظر ؛ رضا محمد شحاته : تطور السياسة الأمريكية نحو مصر بين حربين ، دار البيان ، القاهرة ، ١٩٩٤ ، ص ص ٣١٥ – ٣٣٠ .

(36) Hansard , 11 March 1953 , Commons Sitting , Vol. 512 , p. 126 .

(37) Morris D.S. and Haigh R.H.: Op. Cit. , p. 5.

(٣٨) جلال يحيى : العالم المعاصر منذ الحرب العالمية الثانية ، الدول الغنية الرأسمالية

الغربية والاشتراكية واليابان، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، الإسكندرية ، ١٩٧٨ ، ص ٣٧٥ .

(٣٩) دار الوثائق القومية بالقاهرة : الأرشيف السرى الجديد لوزارة الخارجية المصرية، محفظه ٥٩٥، ملف ٢٠٠ /٧/١حـ٨ ، مذكرة رقم ١٢، السفير المصرى فى لندن إلى وكيل وزارة الخارجية، ٢٩ يناير ١٩٥٤ .

(٤٠) حزب سياسي إسباني ذو أيديولوجية فاشية أسسه خوسيه أنطونيو بريمو دي ريفيرا فى ٢٩ أكتوبر ١٩٣٣ من القوى الرجعية والعناصر اليمينية المعادية للجمهورية الاسبانية الثانية، وقد لعب دورا هاما في تطور الأحداث التي أدت إلى الحرب الأهلية الاسبانية (١٩٣٦ – ١٩٣٩)، وقد دعم الحزب الجنرال فرانكو خلال الحرب، وأصبح الحزب التنظيم السياسى الوحيد في اسبانيا خلال الفترة (١٩٣٩ – ١٩٧٥) ، غير أن شعبية النظام بدأت فى الانهيار مع مطلع خمسينات القرن العشرين .

(٤١)لمزيد من التفاصيل عن الحركات الطلابية ودورها فى الحياة السياسية الاسبانية انظر؛

Andrea Fernández-Montesinos Gurruchaga: Los primeros Pasos Del Movimiento Estudiantil, Universidad Complutense de Madrid, Cuadernos del Instituto Antonio de Nebrija, 12/1 (2009), p. 13-31

(٤٢) جلال يحيى : العالم المعاصر منذ الحرب العالمية الثانية ، المرجع السابق ، ص ٣٧٥، ٣٧٦.

(٤٣) دار الوثائق القومية بالقاهرة : الأرشيف السرى الجديد لوزارة الخارجية المصرية، محفظة ٦٤١ ،ملف ٢٠٨/٧/١جـ٤ تقرير رقم ٢٩ ، من السفير المصري فى اسبانيا إلى وكيل وزارة الخارجية ، ١١ابريل ١٩٥٣ .

(44) LA Vanguardia Española , 11 de Marzo 1953 .

(45) ABC (Madrid) , 20 Feb. 1953, p. 15.

(46) LA Vanguardia Espanola , 22 de Feb. 1953

(٤٧) دار الوثائق القومية بالقاهرة : الأرشيف السرى الجديد لوزارة الخارجية المصرية، محفظة ٦٤١، ملف ٢٠٨/٧/١جـ٤، تقرير رقم ٢٧، من السفير المصري فى أسبانيا إلى وكيل وزارة الخارجية، ٤ ابريل ١٩٥٣م .

(48) FO. 371/102989, From British ambassador in Madrid to the Foreign Office , 22 Feb. 1953

(49) LA Vanguardia Española , 26 de Feb. 1953

(50) Loc. Cit. .

(51) LA Vanguardia Española , 27 de Feb. 1953.

(52) Ibid, 11 de Marzo 1953 .

(53) Ibid, 17 de Marzo 1953 .

(٥٤) زار المارشال تيتو بريطانيا فى ١٦ مارس ١٩٥٣ وكان أول رئيس لدولة شيوعية يزور لندن، وذلك في أعقاب زيارة قام به انتوني إيدن Anthony Eden وزير الخارجية ليوغوسلافيا في سبتمبر ١٩٥٢، وقد أثارت تلك الزيارة مدريد حيث اشتركت فصيلة يوغوسلافية فى صفوف الفرقة الدولية التى عبأتها القوى الشيوعية أثناء الحرب الأهلية الاسبانية، وتبوأ بعض هؤلاء المقاتلين مراكز رفيعة فى الجيش اليوغوسلافي. انظر دار الوثائق القومية بالقاهرة : الأرشيف السرى الجديد لوزارة الخارجية المصرية، محفظة ٦٤١، ملف ١/٧/٢٠٨جـ٤ ، تقرير رقم ٢٧، من السفير المصري فى أسبانيا إلى وكيل وزارة الخارجية، ٤ ابريل ١٩٥٣ ، وانظر أيضا
http://www.thepeoplehistory.com/march16th.html

(55) Hansard , 27 April 1953, Commons Sitting , Vol. 514 , p. 88 .

(56) Morris D.S. and Haigh R.H.: Op. Cit. , p. 6.

(٥٧) دار الوثائق القومية بالقاهرة : الأرشيف السرى الجديد لوزارة الخارجية المصرية، محفظة ٦٤١، ملف ١/٧/٢٠٨جـ٤، تقرير رقم ٢٧ ،من السفير المصري فى اسبانيا إلى وكيل وزارة الخارجية،٤ أغسطس ١٩٥٣

(٥٨) نفسه ، تقرير رقم ٧٠ ، من السفير المصري فى اسبانيا إلى وكيل وزارة الخارجية، ١٠ أغسطس ١٩٥٣م ؛ انظر أيضا

Chronology of International Events and Documents, Vol. 9, No. 15 (23 July – 5 August1953), Royal Institute of International Affairs Stable URL, p. 480.

(59) LA Vanguardia Española , 5 de Agosto 1953,

(٦٠) دار الوثائق القومية بالقاهرة : الأرشيف السرى الجديد لوزارة الخارجية المصرية، محفظة ٦٤١ ، ملف ١/٧/٢٠٨جـ٤ تقرير رقم ٧٠ ، من السفير المصري فى اسبانيا إلى وكيل وزارة الخارجية، ١٠ أغسطس ١٩٥٣م .

(61) LA Vanguardia Española , 5 de Agosto 1953,

(٦٢) دار الوثائق القومية بالقاهرة : الأرشيف السرى الجديد لوزارة الخارجية المصرية،

محفظة ٦٤١ ،ملف ١/٧/٢٠٨جـ٤ تقرير رقم ٧١ ، من السفير المصرى فى مدريد إلى وكيل وزارة الخارجية، ١٢ أغسطس ١٩٥٣.

(٦٣) السّيرِ صموئيل هوار (٢٤ فبراير ١٨٨٠ – ٧ مايو ١٩٥٩)، من كبار السياسيين البريطانيين خلال القرن العشرين ، خَدمَ في مناصب وزارية عديدة في الحكوماتِ المحافظةِ والوطنيةِ خلال عشرينياتِ وثلاثيناتِ القرن العشرين . فقد كان وزير الدولة للطيران خلال أغلب العشرينات، وعَمَل كوزيرِ للخارجية في عام ١٩٣٥، وأصبح وزيراً للداخلية خلال الفترة (١٩٣٧-١٩٣٩) ، ثم أصبح سفيرا لبريطانيا لدى إسبانيا خلال (١٩٤٠ - ١٩٤٤)

http://en.wikipedia.org/wiki/Samuel_Hoare,_1st_Viscount_Templewood

(٦٤) دار الوثائق القومية بالقاهرة : الأرشيف السرى الجديد لوزارة الخارجية المصرية، محفظة٦٤١ ، ملف ١/٧/٢٠٨جـ٤ ، تقرير رقم ٧١ ، من السفير المصرى فى مدريد الى وكيل وزارة الخارجية، ١٢ أغسطس ١٩٥٣م

(٦٥) نفسه ، تقرير رقم ٣٢١ ، من السفير المصرى فى مدريد إلى وكيل وزارة الخارجية ، ١٣ أغسطس ١٩٥٣ .

(٦٦) نفسه .

(67) ABC (Madrid) 31 de octubre 1953, p. 15 .

(68) Morris D.S. and Haigh R.H.: Op. Cit. , p. 2 .

(69) Chronology of International Events and Documents, Vol. 9, No. 8 (1-15 April 1953), Royal Institute of International Affairs Stable URL, p. 221.

(70) Luis Romero Bartumeus: EL Cierre Del Consulado General De Espana En Gibraltar(30 De Abril De 1954), Instituto de Estudios Campogibraltareños, Almoraima 38, 2009, p. 352.

(٧١) دار الوثائق القومية بالقاهرة : الأرشيف السرى الجديد لوزارة الخارجية المصرية، محفظه ٥٩٥، ملف ٢٠٠ /١/٧حـ٨ ، مذكرة رقم ١٢، السفير المصرى فى لندن إلى وكيل وزارة الخارجية، ٢٩ يناير ١٩٥٤ .

(٧٢) دار الوثائق القومية بالقاهرة : الأرشيف السرى الجديد لوزارة الخارجية المصرية، محفظه ٦٤١، ملف ٢٠٨ /١/٧حـ٤، السفير المصرى فى مدريد إلى وكيل وزارة الخارجية، ٢٥ يناير ١٩٥٤ .

(73) Luis Romero Bartumeus: Op. Cit., p. 352.

(74) Chronology of International Events and Documents, Vol. 10, No. 2 (7-20 January 1954), Royal Institute of International Affairs Stable URL, p. 55, 56.

(75) Loc. Cit ., p. 47.

(76) Hansard , 25 January 1954 , Commons Sitting , Vol. 522 , p.1450.

(77) Ibid, p. 1450, 1451.

(78) Hansard , 25 January 1954 , Commons Sitting , Vol. 522 , p.1451.

(79)Luis Romero Bartumeus: Op. Cit. , p. 352 , 353.

(٨٠) دار الوثائق القومية بالقاهرة : الأرشيف السرى الجديد لوزارة الخارجية المصرية، محفظه ٦٤١، ملف ٢٠٨ /٧/١حـ٤، السفير المصرى فى مدريد إلى وكيل وزارة الخارجية، ٢٠ يناير ١٩٥٤ .

(٨١) المصدر نفسه، ٢٥ يناير ١٩٥٤ .

(٨٢) في ٢٠ أغسطس ١٩٥٣، خَلعتْ فرنسا سلطان المغرب محمد بن يوسف، وعينت عمه محمد بن عرفة. غير أن اسبانيا -التي كانت تفرض حمايتها على الجزء المعروف بمنطقة الريف – لَمْ تَعترفْ بالسلطان الجديد؛ فقامت الحكومة الفرنسية بتقديم إنذار إلى السفير الإسبانى فى باريس، كما أرسلت طراداً وحاملة طائرات وسفينة حراسة وأسطولاً صغيراً من المدمرات إلى المرسى الكبير فى الجزائر – الواقع على مقربة من المنطقة الاسبانية، وبالإضافة إلى ذلك تم نشر القوات الفرنسية على طول الحدود الفاصلة بين المنطقتين. روم لاندو : تاريخ المغرب فى القرن العشرين، ترجمة نقولا زيادة، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٣ ، ص ص ٤٢٧ – ٤٣١ .

(٨٣) دار الوثائق القومية بالقاهرة : الأرشيف السرى الجديد لوزارة الخارجية المصرية، محفظه ٦٤١، ملف ٢٠٨ /٧/١حـ٤، السفير المصرى فى مدريد إلى وكيل وزارة الخارجية ، ٢٥ يناير ١٩٥٤ .

(84) Chronology of International Events and Documents, Vol. 10, No. 3 (21 January-3 February 1954),Royal Institute of International Affairs Stable URL, p. 88 .

(٨٥) دار الوثائق القومية بالقاهرة : الأرشيف السرى الجديد لوزارة الخارجية المصرية، محفظه ٦٤١، ملف ٢٠٨ /٧/١حـ٤، السفير المصرى فى مدريد إلى وكيل وزارة الخارجية، ٢٥ يناير ١٩٥٤ .

(86) Morris D.S. and Haigh R.H.: Op. Cit. , p. 6.

(٨٧) دار الوثائق القومية بالقاهرة : الأرشيف السرى الجديد لوزارة الخارجية المــصرية، محفظه ٥٩٥، ملف ٢٠٠ /٧/١حـــ٨ ، مذكرة رقم ١٢، السفير المصرى فى لندن إلـــى وكيل وزارة الخارجية ، ٢٩ يناير ١٩٥٤ .

(88) FO. 371/113040, From British Ambassador in Madrid to the Foreign Office, January 25, 1954.

(89) Chronology of International Events and Documents, Vol. 10, No. 3 (21 January-3 February 1954),Royal Institute of International Affairs Stable URL, p. 88 .

(٩٠) دار الوثائق القومية بالقاهرة : الأرشيف السرى الجديد لوزارة الخارجية المــصرية، محفظه ٥٩٥، ملف ٢٠٠ /٧/١حـــ٨، مذكرة رقم ١٢ ،السفير المصرى فى لنـــدن إلـــى وكيل وزارة الخارجية ، ٢٩ يناير ١٩٥٤ .

(91) Hansard , 15 February 1954, Commons Sitting , Vol. 523, pp. 1635- 1636.

(٩٢) دار الوثائق القومية بالقاهرة : الأرشيف السرى الجديد لوزارة الخارجية المــصرية، محفظه ٥٩٥، ملف ٢٠٠ /٧/١حـــ٨ ، مذكرة رقم ١٢، السفير المصرى فى لندن إلـــى وكيل وزارة الخارجية، ٢٩ يناير ١٩٥٤ .

(93) FO 371/113045, From British Ambassador in Madrid to the Foreign Office, January 28, 1954.

(٩٤) دار الوثائق القومية بالقاهرة : الأرشيف السرى الجديد لوزارة الخارجية المــصرية، محفظه ٥٩٥، ملف ٢٠٠ /٧/١حـــ٨ ، مذكرة رقم ١٢ ،السفير المصرى فى لندن إلـــى وكيل وزارة الخارجية، ٢٩ يناير ١٩٥٤ .

(95) Morris D.S. and Haigh R.H.: Op. Cit. , p. 6.

(96) Hansard , 8 February 1954, Commons Sitting , Vol. 523, pp. 817-818 .

(97) Luis Romero Bartumeus: Op. Cit., p. 352 , 356.

(98) Morris D.S. and Haigh R.H.: Op. Cit. , p. 6.

(99) Klaus Dodds , David Lambert ,Bridget Robison: Loyalty and Royalty: Gibraltar, the 1953-54 ,Royal Tour and the Geopolitics of the Iberian Peninsula, Twentieth Century British History, Vol. 18, No. 3, 2007, p. 384.

(100) Morris D.S. and Haigh R.H.: Op. Cit. , p. 7.

(101) José Uxó Palasí: Estudios Sobre Gibraltar 1996, Instituto de Cuestiones

Internacionales y Política Exterior (INCIPE) , Madrid, 1996, p. 101.

(102) Chronology of International Events and Documents, Vol. 10, No. 10 (6-19 May 1954), Royal Institute of International Affairs Stable URL, p. 318.

(١٠٣) تناقصت أعداد العمال الأسبان فى جبل طارق تدريجيا منذ عام ١٩٥٣ حيث كان عددهم ١٢٥٠٠ ، وفى عام ١٩٥٤ أصبح ١٢٣٢١ ، أصبح ١٢٣٠٤ فى عام ١٩٥٥ ، وبلغ ١٢١٠٦ فى عام ١٩٥٦، وأصبح ١١٦٢٨ فى عام ١٩٥٧ ، وتناقص فى عام ١٩٥٨ إلى ١١١٠٠ ، وفى عام ١٩٥٩ أصبح ١٠٧٨٠ ، وفى عام ١٩٦٠ بلغ العدد ١٠٦٩٨ . انظر

José Uxó Palasí: Op. Cit. , p. 33 .

(104) Chronology of International Events and Documents, Vol. 10, No. 10 (6-19 May 1954),Royal Institute of International Affairs Stable URL, p. 331.

(105) Hansard , 20 May 1954 , Commons Sitting , Vol. 527 , pp. 2288-90 , 2289

(106) Chronology of International Events and Documents, Vol. 10, No. 11 (20 May-2 June 1954),Royal Institute of International Affairs Stable URL, p. 346.

(107) Hansard , 20 May 1954 , Commons Sitting , Vol. 527 , pp. 2288-90 , 2289

(108) www. BBC : Files reveal 1953 Gibraltar ro

(109) Chronology of International Events and Documents, Vol. 10, No. 11 (20 May-2 June 1954),Royal Institute of International Affairs Stable URL, p. 357.

(110) Loc. Cit .

(111) Loc. Cit .

(112) Klaus Dodds , David Lambert ,Bridget Robison: Op. Cit. , p. 387.

(١١٣) طرح كل من ونستون تشرشل –رئيس الوزراء البريطاني– وبول رينو Paul Reno – رئيس الوزراء الفرنسي ووزير الخارجية– في ١٨ أغسطس ١٩٥٠ مشروع إنشاء جيش أوروبي موحد يتولى مسئولية الدفاع عن أوروبا، وقد شجعت الولايات المتحدة هذه الخطوة، واستمر النقاش حول التصديق على معاهدة باريس الخاصة بمشروع منظمة

الدفاع الأوروبى خلال الفترة (١٩٥٢ – ١٩٥٤)، ولكن الجمعيـــة الوطنيـــة الفرنـــسية رفضت التصديق عليها فى ٣٠ أغسطس ١٩٥٤ ، ومن ثم اعتمدت واشنطن على لنـــدن لحل تلك المشكلة ، وقد استطاعت الأخيرة تشكيل الاتحاد الأوروبى كمجموعة فرعية من منظمة حلف شمال الأطلنطى فى ٣٠ أغسطس ١٩٥٤. لمزيد من التفاصيل انظـــر؛ دار الوثائق القومية بالقاهرة : وثائق وزارة الخارجية، الأرشيف السرى الجديـــد ، محفظـــة ٦٤٤، ملف ١١٧\١٢٠٩جـــ٣، تقرير من بروكسل، بتاريخ ١٨ أكتوبر ١٩٥٤ .

(114)Kevin Ruane : The Rise and Fall of the European Defence Community (Anglo-American Relations and the Crisis of European Defence) , (1950-55), Christ Church University College , Kent , 2000 , pp. 32 - 72 .

(115) Chronology of International Events and Documents, Vol. 10, No. 24 (2-15 December 1954),Royal Institute of International Affairs Stable URL, p. 807.

المصادر والمراجع

- أولاً : الوثائق

أ- الوثائق غير المنشورة

١- وثائق وزارة الخارجية المصرية ، الأرشيف السرى الجديد :

- محفظة ٥٩٥ ، ملف ١/٧/٢٠٠جـ٤ .
- محفظه ٦٠٤، ملف ٢٠٣ /١/٧جـ٦ .
- محفظة ٦٤١ ، ملف ١/٧/٢٠٨جـ٤.
- محفظة ٦٤٤، ملف ١/٧/٢٠٩ جـ٣ .

٢- الوثائق الأجنبية غير المنشورة :

- FO. 371/102989, From British ambassador in Madrid to the Foreign Office , 22 Feb. 1953
- FO. 371/113040, From British Ambassador in Madrid to the Foreign Office, January 25, 1954.
- FO 371/113045, From British Ambassador in Madrid to the Foreign Office, January 28, 1954.
- Report on United States Foreign Assistance Programs, Western Europe II, Washington, 1957.

ب- الوثائق الأجنبية المنشورة

- Hansard :

Parliamentary Debates, Commons Sitting

Vol. 512 .

Vol. 514 .

Vol. 515 .

Vol. 522 .

Vol. 523.

Vol. 527 .

Chronology of International Events and Documents, Vol. 9, No. 15 (23 July – 5 August1953), Royal Institute of International Affairs Stable URL.

Chronology of International Events and Documents, Vol. 9, No. 8 (1-15 April 1953), Royal Institute of International Affairs Stable URL.

………………………………, Vol. 10, No. 2 (7-20 January 1954), Royal Institute of International Affairs Stable URL.

………………………………, Vol. 10, No. 3 (21 January-3 February 1954),Royal Institute of International Affairs Stable URL .

………………………………, Vol. 10, No. 10 (6-19 May 1954), Royal Institute of International Affairs Stable URL.

………………………………, Vol. 10, No. 11 (20 May-2 June 1954),Royal Institute of International Affairs Stable URL.

………………………………, Vol. 10, No. 24 (2-15 December 1954),Royal Institute of International Affairs Stable URL.

ثانياً : مراجع باللغة العربية

- جلال يحيى : العالم المعاصر منذ الحرب العالمية الثانية ، الدول الغنية الرأسمالية الغربية والاشتراكية واليابان، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، الإسكندرية ، ١٩٧٨ .
- جلال يحيى ، محمد نصر مهنا : الموانى ومشكلاتها فى العلاقات الدولية ، دار المعارف ، القاهر ١٩٨٠.

- رضا محمد شحاته : تطور السياسة الأمريكية نحو مصر بين حـــربين ، دار البيان ، القاهرة ، ١٩٩٤ .
- روم لاندو : تاريخ المغرب فى القرن العشرين، ترجمة نقـــولا زيـــادة، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٣.
- ك . م. وورهاوس : السياسة الخارجية البريطانية بعد الحرب العالمية الثانية ، حسين القبانى ، الدار المــصرية العامـــة للتـــأليف والترجمـــة ، القاهرة، د. ت..
- محمد رفعت : تاريخ حوض البحر المتوسط وتياراته الـــسياسية ، لجنـــة البيان العربى، القاهرة ، ١٩٤٩ .
- هيئة الموسوعة العربية: الموسوعة العربية: المجلد الخامس. المجلد السابع ، المجلد الرابع عشر ، دمشق .

ثالثاً : مراجع بلغات أجنبية :

- Kevin Ruane : The Rise and Fall of the European Defence Community (Anglo-American Relations and the Crisis of European Defence , (1950-55) ,Christ Church University College , Kent , 2000 .
- Morris D.S., Haigh R.H.: Britain, Spain And Gibraltar 1945-90 ,The Eternal Triangle ,Routledge , London , 1992.
- OfIcina De Asuntos De Gibraltar: La cuesti La Cuestión De Gibraltar, Direccion General De Politica Exterior Para Europa Y America Del Norte, Madrid, 2008.

رابعاً مقالات بلغات أجنبية :

- Andrea Fernández-Montesinos Gurruchaga: Los primeros Pasos Del Movimiento Estudiantil, Universidad Complutense de Madrid, Cuadernos del Instituto

Antonio de Nebrija, 12/1 (2009).
- José Uxó Palasí: Estudios Sobre Gibraltar 1996, Instituto de Cuestiones Internacionales y Política Exterior (INCIPE) , Madrid, 1996.
- Klaus Dodds , David Lambert ,Bridget Robison: Loyalty and Royalty: Gibraltar, the 1953-54 ,Royal Tour and the Geopolitics of the Iberian Peninsula, Twentieth Century British History, Vol. 18, No. 3, 2007.
- Luis Romero Bartumeus: EL Cierre Del Consulado General De Espana En Gibraltar(30 De Abril De 1954), Instituto de Estudios Campogibraltareños, Almoraima 38, 2009.

خامسا الصحف اليومية :

- ABC , Madrid.
- LA Vanguardia Española .

سادسا الشبكة الدولية للمعلومات (الانترنت)

-http://www.thepeoplehistory.com/march16th.html-
http://en.wikipedia.org/wiki/Samuel_Hoare,_1st_Viscount_Templewood

الحداثة بين الإمام والباشا

رؤية محمد عبده لتجربة محمد على فى مصر

د. زكريا صادق الرفاعى

أستاذ التاريخ الحديث المساعد

كلية التربية - جامعة المنصورة

حظيت تجربة محمد على (١٨٠٥- ١٨٤٩) فــى مــصر- ولا زالــت- باهتمام مختلف الأدبيات التاريخية على تنوعها حتى أنه بات من الصعوبة بمكان رصدها وتتبعها[١]، وبطبيعة الحال كان للتجربة المنافحين والمؤيدين لها[٢]، وان كان هذا لم يحل دون وجود آخرين قد تقاسمهم الإعجاب والنفور تجاه بعضا من جوانبها الطويلة والثرية وقضاياها المتشابكة فى الداخل والخارج، بينما توارت إلى حد بعيد وجهة النظر الرافضة للتجربة برمتها ربما باستثناء الانتقادات التى صاغها الجبرتى، والتى عادة ما يجرى الاستشهاد بها بصورة أو بأخرى[٣].

والواقع أن الصورة الذهنية متعددة الجوانب[٤] التى ارتــسمت مــن قبــل الكتاب والمؤرخين عن شخصية محمد على والتى أعيد إنتاجها مرارا فى فترات ومناسبات تاريخية مختلفة، قد ساهمت بلا ريب فى استمرار الجــدل والتبــاين حول سياساته وأعماله، وعلى حد قول البعض فانه " على الرغم مــن تنــاول العديد من الكتب لها (أي تجربة محمد على) فان القليل منها قد تناولها علــى وجه صحيح، وربما بصورة مرضية، على أن الكثير، قد كتب إمــا بواســطة أنصار الأسرة المالكة وبتكليف منها[٥]، أو بواسطة من ينتقصون مــن قيمتهــا، وبالتالى فلسنا نملك سجلا غير متحيز لذلك العصر "[٦].

بل إن بعض المؤرخين قد مد بصره خارج نطاق تجربة محمد على داعيا إلى إعادة النظر مجددا فى جدلية النهضة والسقوط فى تاريخ مصر الحديث بصفة عامة(٧)، وعزز من هذه الفرضية التقدم الحثيث والمطرد لدراسات مصر العثمانية كما وكيفا على مدار أكثر من عقدين من الزمان، ومن ثم فلم يعد مقبولا ولا مسلما به النظرة بإطلاق على مرادفة التأخر والتخلف لحقبة تاريخية بعينها، ومواكبة النهضة والتقدم لحقبة لاحقة فى تاريخ مصر الحديث (٨) .

ومن المفارقات المهمة أن تجربة محمد على رغم استغراقها نحو النصف قرن، فإننا لا نكاد نعثر على أية معارضة مكتوبة (عدا عمل الجبرتى كما سبقت الإشارة الذى توقف فى تأريخه عند عام ١٨٢١) أو نقدا مسجلا لتلك التجربة رغم العديد من صور الاحتجاج والرفض لها خاصة فى صعيد مصر و إمعان السلطة فى قمعها بعنف(٩).

و تسعى هذه الدراسة للوقوف على رؤية الإمام محمد عبده لتجربة محمد على، وتلمس الاعتبارات التى صاغت تلك الرؤية، ولعل ما يلفت الانتباه هنا هو أن الإمام محمد عبده (١٨٤٩-١٩٠٥) قد تجاوز جانب الحذر فى محاولته لتقييم تلك التجربة، فلم تقتصر على جانب بعينه وإنما طالت التجربة برمتها، بل يمكن القول دون تجاوز بأنه كان رافضا بصورة قاطعة لمجمل سياسات الأسرة الحاكمة ورموزها بدءا من المؤسس الأول وحتى وفاته فى عهد الخديو عباس حلمى الثانى، ومن ثم فان محاولة الإمام قد بدت فى المحصلة النهائية مغايرة للصورة العامة السائدة آنذاك.

وتسعى هذه الدراسة من جانبها لرصد رؤية الإمام محمد عبده وما صاحبها من ملابسات وبغض النظر عن مدى الاتفاق أو الاختلاف مع تلك الرؤية التى طرحها الإمام محمد عبده حيال تلك التجربة، فانه لا يمكن تجاهلها بحال باعتبار مكانة وأهمية صاحبها من جهة، فضلا عن أنها شرعت تؤسس بقوة لرواية مغايرة بموازاة الرواية الرسمية المتداولة لتجربة محمد على بكل تجلياتها السياسية والاجتماعية من زوايا مختلفة، ربما تردد صداها فى أعمال

آخرين لاحقا[١٠].

وعلى صعيد آخر فان الرؤية التى صاغها الإمام بحكم ما انطوت عليه من جوانب عديدة، كان لها أن تتقاطع بالضرورة وتمس بصورة أو بأخرى قصة الحداثة بمختلف جوانبها في الواقع المصرى [١١]، بل ربما كانت الأهمية الرئيسية لتلك الرؤية تكمن فى سعيها بإلحاح عبر ما طرحته من شكوك وتساؤلات عميقة لإعادة النظر فى قضية الحداثة من الأساس وفهم بنيتها وطبيعة مسارها المتأرجح بين ما اسماه الإمام لاحقا بالمفارقة بين (البدايات – والنهايات)، مخلفة وراءها جدلا مستمرا ربما لم يحسم بعد فى تاريخ مصر الحديث والمعاصر[١٢].

والحقيقة أن مصطلح الحداثة من أكثر المصطلحات غموضا ويحمل فى طياته العديد من المعضلات من الناحية النظرية حول ماهيته وتاريخه، فهو ليس مصطلحا خاصا بالنقد والأدب بقدر ما يشير الى فكرة التغاير والتمايز بين العديد من الأنماط والبنى المجتمعية، كما أن الحداثة ليست وليدة مرحلة بعينها بل هى متعددة الروافد والأصول ونتاج مراحل زمنية متداخلة [١٣].

وبعيدا عن الجدال النظرى فان المقصود بمصطلح الحداثة فى هذه الدراسة على الصعيد الاجرائى هى جملة المتغيرات العميقة التى شهدها المجتمع المصرى على المستويين الاقتصادى والاجتماعى منذ النصف الثانى من القرن الثامن عشر[١٤] والتى واصلت مسيرتها بوتيرة متسارعة فى النصف الأول من القرن التاسع عشر من خلال السياسات التى اتبعها محمد على فى الداخل والخارج، وقد أفضت فى جملتها عن بروز سلطة مركزية قادرة كان لها زمام المبادرة فى التغيير الاقتصادى والاجتماعى لحقبة جديدة متمايزة عن النمط المملوكى العثمانى[١٥].

وقد جاءت رؤية الإمام محمد عبده منجمة فى ثنايا كتاباته وفى مناسبات مختلفة على أن الإطار الرئيسى الذى انتظمت فيه تلك الرؤية قد بدا فى استجابته

ردا على الدعوة التى تبنتها بعض الصحف لإعداد احتفالية كبيرة فى القاهرة وسائر المدن المصرية احتفاء بذكرى وصول محمد على لسدة الحكم فى مصر، فكان مقاله الشهير بعنوان " آثار محمد على فى مصر " المنشور فى يونيو عام ١٩٠٢ بالمنار دون ذكر اسمه صراحة، مكتفيا بتذييل المقال بتوقيع " مؤرخ"(١٦) .

وليس معروفا على وجه الدقة البواعث التى حدت بالإمام لتبنى تلك الرؤية، وقد أشار فى بداية مقاله إلى لغط الناس وانقسامهم ما بين "مادح " و"قادح " لتجربة محمد على لأسباب " مجهولة " على حد قوله، وأوضح أن الجميع قد فاتهم البحث فى أحوال مصر " وما كانت تصير إليه لو بقيت، وما نشأ عن محوها واستبدال غيرها بها على يد محمد على "، ومن ثم فان الدافع له للخوض فى هذه القضية بإيجاز، هو عرض الحقيقة التاريخية المجردة على نحو ما رآها أمام الرأي العام لتكون صرخة تحذير له حتى " ينتفع به ما عساه ينتفع، ويندفع به من الوهم ما ربما يندفع " (١٧)، وبدا جليا منذ البداية أن لفظتا " المحو"، و " الاستبدال " الواردتين فى صدر المقال، تشى بأن حديث الإمام هو عن مصرين، مصر التى كانت، ثم مصر التى أصبحت، وما نهج المقال فيما بعد إلا بسطا للمقارنة بين المصريين داعيا القارئ فى النهاية الى التأمل وإعادة النظر فى تلك المسلمات.

وقد نوه البعض إلى أن الإمام محمد عبده كان يكن حقدا دفينا لأسرة محمد على، ولم يكن يثق بأي من أفرادها (١٨) وربما بدا ذلك صحيحا،على أن هذا وحده لا ينهض مبررا كافيا، فلم يكن ما قدمه محمد عبده رأيا عابرا ساقه على عجل، بقدر ما كان جزءا من معالم رؤيته الإصلاحية العامة، ومن هنا تبرز أهمية الوقوف بإيجاز على الإطار العام لفكر الإمام.

الإطار العام وترتيب الأولويات

يبدو من الصعوبة بمكان اختزال رؤية الإمام فى الجانب السياسى فحسب،

حتى وان بدا ذلك طاغيا، بل إن مجمل النقد الذى وجهه إلى تجربة محمد على، لا يمكن تقديره على نحو صحيح بمعزل الإطار المرجعى الذى انتظمت فيه القضايا والإشكالات التى طرحها على تنوعها، وهى بعبارة موجزة تتمثل فى الإصلاح، لاسيما التجديد الدينى باعتباره حجر الزاوية، وقد قاده ذلك بالضرورة إلى تتبع مسيرة ما أسماه " التمدن والانحطاط الانسانى" بهدف سبر أغوار الأسباب التى أدت إلى التراجع والضعف الذى ألمَّ بالعالم الاسلامى بوجه عام، وفى القلب منه المجتمع المصرى بوجه خاص، ومن ثم التماس سبل الإصلاح المنشود.

كما لا يجب أن نغفل فى هذا السياق أن رؤية الإمام قد ارتكزت عبر مسيرته الإصلاحية الطويلة على جانبين، أولهما الإدراك التاريخى لمسار التطور الاوربى بمراحله وتعرجاته من جهة، وثانيهما الفهم العميق للتراث الاسلامى على تنوعه من جهة أخرى، إضافة إلى واقع مجتمعه الماثل أمام عينيه.

والمعروف أن الإمام محمد عبده قد عمل مدرسا للتاريخ بمدرسة دار العلوم حال إنشائها وكان معنيا بتدريس "تهذيب الأخلاق " لابن مسكويه، كما استعان بكتاب "جيزو" الذى عربه نعمه الله خورى "التحفة الأدبية فى تمدن الممالك الأوربية " (١٩)، كما سعى دون جدوى لإقناع الشيخ شيخ الأزهر بأهمية تدريس مقدمة ابن خلدون (٢٠).

وعلى صعيد أخر فقد أولى الإمام اهتماما بالغا عبر مقالاته العديدة فى الوقائع المصرية باستعراض أبرز الملامح والقسمات التى ميزت المجتمع المصرى لاسيما قدرته على تمثل واستيعاب الحضارات المختلفة عبر مراحل تاريخه الموغلة فى القدم، فألمح إلى أهمية موقع مصر الجغرافى الحاكم ومدى التكالب والتنافس عليها من جانب القوى الكبرى فى كل عصر، كما أن المصريين مهما بلغ بهم الحال ملتصقين بوطنهم " يفضلون الموت على الهجرة

من بلادهم ثم إن طباعهم مرنت على الاحتمال، وألفت مقاومة القهر بالصبر ولهذا كان المتغلبون يفنون فيهم وهم باقون" (٢١) .

وليس هناك فى رأي الإمام ما يحول بين المصريين والتمدن فهم " أذكياء الأذهان أقوياء للاستعداد للمدنية بأصل الفطرة هم رعية حاكمهم ولا يمكن لحاكمهم ان يستبدل بهم رعية أخرى فى بلادهم "، أما يعانى المجتمع المصرى فهو " بعد جمهورهم عن المعرفة بوجوه المصالح، والثانى حرمانهم من التربية التى تطبع النفوس على الاستقامة " (٢٢).

ومن الآفات المتوطنة التى عرض لها الإمام واعتبرها مصاحبة للشخصية المصرية على نحو دائم فهى المراوغة بين العامة والسلطة السياسية السائدة بحكم ميراث الاستبداد المتواصل فالمصريين " لا يقدرون النظام قدره مهما كان بالغا من الصلاح ولا يبالون به، بل يعتقدون أن كل نظام حبر على ورق فلا يستطيع حاكم أن يثبت سلطته عليهم على أمر مكين، بل هم دائما فى التواء عليه بالمخالفة متى أمكنت الفرصة إلا إذا اخذوا بتربية صحيحة فهناك تنضبط أحوالهم " (٢٣) .

ومن أهم ما يفتقده المجتمع المصرى دوما فى رأيه، غياب القيادة الرشيدة والقوية التى توجه وتقود " يقال أهل مصر ضعفاء ولكن قد اظهر التاريخ انه متى وجد القائد، كانوا أشد على الخصم من أشجع الأمم وأثبتهم ولا يعلم متى يوجد القائد ومن أي جنس يكون" (٢٤) .

و أضاف الإمام أن الرأي العام فى مصر دائما ما يمر بفترات من المد والجذر وقد يخبو لفترة من الزمن قد تطول وتقصر، لكنه سرعان ما يعاود حضوره مجددا، فالمصريين " شديدو الانفعال بما يلقى إليهم والتذكار لما ينطبق على أهوائهم، ولكن ربما لا يظهر أثر ذلك لاحتجابه بحجاب العجز أحيانا، غير أن طباع المصريين كالكرة المرنة تتأثر بالضغط فينخفض بعض سطحها قليلا من الزمن ثم لا يلبث أن يعود إلى حالته " (٢٥).

وفى مذكراته التى لم تنشر عن الثورة العرابية اعتبر الإمام محمد عبده أن الرأي العام فى مصر لم يبدو حاضرا بقوة إلا خلال أحداث الحرب الروسية التركية عام ١٨٧٧[٢٦] والتى أحدثت ترقبا ومتابعة بين عامة الناس وخاصتهم آنذاك [٢٧] .

كما حذر الإمام بصورة قاطعة من التماس سبل الإصلاح السياسى والاجتماعى المنشود بمعزل عن الإطار الدينى أو تجاهله، باعتباره معطى حاضر فى أفق الشخصية المصرية على نحو دائم حتى وان بدا كامنا أو خافتا لبعض الوقت لأن " أنفس المصريين أشربت الانقياد إلى الدين حتى صار طبعا فيها، فكل من طلب إصلاحها من غير طريق الدين فقد بذر بذرا غير صالح للتربية التى أودعت فيها ويضيع تعبه ويخفق سعيه " [٢٨].

ومن ثم كان منطقيا فى ضوء تلك النظرة الثاقبة للتكوين الحضارى للمجتمع المصرى، ألا يكون الإمام من دعاة التقليد بإطلاق للحضارة الغربية دون تبصر، بل دعا إلى ترتيب الأولويات والمراحل ومراعاة تباين الأوضاع السياسية والاجتماعية فى مصر عن غيرها، ووجه اللوم للداعين إلى القفز على المراحل منبها إلى " أن دعاة التمدن لدينا دعوا إلى النهايات وليس البدايات "[٢٩]، ومضى مضيفا فى موضع أخر " غير أن العقلاء منا يقولون لابد أن نكون مماثلين لأوربا فى القوانين والعادات، رغما عن الحق الذى يقتضى علينا بأن نكون خاضعين لأحكام بقعتنا، وما تقتضيه طبيعة موقعنا الذى نشأنا فيه، ولن يكون ذلك أبدا، وإننا نخشى لو تمادينا فى هذا التقليد الأعمى، واستمر بنا الأخذ بالنهايات الزائدة قبل البدايات الضرورية الواجبة أن يموت فينا أخلاقنا وعاداتنا"[٣٠].

وسعى الإمام محمد عبده موضحا لمعاصريه طبيعة التطور الاوربى عبر التاريخ وقيادة الطبقة البرجوازية لذلك التطور على الصعيدين الاقتصادى والاجتماعى، مشيرا فى هذا المقام لمراحل النهضة الأوربية وما شابها من

مخاض وآلام لفترة طويلة، دون انبهار وتعلق بتجليات المرحلة الأخيرة وحدها لذلك التطور التاريخى الطويل بقوله " ولو تأملنا تاريخ سير التقدم الاوربى لرأينا أسباب التقدم يجمعها سبب واحد وهو إحساس نفوس الاهالى بآلام صعبة الاحتمال من ظلم الأشراف النبلاء وغدر الملوك وضيق وجوه الاكتساب، وهذا الإحساس هو الذى دعا الأنفس كثيرة العدد إلى الخروج من هذه الآلام فطلبوا لذلك أسبابا متنوعة أقواها التعاضد على ترويج وسائل الكسب فكانت تعقد لذلك المحالفات والمعاهدات وتتألف له الجمعيات، فكان جرثومة تقدمهم أمرا منبثا فى غالب الأفراد ومحرزا فى غالب العقول، وهو نشاط الاهالى فى استجلاب الثروة، وطلبهم لحرية العمل لينالوها، ثم تدرجوا فيه من حال إلى حال حتى عم التغير جميع العادات المشارب والقوانين، أما عقلاؤنا فقد وجهوا نظرهم إلى حالة التمدن الحاضرة والاهالى على غير علم منها بأنفسهم، وأهملوا جوهر المدنية الصحيح وهو قداسة القانون الاخلاقى، والشعور بالحقوق الطبيعية وأداء الواجبات الاجتماعية " [٣١].

بدايات تولى محمد على السلطة وحكومة الأعيان

استهل محمد عبده مقالته الشهيرة عن محمد على بالحديث أولا عن وضع مصر السياسى قبل الحملة الفرنسية، فوصف طبيعة النمط المملوكى العثمانى السائد فى مصر بأنه أشبه فى اصطلاح الغربيين بحكومات الأشراف، وفى عرف المصريين بحكومة " الالتزام"[٣٢]، وتعرف عند الخاصة بحكومة " الإقطاع "، وما يميز هذا النمط السياسى فى رأيه هو سيادة الاستبداد " فى أصوله وفروعه " فكان " كل يطلب من القوة ما يسمح له بمد يده إلى ما فى يد الآخر" كما سمحت طبيعة هذا النظام بوجود أتباع ومؤيدين لكل فريق من الأمراء لهذا " كنت ترى فى البلاد المصرية بيوتا كبيرة لها رؤساء يعظم نفوذهم ويعلو جاههم" .

ورغم ما انطوى عليه ذلك النظام من فساد، إلا أنه نظرا لانقسام الأمراء

وسعى كل منهم لجذب أعوان له من الاهالى فانه " يحدث بطبعه فى النفوس شمما، وفى العزائم قوة ويكسب القوى البدنية والمعنوية حياة مهما احتقرت نوعها، فكانت العناصر جميعها فى استعداد لأن يتكون منها جسم حى واحد يحفظ كونه ويعرف العالم بمكانته" (٣٣).

ومن ثم فانه رغم سوء الأوضاع السياسية السائدة بمصر آنذاك، إلا أن البلاد مازالت توجد بها بقايا حياة، ولعل هذا يذكر بما كتبه " حورانى " عن حكومات الأعيان، وهو ما انطبق على أحوال مصر فى القرن الثامن عشر وحتى تولى محمد على، ففى ظل تراجع السلطة المركزية للدولة، برز دور الأعيان بحكم ما لهم من صلات نافذة بالسلطة القائمة، فضلا عن نفوذهم المرتكز على مكانة اقتصادية واجتماعية، عززها الإشراف على العديد من الأوقاف فى حالة كبار العلماء، أو النشاط التجارى المتزايد لكبار التجار فأصبحوا على نحو أو آخر مرتبطون بالبيوتات المملوكية ومختلف الأجنحة المتصارعة على السلطة (٣٤).

وأوضح الإمام أنه عقب دخول الفرنسيين مصر اضطر بونابرت إلى الاستعانة بسلطة الأعيان مجددا حتى تستقيم له الأمور، وأخذت ما دعاه " بالقوى الحيوية الكامنة فى البلاد تظهر واضطر نابليون أن يسير فى حكومة البلاد بمشورة أهلها".

أما عن أوضاع مصر بعد خروج الفرنسيين فقد عبر الإمام عنها بنبرة مثالية معتبرا أنه كان أمام مصر سلوك أحد طريقين، أولهما أن القيادة السياسية أو ما أسماهم الإمام " برؤساء الأحزاب " وهو يعنى بهم زعماء المماليك وأتباعهم، كان لديها بصيص من الأمل لتعدل من سلوكها السياسى القائم على السلب والنهب " لو أمهلهم الزمان حتى يعرف كل منهم ما بلغ به غيره الغاية التى كان يقصدها فى بلاد غير بلاده، وما كان بينهم وبين ذلك إلا أن يختلطوا بأهل البلاد الغربية ويرتفع الحجاب الذى أسدله الجهل دونهم".

وبديهى أن ما سبق لا يعدو أن يكون إلا من باب التمنى من جانب الإمام تجاه النظام القديم الذى كان فشله فى مواجهة الحملة الفرنسية إيذانا بأفوله ونهايته، ولن يجدى معه فتيلا اختلاطه بالآخر ومنحه وقتا إضافيا فى قليل أو كثير.

أما الطريق الثانى الذى كان يأمل الإمام فى سلوكه فى مصر فهو " أن يأتى أمير عالم بصير يضم تلك العناصر الحية بعضها إلى بعض، ويؤلف منها أمة تحكمها حكومة منها، ويأخذ فى تقوية مصباح العلم بينها حتى ترتقى بحكم التدرج الطبيعى" [٣٥].

ولا يخلو التصور الأخير أيضا من الشطط، فعقب خروج الفرنسيين، كانت الفوضى ضاربة فى مختلف أرجاء البلاد، وكان الهاجس الرئيسى للصفوة السياسية (الأعيان) وعلى رأسها التجار والعلماء، وهذه الصفوة كانت دوما حريصة على مصالحها الاقتصادية- هو استعادة الأمن من جديد فى ظل ما عبر عنه الجبرتى مرارا من " وقف الحال وضيق المعايش" [٣٦]. واستطاع محمد على أن يفرض نفسه على الساحة لأنه كان طرفا له قوته آنذاك، فضلا عن قدرته على المناورة [٣٧]، ولم يكن المناخ السياسى ليسمح بظهور تلك الرؤية الحالمة التى يقود فيها الأمير الملهم ذو البصيرة البلاد إلى الإصلاح المنشود على نحو ما كان يرجو الإمام.

نهج وسياسات محمد على

استعرض الإمام محمد عبده ممارسات محمد على فى بداية حكمه، خاصة قدراته على الاندفاع والمغامرة وسعيه لإحكام قبضته على السلطة وإزاحة الأطراف الأخرى المناوئة له فتساءل بحدة وعلق بعنف قائلا " ما الذى صنع محمد على ؟ لم يستطع أن يحى ولكن استطاع أن يميت، كان معظم قوة الجيش معه وكان صاحب حيلة بمقتضى الفطرة فأخذ يستعين بالجيش وبمن يستميله من الأحزاب على إعدام كل رأس من خصومه، ثم يعود بقوة الجيش وبحزب آخر

على من كان معه أولا وأعانه على الخصم الزائل فيمحقه وهكذا حتى إذا سحقت الأحزاب القوية وجه عنايته إلى رؤساء البيوت الرفيعة، فلم يدع منهـا رأسـا يستتر فيه ضمير(أنا) واتخذ من المحافظة على الأمن سبيلا لجمع السلاح مـن الآهلين، وتكرر ذلك منه مرارا حتى فسد بأس الاهالى وزالت ملكة الـشجاعة منهم، وأجهز على ما بقى فى البلاد من حياة فى أنفس بعض أفرادها فلم يبق فى البلاد رأسا يعرف نفسه حتى خلعه من بدنه أو نفاه مع بقية بلده إلى الـسودان فهلك فيه" (٣٨).

وبطبيعة الحال فان ما أبداه الإمام صحيح فى جملته فإتباع محمـد علـى سياسة المناورة والإقدام والإحجام كان جزءا من الصراع على السلطة، ولم يكن تصفية الخصوم وإزاحتهم أمرا جديدا على الممارسة السياسية فى مـصر، وان كان الإنصاف يقتضى القول، أن ما تم كان جزءا من حسابات النخبـة، وفـى مقدمتهم التجار والعلماء وتم حشد العامـة والـزج بهـم خدمـة لأغراضـهم ومصالحهم فى المقام الأول.

والشاهد أن الأغلبية من المصريين لم تبد تطلعا إلى السلطة يوما ما، ولم يكن لها مشاركة سياسية بشكل واضح إلا عندما تشتد وطأة الضرائب ويـضيق الخناق على الناس، وربما عاد ذلك العزوف فى جانب منه إلى غلبة العنـصر الأجنبي شبه المستمرة على حكم البلاد، فضلا عن هيمنـة وسـطوة الجهـاز التنفيذى فى مصر تاريخيا، وغالبا ما كان التغيير يتم فى قلب الـسلطة بـالقهر والتغلب وقد صار ذلك عرفا ارتضاه الجميع حكاما ومحكومين، فلـم يكتـرث العامة كثيرا للصراعات الدائرة عليهم وحولهم من جانب دوائر النخبة فى قمـة السلطة، وكان موقفهم الدائم هو الترقب والحذر (٣٩).

ولعل الجديد الذى قام به محمد على ليس فى مجرد نجاحه فـى تـصفية خصومه فحسب، وإنما قدرته أيضا فى الوقت ذاته على حد تعبير حورانى فـى تحطيم أدوات العمل السياسى المحتمل مـستقبلا سـواء فـى الريـف أو فـى

المدينة[٤٠]، فلم يعد هناك من يستطيع أن يعبر عن نفسه وكانت رسائل محمد على للجميع لا تخطئها العين، فلم يقض على كبار منافسيه من أمراء المماليك وإنما تخلص بالكيفية نفسها من الزعامات الشعبية على تفاوت مراتبها، فكان المنفى لعمر مكرم، وكان الاغتيال المجهول من نصيب آخرين مثل ابن شمعة شيخ الجزارين وحجاج الخضرى اللذين لعبا دورا هاما فى توطيد سلطة محمد على خلال سنوات حكمه الأولى، فتم التخلص منهما غيلة على حد قول الجبرتى " زجرا " لغيرهم [٤١].

وعلق محمد عبده بنبرة من السخرية على سعى محمد على لاصطناع أتباع جدد يدينون له بالولاء والطاعة، رغم أن هذا الإجراء كان مألوفا لدى المماليك من قبل بقوله " أخذ يرفع الأسافل ويعليهم فى البلاد والقرى كأنه كان يحن لشبه فيه ورثه عن أصله الكريم حتى انحط الكرام وساد اللئام ولم يبق فى البلاد إلا آلات له يستعملها فى جباية الأموال، وجمع العساكر بأية طريقة وعلى أي وجه، فمحق بذلك جميع عناصر الحياة الطيبة من رأى وعزيمة واستقلال نفس ليصير البلاد المصرية جميعها إقطاعا واحدا له ولأولاده على اثر اقطاعات كثيرة كانت لأمراء عدة" [٤٢].

وتابع الإمام محمد عبده مستهجنا تطلع محمد على للخروج عن تبعية الدولة العثمانية، متناسيا فى هذا الصدد أن تاريخ الولاة فى مصر منذ وقت طويل، هو تاريخ التمرد والانفصال عن السلطة المركزية بحكم طبيعة موقع مصر الحاكم فيقول:" ماذا صنع بعد ذلك ؟ اشرأبت نفسه لأن يكون ملكا غير تابع للسلطان العثمانى" [٤٣]، كما حمل الإمام بشدة على اعتماد محمد على على الأجانب فى إدارة البلاد على حساب المصريين:" فأوسع لهم فى المجاملة وزاد لهم فى الامتياز خارجا عن حدود المعاهدات المنعقدة بينهم وبين الدولة العثمانية حتى صار كل صعلوك منهم لا يملك قوت يومه، ملكا من الملوك فى بلادنا يفعل ما يشاء ولا يسأل عما يفعل". وبالمقابل فقد: " صغرت نفوس الاهالى بين أيدى الأجانب بقوة الحاكم وتمتع الأجنبي بحقوق الوطنى التى حرم منها وانقلب

الوطنى غريبا فى داره، غير مطمئن فى قراره، فأجتمع علــى سـكان الــبلاد المصرية ذلان – ذل ضربته الحكومة الاستبدادية المطلقة، وذل سامهم الأجنبي إياه ليصل إلى ما يريده منهم غير واقف عند حد أو مردود إلى شريعة" (٤٤).

وبطبيعة الحال فان الإمام محمد عبده لم يكن مغاليا فى حديثه عــن أثــر الاستعانة بالأجانب من جانب محمد على، بل ذهب البعض إلى القول بأن إدارة الدولة قد اتسمت بالعنصرية الحادة فى هذا الصدد (٤٥)، وفيما يبــدو أن انتمــاء محمد على إلى جماعة أقلية وعدم توحده مع الهوية المصرية مــن جهــة (٤٦)، فضلا عن تأثره ببعض القناصل الأوربيين من جهة أخرى كان وراء توســعه فى الاستعانة بخدمات من ينتمون إلى جنسيات مختلفة، فجعل وظــائف الإدارة العليا حكرا على الأتراك والجراكسة والأرمن(٤٧)، وكان هؤلاء موضــع ثقــة الباشا الذى لم يتخل عن هذه السياسة، بل لم يتورع محمد على عــن الإطاحــة برأس " المعلم غالى " رغم ما أداه من خدمات للدولة عندما ألمح إلى اعتراضه على تزايد وفود الأتراك إلى البلاد، محذرا من خطورة تنــامى الارســتقراطية التركية على مصالح محمد على ذاته(٤٨).

وانتقل الإمام للحديث عن سياسة محمد على التعليمية ورغم أنهــا كانــت أكثر القطاعات بريقا فى تجربة محمد علــى، وكانــت موضــع ثنــاء معظــم المراقبين، إلا انه اعتبر أن تلك النهضة لم تكن مقصودة بــذاتها، بــل جــاءت مصاحبة وتابعة لخدمة أغراض بناء القوة العسكرية للباشا فى المقــام الأول: " قالوا: أنه اطلع نجم العلم فى سماء البلاد، نعم عنــى بالطــب لأجــل الجــيش والكشف على المجنى عليهم فى بعض الأحيان عندما يراد إيقاع الظلم بمــتهم، وبالهندسة لأجل الرى حتى يدير مياه النيل بعض التدبير ليستغل إقطاعه الكبير". ومضى الإمام مشيرا إلى أن السياسة التعليمية قد اتسمت بالعشوائية وافتقــرت إلى الأسس المنهجية الصحيحة بقوله: " كانوا يأخذون تلامــذة المــدارس مــن الطرق وإفناء القرى (الأفناء الناس المجهولون) كما يتخطفون عساكر الجيش، فهل هذا مما يحبب القوم فى العلم ويرغبهم فى إرسال أولادهم إلى المدارس؟ لا

بل كان يخوفهم من المدرسة كما كان يخيفهم من الجيش"(٤٩).

وفى موضع آخر أكد محمد عبده على نظرة التوجس والخيفة التى صاحبت إنشاء المدارس الجديدة فى نفوس عامة المصريين حتى أن البعض اعتبرها مرادفا للموت بقوله: " افتتحت المدارس فى ديارنا فى زمن المرحوم محمد على باشا، لكن كان اسمها غريبا على الأذهان وحشيا على القلوب يساق الناس إليها كأنما يساقون إلى الموت إذ كانوا يظنون أن الدخول فى المدارس هو الانتظام فى العسكرية والدخول فى العسكرية هو الشقاء الدائم" (٥٠).

ولم يرض محمد عبده عن سياسة محمد على تجاه الأزهر وتحجيم دوره السياسى والثقافى خاصة بعد الاستحواذ على ما له من أوقاف، والتى كانت بالطبع مصدرا لسلطة العلماء ومنفذا لقوتهم ونفوذهم بحديثه: " نعم أخذ ما كان للمساجد من الرزق وأبدلها بشىء من النقد يسمى فائض روزنامة لا يساوى جزأ من الألف من إيرادها، وأخذ من أوقاف الجامع الأزهر ما لو بقى له اليوم لكانت غلته لا تقل عن نصف مليون جنيه فى السنة، وقرر له بدل ذلك ما يساوى نحو أربعة آلاف جنيه فى السنة ". وقصارى أمره فى الدين أنه كان يستميل بعض العلماء بالخلع أو إجلاسهم على الموائد لينفى من يريد منهم إذا اقتضت الحال وأفاضل العلماء كانوا عليه فى سخط ماتوا عليه" (٥١).

وأكد الإمام على أن الهدف من التعليم كان محصورا فى دائرة الوسائل " المحتاج إليها فى نظام الحكومة، وأهم تلك الفنون الهندسة والطب والترجمة، أما غيرها من العلوم فما كان إلا وسيلة إليها ثم لم يشترط فى العلم بها أن يكون تاما". كما انتقد غياب الجوانب الأخلاقية والتربوية عن المناهج الدراسية فقال: " أما التربية على أخلاق سليمة فلم تخطر له ولمن تولى إدارة هذه المدارس على بال"، كما اعتبر أيضا أن البعثات الخارجية لم تأت بالنتيجة المرجوة منها، فرغم" كثرة من ذهب منهم (يقصد المصريين) إلى أوربا وتعلم فيها لم يشعر الاهالى بشىء من ثمرات تلك الأسفار ولا فوائد تلك المعارف التى اكتسبت بها"(٥٢).

ولم تسلم حركة الترجمة والنشر رغم اتساعها من نقد الإمام فمع وجود " كثير من الكتب المترجمة فى فنون شتى من التاريخ والفلسفة والأدب (٥٣)، ولكن هذه الكتب أودعت فى المخازن من يوم طبعت وأغلقت عليها الأبواب إلى أواخر عهد إسماعيل باشا فأرادت الحكومة تفريغ المخازن منها، وتخفيف ثقلها عنها، فنثرتها بين الناس فتناول منها من تناول، وهذا يدلنا على أنها ترجمت برغبة بعض الرؤساء من الأوربيين الذين أرادوا نشر آدابهم فى البلاد، لكنهم لم ينجحوا لأن حكومة محمد على لم توجد فى البلاد قراء ولا منتفعين بتلك الكتب والفنون" (٥٤).

وتجدر الإشارة فى هذا الصدد إلى أن سياسة محمد على التعليمية وان شابها بعض التخبط، إلا أنه من الإنصاف القول بأن تلك السياسة بما تضمنته من إنشاء للعديد من المدارس الحديثة وإرسال العديد من البعثات الخارجية(٥٥)، إضافة إلى حركة الترجمة النشطة المصاحبة لهما، قد تركت بلا ريب أثرا باقيا فى الحياة الثقافية المصرية حتى وان بدا ذلك غير مقصود(٥٦)، وان كانت فى الوقت ذاته قد أحدثت أيضا هوة واسعة بين التعليم المدنى (مدارس الباشا) والتعليم الدينى ممثلا فى الأزهر، وصار الأفندية الجدد موضع حسد آخرين، كما صاروا مثالا يحتذى بعد أن أتيحت لهم فرص الحراك الاجتماعى إلى الطبقة العليا عبر بوابة الجهاز البيروقراطى للدولة كما أسست تلك التجربة لاحقا لتبعية النخبة الثقافية وارتباطها عضويا بالسلطة السياسية التى عرفت بالممارسة والوقت كيف تروضها بالمنح تارة والمنع تارة أخرى، كما افتقدت تلك النخبة القدرة على المبادرة الذاتية وظلت فى الأغلب الأعم قانعة بممارسة دورها فى كنف الدولة ورحابها (٥٧).

وجريا على نهج الرفض، لم يرض محمد عبده عن سياسة محمد على الاقتصادية بمختلف جوانبها، فتطرق إلى بعض صور المقاومة السلبية فى الريف المصرى تجاه سياسات محمد على منها قوله: " حمل الأهالى على الزراعة ولكن ليأخذ الغلات ولذلك كانوا يهربون من ملك الأطيان كما يهرب

غيرهم من الهواء الأصفر والموت الأحمر وقوانين الحكومة لذلك العهد تـشهد بذلك "(٥٨).

ولم تكن سياسة التصنيع بدورها خاصة تدنى وسوء أحوال العمال بمنـأى عن النقد أيضامن جانب الامام محمد عبده: " يقولون أنه أنشأ المعامل والمصانع ولكن هل حبب إلى المصريين العمل والصنعة حتى يستبقوا تلك المعامـل مـن أنفسهم، وهل أوجد أساتذة يحفظون علوم الصنعة وينشرونها فى البلاد؟ أين هم؟ ومن كانوا؟ وأين آثارهم؟ لا بل بغض إلى المصريين العمل والصنعة بتسخيرهم فى العمل والاستبداد بثمرته فكانوا يتربصون يوما لا يعاقبون فيه علـى هجـر العمل والمصنع لينصرفوا عنه ساخطين عليه لاعنين الساعة التى جاءت بهـم إليه"(٥٩).

وربما كان الحديث السابق للإمام منصرفا حول الفترة اللاحقـة لمعاهـدة لندن عام١٨٤٠ والتى شهدت بداية انحسار مـشروع محمـد علـى برمتـه، والمعروف بأن السياسة الاقتصادية التى تبناها محمد على خاصة رغبتـه فـى تقوية الصناعة المحلية وتقليل الاعتماد على الخارج، قد جرت عليه نقمة العديد من القوى الأوربية وعلى رأسها بريطانيا، وقد أثنى بعـض المـراقبين علـى المصانع الحربية والورش التابعة لها المنتشرة فى القاهرة والإسكندرية ورشـيد عام ١٨٣٣ وقدر عدد العاملين بها نحو خمسة عشر ألفا من العمال واعتبرهـا أول واكبر مصانع حربية فى إفريقيا (٦٠).

كما عرج الإمام محمد عبده أيضا على سياسة محمـد علـى العـسكرية وحروبه لتنال أيضا نصيبها من النقد معتبرا أن الجيش فى نهاية المطاف كـان جيش الباشا، وليس جيش المصريين: " يقولون أنه أنشأ جيشا كبيرا فـتح بـه الممالك ودوخ به الملوك، وأنشأ أسطولا ضخما فهل علم المصريين حب التجند، وأنشأ فيهم الرغبة فى الفتح والغلب، وحبب إليهم الخدمة فـى الجنديـة لا بـل علمهم الهروب منها، وعلم آباء الشبان وأمهاتهم أن ينوحوا عليهم معتقدين أنهم

يساقون إلى الموت بعد أن كانوا ينتظمون فى أحزاب الأمــراء ويحــاربون ولا يبالون بالموت أيام حكم المماليك، وكان من ينتظم فى الجندية على عهد محرر مصر لا يخرج منها إلا بالموت، هل شعر مصرى بعظمة أسـطوله أو بقـوة جيشه، وهل خطر ببال أحد منهم أن يضيف ذلك إليه بأن يقـول هـذا جيـشى وأسطولى أو جيش بلدى أو أسطوله ؟ كلا لم يكن شىء من ذلك ليقل لنا أنصار الاستبداد كم كان فى الجيش من المصريين الذين بلغوا فى رتب الجنديـة إلـى رتبة البكباشى على الأقل؟ فما أثر ذلك فى حياة مصر والمـصريين إلا أسـوأ الأثر – أثر كله شر فى شر لذلك لم تلبث تلك القوة أن تهدمت واندثرت" [٦١].

والواقع أن الإجراءات التى اتبعها محمد على فى تكوين الجيش فضلا عن حروبه الخارجية وجدواها سياسيا واقتصاديا كانتا موضع جدل بين الباحثين[٦٢]، ولعل مما له دلالة فى هذا الصدد حديث محمد على للبارون دى بوالكمت بقوله: " اننى لم افعل فى مصر سوى ما فعله الانجليز فى الهند فلديهم جيش من الجنود الهنود يقودهم ضباط من الانجليز، ولدى جيش من أبناء العرب علـى رأسـه ضباط من الأتراك، والتركى أصلح للحـرب والقيـادة إذ يـشعر بأنـه خلـق ليحكم"[٦٣].

ومن المثير للانتباه أن ذات المعانى والدلالات السابقة التى أوردها الإمام محمد عبده فى أوائل القرن العشرين، كان لها رجع الصدى لاحقـا، ورددهـا بعض الباحثين المعاصرين بقوة فى نهاية العقد الأخير من القرن ذاته بقولـه: " أما بالنسبة للفلاحين فان الادعاء بأن هذا الجيش جيشهم، وأنهم كانوا يحـاربون من أجل أهدافهم، كان سيبدو لهم بالتأكيد أكثر الادعاءات التى سـمعوها سـخفا وأكثرها مدعاة للسخرية لقد توصل الفلاحون إلى أن يروا فـى الجـيش أكثـر جوانب نظام الباشا مقتا "[٦٤].

واتساقا مع نهجه الاصلاحى شدد الإمام كثيرا على غيـاب دور العلمـاء باعتبارهم الصفوة، فهم الأكثر قدرة على معرفة مواطن الضعف والخلل، ويجب

أن يكون لهم زمام المبادرة والقيادة دون انتظار لتوجهات الحكومة (٦٥).

وفى كثير من نصوصه دعا الإمام إلى تصحيح الذهنية السائدة تجاه السلطة لافتا الانتباه إلى الدور السلبى للمجتمع فى تأسيس نهج الاستبداد واستشراءه، فالحكام " لم يفهموا من معنى الحكم إلا تسخير الناس لأهوائهم وإذلال النفوس لسلطانهم، لا يرعون فى ذلك عدلا ولا قانونا، حتى افسدوا أخلاق العامة وكانوا أسوأ مثل يقتدى به الشعب ومن أمعن النظر فى نظرة العامة بدورهم حكم بأن ما يعقله أكثر المسلمين من معنى الحكومة لا يمكن انطباقه على أوليات العقل، وعرف أن ثقتهم بالحاكم قد بلغ حد التأليه من حيث ظنوه قادرا على كل شيء، بدون عون من أحد، وانقلبت تلك الثقة إلى الإدبار والتخلى عنه، من حيث أنهم تركوه وشأنه لا يساعدونه فى حادث ولا يعينونه فى أمر مهم، اللهم إلا إذا أرغموا على ذلك" (٦٦).

ولاشك أن ما ذكره الإمام هو ترجمة لطبيعة النظام السياسى السائد تاريخيا والقائم على شخص الحاكم(٦٧)، فالمجالس العديدة التى أنشاها محمد على كانت مهمتها تقديم الآراء والمقترحات، والباشا وحده هو صاحب الكلمة الأخيرة، ولم يكن ثمة فرق بين شخص الحاكم والدولة، فالخاتم الشخصى لمحمد على كان الخاتم الرسمى للدولة، وخزانة الوالى هى خزانة الدولة، ولم يشذ خلفاء محمد على عن ذلك (٦٨).

واعتبر الإمام أن سياسة محمد على قد تجلت عواقبها بوضوح لاحقا، فأجهز على بقايا الحياة التى كانت سائدة فى مصر من قبل مقارنا فى هذا الشأن بين المقاومة التى لقيتها الحملة الفرنسية، وما حدث لاحقا فى مواجهة الاحتلال البريطانى بقوله: " عندما جاء الانكليز لإخماد ثورة عرابي، دخل الانكليز مصر بأسهل ما يدخل به دامر على قوم، ثم استقروا ولم توجد فى البلاد نخوة فى رأس تثبت لهم أن فى البلاد من يحامى عن استقلالها وهو ضد ما رأيناه عند دخول الفرنساويين إلى مصر، وبهذا رأينا الفرق بين الحياة الأولى والموت

الأخير وجهله الأحداث فهم يسألون أنفسهم عنه ولا يهتدون إليه" (٦٩).

وما فتئ الإمام منوها إلى غياب الجوانب الأخلاقية والدينية عن مجمل تجربة محمد على فعلى الصعيد الخارجى كان التدخل فى الجزيرة العربية ليس تلبية لوازع دينى، وإنما هو بدافع سياسي فى المقام الأول حيث" لا يستحيى بعض الأحداث من أن يقول أن محمد على جعل من جدران سلطانه بنية من الدين، أي دين كان دعامة لسلطان محمد على ؟ دين التحصيل، دين الكرباج، دين من لا دين له إلا ما يهواه ويريده، وإلا فليقل لنا أحد من الناس أي عمل من أعماله ظهرت فيه رائحة للدين الاسلامى الجليل؟ لا يذكرون إلا مسألة الوهابية وأهل الدين يعلمون أن الإغارة فيها كانت على الدين لا للدين، نعم إن الوهابية غلوا فى بعض المسائل غلوا أنكره عليهم سائر المسلمين وما كان محمد على يفهم هذا ولا سفك دماءهم لإرجاعهم إلى الاعتدال، وإنما كانت مسألة سياسية محضة تبعها جرأة محمد على على سلطانه العثمانى" (٧٠).

وفى ختام مقاله فان الإمام رغم اعترافه بقدرات محمد على السياسية والاقتصادية، إلا أنها أتت فى تقديره بنتائج عكسية فقال فى عبارة موجزه وجامعة: " ولا أظن أن أحدا يرتاب بعد عرض تاريخ محمد على على بصيرته أن هذا الرجل كان تاجرا، زارعا، وجنديا باسلا، ومستبدا ماهرا، لكنه كان لمصر قاهرا، ولحياتها الحقيقية معدما، وكل ما نراه الآن فيها مما يسمى حياة فهو من أثر غيره "(٧١).

ولم يسلم عصر الخديوى إسماعيل فى جملته رغم سعيه الدءوب لاستئناف مسار الحداثة مجددا من انتقاد الإمام الذى كان قريب العهد به، فالتجربة السياسية لمجلس شورى النواب الذى أنشأه إسماعيل عام ١٨٦٦ فى رأيه، كانت صورية ولم يكن لها تأثير أو حراك سياسى حقيقى، وكان المصير المنتظر لأية معارضة لسلطة الخديوى هو" النفى عن الوطن، أو إزهاق للروح، أو تجريد للمال" (٧٢).

وفى الختام فان الإمام محمد عبده على ما يبدو قد رأى على نحو أو آخر أن الإرادة السياسية القوية لمحمد على قد استطاعت أن تفرض على مصر طوعا أو كرها نموذجا بعينه للحداثة حمل فى طياته بذور تناقضاته وفشله سلفا، معتبرا أن جملة إصلاحاته كانت مجرد تفكيكا لعرى النظام القديم بترميم جزئى هنا أو إصلاح هناك، كما أن الجديد الذى تبناه لم يبدو متسقا فى أعين الكثيرين،صحيح انه بدت على الساحة جيوبا للحداثة لها بريقها لا تخطئها العين، إلا أنها مضت فى نهاية المطاف كومضة سريعة وأصبحت أثرا بعد عين، ولم تجد لنفسها جذورا باقية فى التربة المصرية.

والحقيقة أن رؤية الإمام رغم حجتها وقوة منطقها، قد اتسمت بالأحادية فلم ير فى تلك التجربة شيئا ايجابيا على الإطلاق وهو أمر انطوى على قدر من الإجحاف، ويجب أن يؤخذ بعين الاعتبار أن الإمام محمد عبده قد طرح رؤيته بعد رحلة طويلة من الانخراط فى العمل السياسى إبان الثورة العرابية، فضلا عن ما تعرض له من نفى وتشريد خارج البلاد، وعقب السماح له بالعودة إلى مصر علِق رجاءا كبيرا على الإصلاح الاجتماعى لاسيما التربية والتعليم، بل اعتبره المقدمة الحقيقية للإصلاح السياسى الشامل.

ومن ثم فقد عول الإمام –باعتباره فيلسوفا ومصلحا اجتماعيا– كثيرا على المدخل الاخلاقى بما انطوى عليه من نهج مثالى، واتخذه وحده آداه للحكم على تجربة محمد على، ولعل هذا يفسر البون الشاسع بين الإطار الحاكم لنظرة الإمام وقناعته، وبين رؤية أستاذه جمال الدين الافغانى الذى امتدح محمد على من منظور السياسى المجرب واصفا إياه بأنه " نابغة عصره" (٧٣).

ومن ناحية أخرى، ربما بدت الكلفة الاجتماعية لمجمل تجربة محمد على جائرة فى كثير من الأحيان، إلا انه لا يجب أن نغفل بحال أن الرجل قد شرع فى بناء أركان دولته من نقطة البداية تقريبا، واستطاع أن يخلق من ركام الفوضى السياسية السائدة معالم دولة لها حضورها ووزنها على المستوى

الإقليمي، ولعل ما يلفت الانتباه أيضا فى هذا الصدد، انه رغم حـرص محمـد عبده على التعرض لمختلف جوانب تجربة محمد على، إلا أنه اغفل الحديث عن الموقف الدولى إزاء التجربة وسعيه الدائم الى محاربتهـا وتـصفيتها، لاسـيما موقف انجلترا ومعها باقى القوى الأوربية الكبرى ومدى ما مارسته من ضغوط متواصلة، كان لها أكبر الأثر فى مسيرة تلك التجربة فى الداخل والخارج.

وهكذا ظل خيار الإصلاح التدريجى وبثبات يحظى بالأولوية لدى الإمـام محمد عبده بلا منازع معتبرا " أن الذين يرومون الخير الحقيقى لأوطانهم، يجب أن يوجهوا اهتمامهم إلى إتقان التربية ونشر التعليم، إذ أن إصلاح نظم التربيـة والتعليم فى البلاد، يجعل وجوه الإصلاح الأخرى أكثر يـسرا، ولكـن الـذين يتخيلون أن نقل أفكار الغرب وعاداته إلى بلادهم، سيصل بها بعد زمن وجيـز إلى درجة من المدنية تماثل مدنية الغرب، هؤلاء يخطئون خطـأ كبيـرا فهـم يبدأون بما هو فى الحقيقة نهاية تطور طويل المدى" (٧٤).

وقصارى القول أن إدراك الإمام محمد عبده لمسيرة التطور فى أوربـا، فضلا عن إحاطته بالتراث الاسلامى ومعرفته الوثيقة بواقعه الاجتماعى السائد، كان وراء نهجه الاصلاحى حالما بوجود " المستبد العادل " فكانت صيحته الباقية " هل يعدم الشرق كله مستبدا من أهله، عادلا فى قومه يتمكن به العدل أن يصنع فى خمس عشرة سنة ما لا يصنع العقل وحده فى خمسة عشر قرنا" (٧٥).

الهوامش :

(١) عاصم الدسوقى، صورة محمد على باشا بأقلام مصرية، مجلة الهلال، عدد يوليو ٢٠٠٥ ، خالد عبد المحسن بدر، شخصية محمد على، رؤية تحليلية، ضمن رءوف عباس (محررا)، إصلاح أم تحديث ؟ مصر فى عصر محمد على، المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٠، ص ١٠-٥٧ .

(٢) كانت تجربة محمد على ملء السمع والبصر، وكان لها رجالها الذين تبوءوا مناصبهم وتدرجوا فى حياتهم فى كنفها ولعل أعمال رفاعة الطهطاوى وتلاميذه وأيضا على مبارك وخليل الرجبى قد جسدت وتوحدت إلى حد كبير مع المشروع السياسى لمحمد على فى مجمله وصارت بحق الوجه الفكرى لهذه الفترة وحتى نهاية عهد الخديو إسماعيل، راجع على نحو خاص، Daniel Crecelius.Shayku Khalil Ahmed al-Rajabi's Defense of Muhammad Ali and His Policies.pp.6970 فى، عاصم الدسوقى (محررا)، الدين والدولة فى العالم العربى، مركز البحوث والدراسات الاجتماعية، الطبعة الأولى، القاهرة ٢٠٠٣ .

(٣) الجبرتى، عجائب الآثار فى التراجم والأخبار، ج٤، المطبعة الشرفية، ١٣٢٢ هـ، ص ٢٢١-٢٢٢، وقد أشار البعض إلى أن تلك الانتقادات كانت سببا لعدم ظهور عمل الجبرتى الذى ظل محجوبا فى عهد محمد على وخلفاؤه حتى أذن الخديو توفيق بطبعه للمرة الأولى عام ١٢٩٧هـ-١٨٨٠م،انظر،

Daniel Crecelius.p.70 وأيضا محمود الشرقاوى، مصر فى القرن الثامن عشر، ج١، ١٩٥٧، ص ٣١، وقد أشار البعض إلى محاولة محمد على استمالة الجبرتى من خلال تعيين ابنه خليل أو هو نفسه لشغل وظيفة ميقاتى للصلاة وهلالى رمضان وشوال بقصر شبرا إلا أن ذلك لم يثن الجبرتى عن انتقاداته لمحمد على وسياساته، راجع، خليل بن احمد الرجبى، تاريخ الوزير محمد على باشا، تحقيق وتعليق ودراسة، دانيال كريسيليوس، وآخرين، الطبعة الأولى، دار الآفاق العربية، ١٩٩٧، ص ١٩.

(٤) يلاحظ فى هذا الصدد الأوصاف التى أطلقت عليه خلال حكمه مثل " ولى النعم " " الجناب الأكرم "، " أفندينا الحاج محمد على"، " صاحب الهمم الكسروية والأخلاق الجميلة البهية " انظر، خليل الرجبى، مرجع سابق، ص ٥٦، وقد صدر هذا الكتاب بتكليف من الشيخ العروسى شيخ الأزهر تقريظا لأعمال الباشا الذى كان يحلو له أن يذكر دائما أنه ولد مع نابليون فى يوم واحد، وأنه ولد مع الاسكندر فى بلد واحد أيضا رغم تشكيك العديد من المؤرخين فى ذلك، ثم لاحقا اصدر محمد درى كتابا بعنوان " النخبة الدرية فى مآثر

العائلة المحمدية العلوية عام ١٣٠٤ هـ،كما اصدر محمد فريد كتابه " البهجة التوفيقية فى تاريخ مؤسس الأسرة الخديوية عام ١٣٠٨ هـ، و يعود الفضل إلى عمل هنرى دود ويل الشهير عن محمد على الصادر عن كمبردج عام ١٩٣١ فى الترويج له فى العالم الانجلوفونى، ثم نشر عبد الرحمن الرافعى كتابه الذى حمل عنوان " عصر محمد على " وتصدرته صورة شهيرة له كتب أسفلها " مؤسس الدولة المصرية الحديثة وباعث نهضتها واستقلالها، ومنذ ذلك الوقت بدأ التماهى بين مصر ومحمد على فى معظم الدراسات اللاحقة، راجع، عاصم الدسوقى، مرجع سابق، رينيه قطاوى، جورج قطاوى، محمد على وأوربا، نقله عن الفرنسية الفريد يلوز، دار المعارف بمصر، ١٩٤٩، ص -٢٢، محمد رفعت، تاريخ مصر السياسى فى الأزمنة الحديثة، ج١،المطبعة الأميرية، ١٩٣٤، ص، ٧٢-٧٣ .

(٥) حول تفاصيل مشروع الملك فؤاد وتكليفه لعدد من الكتاب الأجانب بإعادة كتابة تاريخ الأسرة الحاكمة منهم ساماركو وجورج دوان وببيركرابيتس وهنرى دود ويل، راجع، المقدمة فى، جورج جندى وجاك تاجر، إسماعيل كما تصوره الوثائق الرسمية، مطبعة دار الكتب المصرية، ١٩٤٧، وراجع أيضا العديد من التفاصيل فى
Yoav Di-Capua.Jabarti of The 20Th Century :The National Epic of Abd al-rahman alrafi and Other Egyptian Histories.Int.J.Middle East Stud.36.2004.pp.432-433.

(٦) عفاف لطفى السيد، مصر فى عهد محمد على، المجلس الأعلى للثقافة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٤، ص ١٣ .

(7)Kenneth.M.cuno. Muhammad Ali and the decline and revival Thesis in modern Egyptian history ,pp.94-95,in
رءوف عباس – إصلاح أم تحديث ؟ مصر فى عصر محمد على – المجلس الأعلى للثقافة – ٢٠٠٠، محمد عفيفى (محررا) حصاد المدرسة التاريخية لتاريخ مصر الحديث والمعاصر فى الخمس والعشرين سنة الأخيرة، الطبعة الأولى، دار الشروق، القاهرة، ١٩٩٧، ص ١٢-١٣ .

(٨) دعا البعض إلى إعادة النظر فى بعض المفاهيم المستخدمة مثل الضعف -الانهيار، والتخلف -التقدم، و الإصلاح - التحديث، حيث تباينت فى الرؤى والدلالات ليس فقط من حقبة لأخرى ولكن أيضا لدى الدارسين والمؤرخين المصريين على تنوع مشاربهم الفكرية، راجع
Yoavdi-Capua. The Thought and Practice of The Modern Egyptian Historiography .1890-1970. Unpublished Diss.Princeton Uni.2004.pp8-9

(٩) يذكر فى هذا الصدد أن مديرية قنا كانت مسرحا لأعنف ثورات ضد حكم محمد على

فى الفترة من عام ١٨٢٠-١٨٢٤ بزعامة احمد الطيب و لم يتوان محمد على فى قمع تلك الثورة بقوة مفرطة مثل حرق القرى وتدمير البيوت وتهجير أصحابها راجع علـــى نحـــو خاص،

Abul-Maged. Zeinab. Empire And Its Discontents; Modernity And Subaltern Revolt in Upper Egypt 1700-1920, unpublished Diss.Georgetown Uni.2008.pp.106-107

كما صور الرحالة والمستشرق الفرنسى بـــريس دافـــين (١٨٠٧-١٨٧٩) محمـــد علـــى باعتباره طاغية وان الفلاحين أطلقوا عليه لقب ظالم باشا، راجع، إدريس افندى فى مصر، جمعها وترجمها الدكتور أنور لوقا، مطبوعات أخبار اليوم، القاهرة ١٩٩١ - ٢١-٢٢ . وراجع، دى شابرول، وصف مصر، دراسة فى عادات وتقاليد المصريين المحدثين، ج١، ترجمة زهير الشايب، القاهرة، ١٩٧٦، ص ٢٨٦-٢٨٧، وحول بعض مظاهر العنف فى الريف المصرى، راجع، على بركات، تطور الملكية الزراعية فى مـــصر ١٨١٣-١٩١٤ وأثره على الحركة السياسية، دار الثقافة الجديدة، القاهرة، ١٩٧٨، ص ٣٨٥-٣٨٦ .

(١٠)رأى البعض أن تقييم الإمام محمد عبده لتجربة محمد على ترك أثرا بصفة خاصة على أعمال محمد صبرى السربونى وكذلك عبد الرحمن الرافعى حيث ابرزا النزعة القوميـــة واستحضار كفاح الشعب المصرى على نحو بارز ، انظر

Yoavdi-Capua, .opcit.p.60

(١١)تباينت الآراء حول تقدير الحملة الفرنسية على مصر وغالى البعض فى هـــذا الـــصدد فعزا لها الفضل فى وضع بذور الحياة النيابية و إسقاط "سور الخرافة العثمانى " و" حاجز التخلف المملوكى على حين رأى آخرون أن الأثر الفرنسى لم يكن له أدنى تـــأثير علـــى المجتمع المصرى لأنه " وجد فى ارض صماء " راجع، أنور عبد املك، نهضة مـــصر، الهيئة العامة للكتاب، ١٩٨٣، ص-١٢٨، لويس عوض، المؤثرات الأجنبيـــة فـــى الأدب العربى الحديث، معهد الدراسات العربية العالية، ١٩٦٣، ص ٣٠-٥١ وأيضا

Abu-lughod.Ibraim.Arab Rediscovery of Europe, A study in Cultural Encounters. Princeton Uni Press.1963.p.20 وقصارى القول أن الأثر الفرنسى قد أسفر عن إيجاد وعى محدود لدى بعض مثقفى الفترة وإدراكهم لمدى واقع التخلف المحـــيط بهم

(١٢)رأى البعض أن سعى محمد على كان منصبا على تأسيس حكما وراثيا له فى مـــصر، وكان هذا السعى هو العامل الحاسم والموجه لسياساته فى الداخل والخارج، وهـــو رغـــم صلته وانفتاحه على الغرب فان ذلك كله كان محصورا فى دائرة الوسائل، و لم ينل مـــن جوهره ولم يغير من صبغته الشرقية ولعل ذلك يفسر إلى حد كبير التناقض بين النزعات القديمة والمظاهر الحديثة فى سياساته، راجع، محمد فؤاد شكرى مصر فى مطلع القـــرن

التاسع عشر، ١٨٠١- ١٨١١، مطبعة جامعة القاهرة، ١٩٥٨، صـن ب، ج، صـبحى وحيده، فى أصول المسالة المصرية، مكتبة الانجلو المصرية، ١٩٥٠، ص ١٥٢-١٥٣.

(١٣)بيتر بروكر، الحداثة وما بعد الحداثة، ترجمة عبد الوهاب علـوب، مراجعـة جـابر عصفور،منشورات المجمع الثقافى، الطبعة الأولى، ابوظبى،١٩٩٥، ص ٩-١٠

(١٤)حول تزايد نشاط البيوت التجارية فى مصر منذ النصف الثانى من القرن الثامن عـشر وما صاحبه من نهضة علمية راجع،
Peter Garn .Islamic Roots of Capitalism,Egypt.1760-1840.London.1979.p.56

(١٥)أنور عبد الملك، نهضة مصر، تكون الفكر والايدولوجيا فى نهضة مـصر الوطنيـة، ١٨٠٥-١٨٩٢، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٢، ص ٢٤ ؛ معن زيادة، معالم على تحديث الفكر العربى، عالم المعرفة، عدد ١١٥، الكويت ١٩٨٧، ص ٨٨-٨٩ .

(١٦)فى ٢١ مايو ١٩٠٢ أشاد مصطفى كامل بمحمد على باعث نهضة مصر وتقدمها فـى خطبته التى ألقاها فى حشد ضخم بالإسكندرية، الأهرام، ٢٢ مـايو ١٩٠٢، وفـى نفـس الإطار وصف البعض محمد على بأنه كان أبا لشعبه وأمن مصر من الاستبداد، راجع،
The Egyptian Gazette.21 May.1902
كما أشاد جورجى زيدان بمآثر وجهود محمد على معتبرا انه غير وجه التـاريخ الاسـلامى الحديث، انظر Yoavdi.p.21

(١٧)محمد رشيد رضا، تاريخ الأستاذ الإمام، ج٢، الطبعة الأولى، مطبعـة المنـار، ١٣٢٤ هـ، ص ٤١٤ .

(١٨)محمد عمارة، الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده، ج١، الطبعة الثانية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٧٩، ص ١١١، والمعروف أن الخديوى عباس حلمى قـد غضب بشدة عندما شارك بعض موظفى الديوان الخديوى فى تشييع الإمام لمثواه الأخير، انظر، أحمد شفيق، مذكراتى فى نصف قرن، ج٣، الهيئة العامة للكتاب، ١٩٩٨، ص ٧٢، و قد أشار البعض أيضا إلى مشاطرة تلاميذ الإمام نفس الشعور تجاه الأسـرة الحاكمـة ومنهم، سعد زغلول، حسن عاصم، عبد الكريم سلمان، إبراهيم اللقانى، محمد رشيد رضا، راجع أيضا، عبد اللطيف حمزة، أدب المقالة الصحفية، ج٢، الطبعة الثالثـة، دار الفكـر العربى، ١٩٦٥، ص ٦٦ .

(١٩)عزت قرنى، فى الفكر المصرى الحديث، محاولات فى إعادة التفسير، الهيئـة العامـة للكتاب، ١٩٩٥، ص ١٧٥، وانظر، عبد الله شحاتة، الإمام محمد عبده بين المنهج الدينى، والمنهج الاجتماعى، سلسلة تاريخ المصريين، القاهرة، ٢٠٠٠، ص ٤٩ .

(٢٠)محمد رشيد رضا، مرجع سابق، ص ٥٧- ٦٤، محمد عمارة، مرجع سابق، ج١، ص

١٧٧، وقد أشار عثمان أمين ابرز من تتبع حياة الإمام إلى أنه قد ألف كتابا عنوانـــه فـــى " فلسفة الاجتماع والتاريخ " عقب محاضراته بدار العلوم ولم يبق منه سوى بضع صفحات وانه قد ضاع بعد مصادرة أوراقه عقب نفى الافغانى من مـــصر، انظـــر، رائـــد الفكـــر المصرى الإمام محمد عبده، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥٥، هامش رقم (٣)، ص ٦٠ .

(٢١)محمد رشيد رضا، مرجع سابق، جـــ٢، ص ٣٦٦.

(٢٢)المرجع السابق، ص٣٦٧ .

(٢٣)نفس المكان .

(٢٤)نفسه .

(٢٥)عثمان أمين، مرجع سابق، ص ٣٤-٣٥ .

(٢٦)المرجع السابق، ص ٣٣، احمد أمين، زعماء الإصلاح، ص ٦٨-٦٩ . (٢٧) محمـــد عمارة، مرجع سابق، ص ٥٣٠-٥٣١، عبد اللطيف حمزة، أدب المقالة الصحفية، مرجع سابق، ص ١١ .

(٢٧)المرجع السابق، ص ٣٣، احمد أمين، زعماء الإصلاح، ص ٦٨-٦٩ . (٢٧) محمـــد عمارة، مرجع سابق، ص ٥٣٠-٥٣١، عبد اللطيف حمزة، أدب المقالة الصحفية، مرجع سابق، ص ١١ .

(٢٨)نفسه، ص ٣٦٧-٣٦٨ .

(٢٩)نفسه، ص ١٤٥ .

(٣٠)نفسه، ص ١٣٥-١٣٩ .

(٣١)عثمان أمين، مرجع سابق، ص ٩٤-٩٥، وفى موضع آخر يقول بوضوح " تولى أمـــر هذه البلاد أناس فى أزمنة مختلفة تظاهر كل منهم بأنه يريد تقدمها ونقلها من حالة الهمجية على ما يزعم إلى حالة التمدن التى عليها أبناء الأمم المتمدنة، وجعلوا الوسيلة إلى ذلك أن تنقل عادات أولئك المتمدينين وأفكارهم وأطوارهم إلى هذه البلاد، وظنوا أن تقليدنا لعاداتهم وأخذنا الآن بأفكارهم اليومية وتشبهنا بهم فى الأطوار، كان مـــن أن نكـــون مـــثلهم، وان استلامنا لتلك العادات وتلقينا لتلك الأفكار أمر غير عسير، لـــم ينظـــروا فـــى الأســـباب والوسائل التى توصل بها أولئك الأمم إلى هذه الحال التى هم عليها ... بل ظنوا أن هذه الغاية من الممكن أن تكون بداية، مع أن ما نرى عليه جيراننا من الممالـــك الغربيـــة لـــم يصلوا إليه إلا بعد معاناة ومقاساة مشاق وسفك دماء شريفة وشل عروش ملك رفيعة ... حتى بدلت الحوادث الدهرية طبائع الاهالى وغيرت أخلاقهم، ونبهت الضرورات أفكارهم، وهذبت المخالطات الجهادية والتجارية عقولهم "، انظر، محمد عمارة، مرجع ســـابق، ص ٣٢٧ .

(٣٢)لم تكن هذه هى المرة الأولى التى وصف فيها الوضع السياسى فى مصر بحكومة الالتزام، فقد سبق وأن وصف رفاعة الطهطاوى حكم شيخ العرب همام بأنه " جمهورية التزامية "، وكان يعنى بذلك أنها حكومة الأشراف أو الأعيان، راجع، تخليص الإبريز، مكتبة البابى الحلبى، القاهرة، ١٩٠٥، ص ١٩٦-١٩٧، وراجع أيضا، ليلى عبد اللطيف، الصعيد فى عهد شيخ العرب همام، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٧، ص ١٠٤-١٠٥.

(٣٣)تاريخ الأستاذ الإمام، ج٢، ص ٤١٤ -٤١٥، وكذلك، عباس محمود العقاد، عبقرى الإصلاح والتعليم، لجنة الترجمة، د.ت، ص ٢٨-٢٩، وبعكس رؤية الإمام فلم ير خليل الرجبى فى حكم المماليك شيئا ايجابيا على الإطلاق، بل كان مثالا على الجور والظلم، راجع، تاريخ الوزير محمد على، مرجع سابق، ص ٦٩-٧٠.

(٣٤)الإصلاح العثمانى وسياسات الأعيان، الاجتهاد العددان الخامس والأربعون والسادس والأربعون، بيروت، ٢٠٠٠، ص ١١١-١١٢ .

(٣٥)تاريخ الأستاذ الإمام، مرجع سابق، ص ٤١٦ .

(٣٦)عجائب الآثار، ج٢، مرجع سابق، ص ١٦٩ .

(٣٧)عفاف لطفى السيد، مرجع سابق، ص ٩٨-٩٩ .

(٣٨)تاريخ الأستاذ الإمام، مرجع سابق، ص ٤١٦.

(٣٩)رءوف عباس، المصريون والسلطة، الهلال، يوليو ١٩٩٦، ص ٥٤-٥٥، وراجع، محمد نور فرحات، التاريخ الاجتماعى للقانون فى مصر الحديثة، العصر العثمانى، ١٩٨٦، ص ١٤٢-١٤٣ .

(٤٠)حورانى، مرجع سابق، ص ١٢٦.

(٤١)الجبرتى، ج٤، ص ٢٩٨-٢٩٩، وأيضا على مبارك، الخطط التوفيقية، ج٢، الطبعة الثانية، القاهرة ١٩٩٠، ص ١١٠ .

(٤٢)تاريخ الأستاذ الإمام، مرجع سابق، ص ٤١٧ .

(٤٣)الجدير بالذكر أن رفاعة الطهطاوى على ما يبدو كان مؤيدا لمحمد على فى صدامه بالدولة العثمانية، و عبر عن حتمية انفصال مصر عن الدولة العثمانية لاقتضاء موقع مصر وحدة التصرف وعدم التبعية وأنها لا تفلح حكومتها إلا بانفراد الحاكم بالتصرف، راجع أنوار توفيق الجليل فى أخبار مصر وتوثيق بنى إسماعيل، مطبعة بولاق، ١٨٦٨، ص ٢٣٨-٢٣٩ .

(٤٤)تاريخ الأستاذ الإمام ،ص ٤١٧ .

(٤٥)حلمى أحمد شلبى، الموظفون فى مصر فى عصر محمد على، تاريخ المصريين،

١٩٨٩، ص ٣١ .

(٤٦)خالد عبد المحسن بدر، مرجع سابق، ص ٥١، أنور عبد الملك، نهضة مصر الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٣، ص ١٢٩ .

(٤٧)حلمى أحمد شلبى، المرجع السابق، ص ٢٧ .

(٤٨)المرجع السابق، ص ٤٠ .

(٤٩)تاريخ الأستاذ الإمام، مرجع سابق، ص ٤١٨ .

(٥٠)المرجع السابق، ص ٨٦ .

(٥١)محمد عمارة، مرجع سابق، ص ٨٥٧ .

(٥٢)عثمان أمين، مرجع سابق، ص ٣٣، و لم يكن ذلك هو موقف الإمام وحده بل شايعه فى هذا آخرين، وكان عبد الله النديم من أكثر الذين حملوا على دعاة " الفرنجة "، راجع على سبيل المثال مقاله " عربى تفرنج "، وقد المح البعض انه كان يقصد بحديثه على مبارك، انظر، عزت قرنى، مرجع سابق، ص ١٧١-١٧٢ .

(٥٣)كانت الأولوية فى الترجمة والنشر للكتابات المتعلقة بالفنون الحربية والموضوعات الخاصة بالمجالات الصناعية والزراعية على غيرها من الأعمال الأدبية والتراثية، انظر أبو الفتوح رضوان، تاريخ مطبعة بولاق ولمحة فى تاريخ الطباعة فى بلدان الشرق الأوسط، المطبعة الأميرية، ١٩٥٣، ص ٢٥٤-٢٥٥ .

(٥٤)محمد رشيد رضا، مرجع سابق، ص ٤١٨ .

(٥٥)لم يكن اختيار طلاب البعثات على أساس علمى بقدر ما ارتبط بالمحاباة الشخصية فأسماء مثل " أرتين " وإخوته "خسرو "و"اسطفان " و" يوسف " اختيروا بواسطة بوغوص مستشار محمد على ووزيره، وهكذا كانت الأغلبية من الطلاب من العناصر التركية والأرمينية وقلة من المصريين، راجع

Silvera.Alain.The Egyptian Student Mission to France Under Muhammad Ali.Middle Eastern Studies.May.1980.pp.8-9

(٥٦)لم يكن محمد على راغبا فى نشر التعليم بين عامة المصريين، فحذر فى إحدى رسائله لابنه إبراهيم من خطورة تعميم التعليم بين أبناء العامة، راجع، أحمد عزت عبد الكريم، تاريخ التعليم فى عصر محمد على، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٣٨، ص ٣٩ .

(٥٧)أنور عبد الملك، مرجع سابق، ص ٢٠٣، و بالتأكيد لم يغب عن النخبة الثقافية آنذاك درس الطهطاوى وعلى مبارك، فالأول قضى أربع سنوات منفيا بالخرطوم فى عهد عباس الأول بدعوى إنشاء مدرسة ابتدائية، والآخر كان طورا فى قلب السلطة وزيرا، وطورا بلا عمل .

(٥٨)محمد رشيد رضا، مرجع سابق،ص ٤١٨، وراجع، على بركات، مرجـع سـابق، ص ٣٨٨-٣٨٩ .

(٥٩)المرجع السابق، نفس المكان .

(٦٠)راجع وصف الضابط C.Rochfort Scott لمصانع الباشا فى
John Dunn. Egypt' Nineteenth-Century Armaments Industry. The Journal of Military History.Apr.1997.pp,235-236

(٦١)نفسه، ص ٤١٩ .

(٦٢)خالد فهمى، كل رجال الباشا، ترجمة شريف يونس، دار الـشروق، ٢٠٠١، ص ٧٢-٧٤.

(٦٣)حلمى أحمد شلبى، مرجع سابق، ص ٣١ .

(٦٤)خالد فهمى، مرجع سابق، ص ٣٦٢ .

(٦٥)عثمان أمين، مرجع سابق، ص ٩١، وأيضا، العقاد، مرجع سابق، ص ١٦٨ .

(٦٦)المرجع السابق، ص ٩٢، وفى نص آخر يقول " ... وهناك أمر آخر كنت من دعاته والناس جميعا فى عمى عنه، وبعد عن تعقله، ولكنه الركن الـذى تقـوم عليـه حيـاتهم الاجتماعية، وما أصابهم الوهن والضعف والذل إلا بخلو مجتمعهم منه، وذلك هو التمييـز بين ما للحكومة من حق الطاعة على الشعب وما للشعب من حق العدالة على الحكومـة، نعم كنت فيمن دعا الأمة المصرية إلى معرفة حقها على حاكمها، وهى هذه الأمة التى لم يخطر لها هذا الخاطر على بال من مدة تزيد على عشرين قرنا، دعوناها إلى الاعتقاد بأن الحاكم وان وجبت طاعته هو من البشر الذين يخطئون وتغلبهم شهواتهم، وانه لا يرده عن خطئه ولا يوقف طغيان شهوته إلا نصح الأمة له بالقول وبالفعل ".

(٦٧)أ.بونيه، الدولة والنظم الاقتصادية فى الشرق الأوسط، ترجمة راشد البراوى، النهـضة المصرية، ١٩٥٠، ص ١٢-١٣، مورو بيرجر، البيروقراطية والمجتمع، دراسات عـن موظفى الحكومة، ترجمة محمد توفيق رمـزى، مكتبـة النهـضة المـصرية ، ١٩٥٩، ص٢٩ .

(٦٨)عبد السميع سالم الهراوى، لغة الإدارة العامة فى مصر فى القرن التاسع عشر، المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب، القاهرة، ١٩٦٣، ص ٢٩٥ .

(٦٩)محمد رشيد رضا، مرجع سابق، ص ٤١٩-٤٢٠ .

(٧٠)المرجع السابق، ص ٤٢٠ .

(٧١)المرجع نفسه .

(٧٢)عثمان أمين، مرجع سابق، ص ٣٣-٣٤ .

(٧٣) سيد هادى خسرو شاهى، الآثار الكاملة، ج ٦، مكتبة الـــشروق الدوليـــة، ٢٠٠٦، ص ١٩٢ .

(٧٤)نفسه، ص ٩٣-٩٤، وذكر عثمان أمين أن محمد عبده لم يكن مشايعا لعرابـــى وكـــان ينظر إليه باعتباره ناطقا بأفكار عسكرية، ويفضل حكما مصحوبا بإصلاح داخلى ويعتمـــد على نشر الثقافة وبث التربية السياسية والأخلاقية فكان يقول " إن الأمة لو كانت مستعدة لأن تشارك الحكومة فى إدارة شئونها لما كان لطلب ذلك بالقوة العسكرية معنـــى، فمـــا يطلب به رؤساء الجند غير مشروع : لأنه لو تحقق ونالت البلاد مجلس شورى لما كـــان ذلك تصويرا لاستعداد الأمة ولا تحقيقا لمطالبها، فلا لا يلبث أن ينهدم يزول، وأخـــشى أن يجر هذا الشغب على البلاد احتلالا أجنبيا " نفسه، ص ٣٦ .

(٧٥)تاريخ الأستاذ الإمام، مرجع سابق، ص ٤٥١ .



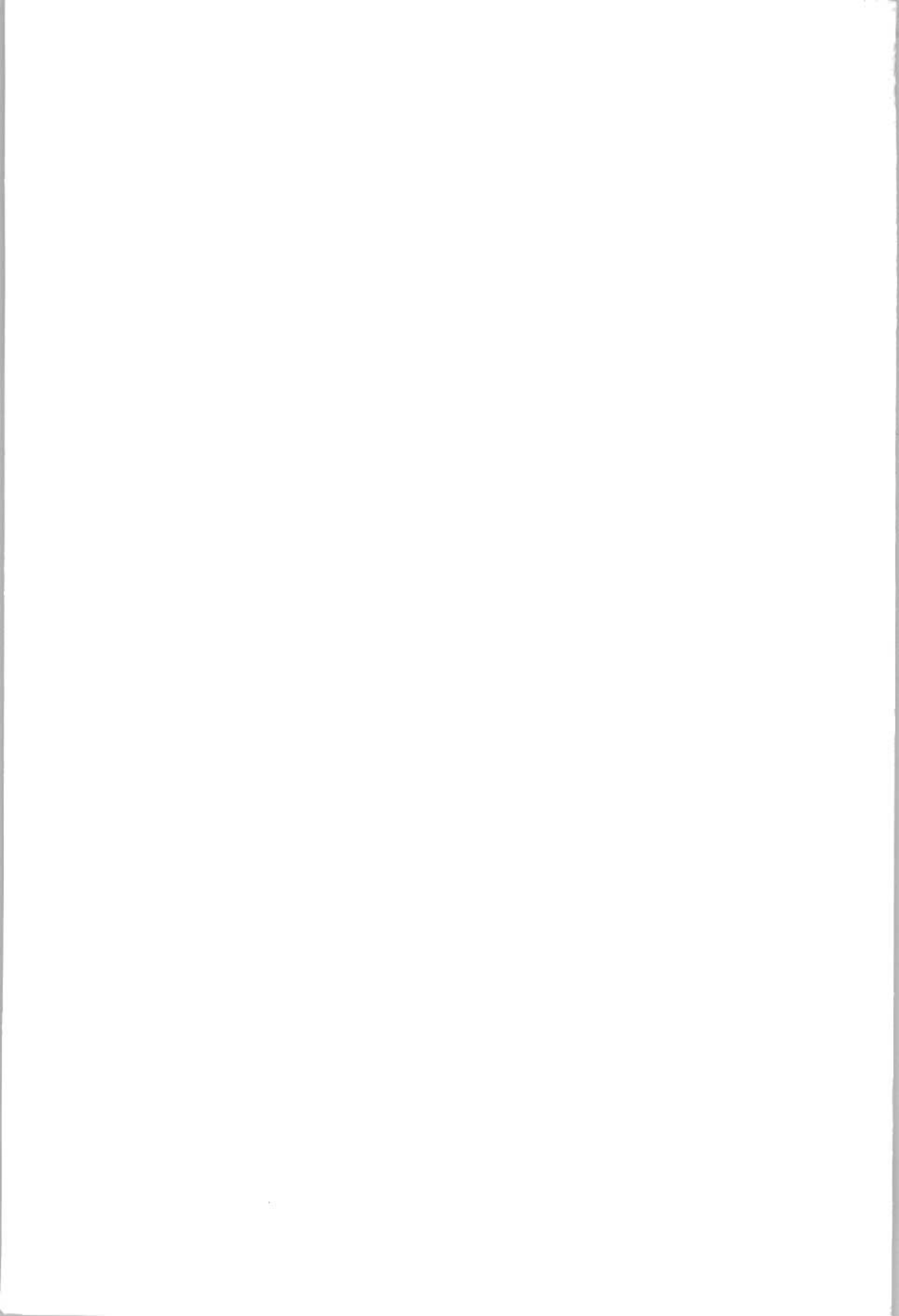


Egyptian Historian

Studies and Research in the History of Civilization
(Scientific journal semi-annual)

Issued by the Department of History
Faculty of Arts - Cairo University

Forty-number
Part II
January 2012





Journal Egyptian Historian



Studies & Researches In History & Civilization



Issued by the Department of History
Faculty of Arts - Cairo University

Volume 40 **Part 2** **January 2012**